تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثالث

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء الثالث

تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ ، وَآتَيْنَا عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا ، فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ ، وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)

بسم الله الرحمن الرحيم

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى بيان سنة الله فى خلقه ، أن الحق لابد أن ينتصر على الباطل ، وأنه لابد أن يقيض له أعوانا يدافعون عنه ، ويكتب لهم الغلبة والفوز مهما كان للباطل من صولة ، وقد ضرب لذلك مثل جالوت جبّار الفلسطينيين الذى استولى على ملك بنى إسرائيل واستحوذ على خيرات بلادهم ، فقام أولو الرأى فيهم وطلبوا من نبيهم صموئيل أن يختار لهم ملكا يقوم بأمرهم ويعد لهم جيشاً يقاوم به

عدوهم فاختار لهم طالوت ملكا ، فجيش الجيوش وذهب بهم إلى ساحة القتال ، وكتب لهم الظفر على العدو بإذن الله ، وقتل داود - وكان فى عسكر طالوت - جالوت وانهزم العدو وولى الأدبار وكان الفوز للمؤمنين على الوثنيين الكافرين .

وما تمّ هذا إلا بفضل داود الذى آتاه الله الملك والنبوة وعلمه كل ماينفع من عتاد الحرب كالدروع والآلات الأخرى .

ثم ذكر بعد هذا أنه لولا فضل الله ورحمته وسابق حكمته بأن يدفع أهل الخير والإصلاح فى الأرض أهل الفساد والشرور والآثام فيها لاختل نظام العالم وفسد أمره .

وبعدئذ ذكر أن ذلك القصص الذى تلاه على رسوله قصص أمم قد خلت لم يكن له سابق علم بحالها من قبل ، فمعرفته إياها لم تكن إلا بوحى من لدن حكيم خبير ، وهذا دليل على أنه من المرسلين .

وهنا ذكر أن أولئك المرسلين قد ميز الله بعضهم على بعض ، فآتى بعضاً مزايا ومناقب ليست لغيره كما فصل ذلك فى الآية الكريمة ، وقد خص بالذكر من بقى لهم أتباع ، وذكر ما كان من أمر أتباعهم من بعدهم فى الاختلاف والاقتتال .

الإيضاح

(تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض) أى هؤلاء الرسل المشار إليهم بقوله : « وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ » فضلنا بعضهم على بعض فى مراتب الكمال ، فخصصناه بمآثر جليلة خلا عنها غيره ، مع استوائهم جميعاً فى اختياره تعالى لهم للتبليغ عنه وهداية خلقه إلى ما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

وخلاصة هذا - أنهم كلهم رسل الله ، فهم جديرون أن يقتدى بهم ويهتدى بهديهم ، وإن امتاز بعضهم عن بعض بخصائص فى أنفسهم وفى شرائعهم وأممهم .

ثم بين هذا التفضيل فى بعض المفضلين فقال :

(منهم من كلم الله) أى منهم من فضله الله بأن كلمه من غير سفير وهو موسى عليه السلام كما قال تعالى فى سورة النساء « وكلم الله موسى تكليما » وفى سورة الأعراف « وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ » وفى الآية بعدها « قَالَ يَا مُوسَى إِنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِى وَبِكَلَامِى » .

(ورفع بعضهم درجات) أى ومنهم من رفعه الله على غيره من الرسل بمراتب متباعدة فى الكمال والشرف ، والمراد به محمد صلى الله عليه وسلم كما رواه ابن جرير عن مجاهد ، ويؤيده السياق أيضا ، فإن الكلام فى بيان العبرة للأمم التى تتبع الرسل ، والتشنيع عليهم فى اختلافهم واقتتالهم ، مع أن دينهم واحد فى جوهره ، والموجود من هذه الأمم اليهود والنصارى والمسلمون ، فالمناسب تخصيص رسلهم بالذكر وقد ذكر موسى أولا وعيسى آخراً ومحمداً فى الوسط ، إشعاراً بأن شريعته وأمته وسط .

ومن هذه الدرجات ما هو خصوصية فى أخلاقه الشريفة كما يرشد إلى ذلك قوله فى سورة القلم « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » ومنها ما هو فى كتابه وشريعته كما يدل على ذلك قوله فى فضل القرآن « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ » وقوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً مَثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ، ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللهِ » .

ومنها ما هو فى أمته الذين اتبعوه وعضوا على دينه بالنواجذ كما قال : « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللهِ » .

ولو لم يؤت من المعجزات إلا القرآن وحده لكفى به فضلا على سائر ما أوتى الأنبياء ، لأنه المعجزة الباقية على وجه الدهر دون سائر المعجزات ، وقد روى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « ما من نبى من الأنبياء إلا وقد أعطى من الآيات

ما آمن على مثله البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة » .

وروى عنه أنه قال « فضلت على الأنبياء بست : أوتيت جوامع الكلم ، ونصرت بالرعب ، وأحلت لى الغنائم ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، وأرسلت إلى الخلق كافة ، وختم بى النبيون » .

(وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس) البينات هى ما يتبين به الحق من الآيات والدلائل كما قال : « وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ » وأيدناه أى قويناه ، وروح القدس هو روح الوحى الذى يؤيد الله به رسله كما قال للنبى صلى الله عليه وسلم « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ » .

وخص عيسى بإيتاء البينات تقبيحا لإفراط اليهود فى تحقيره ، إذ أنكروا نبوته مع ما ظهر على يديه من البينات القاطعة الدالة على صدقه ، ولإفراط النصارى فى تعظيمه حيث أخرجوه من مرتبة الرسالة وزعموا أنه إله لا رسول مؤيد بآيات الله .

(ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ، ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر) قوله: من بعدهم أى من بعد الرسل من الأمم المختلفة أى لو شاء الله عدم اقتتالهم ما اقتتلوا بأن جعلهم متفقين على اتباع الرسل الذين جاءوا بالحق من ربهم ، وقوله من بعد ماجاءتهم البينات أى من بعد ما جاءهم الرسل بالمعجزات الواضحة والآيات الظاهرة الدالة على الحق الموجبة لاتباعهم ، والزاجرة عن الإعراض عن سننهم ، وقوله ولكن اختلفوا أى أنه لم يشأ عدم اقتتالهم ، لأنهم اختلفوا اختلافا كبيرا ، فمنهم من آمن بما جاء به الرسل ، ومنهم من كفر بذلك كفرانا لا أمل معه فى هداية .

وإيضاح هذا أن الله جعل للإنسان عقلا يتصرف به فى أنواع شعوره ، وفكراً يجول به فى طرق معيشته ومعرفة ما يصلح له فى شئونه النفسية والبدنية ، وجعل

ارتقاءه فى إدراكه وأفكاره كسبيا ، فهو ينشأ ضعيف الإدراك ثم يقوى بالتربية والتعليم وتجارب السنين ، كما جعل هداية الدين له أمرا اختياريا يأخذ منها بقدر استعداده وفكره كما هو شأنه فى الاستفادة من منافع الكون ، وهذا هو منشأ الاختلاف .

ولو شاء الله أن يجعل الدين من إلهاماته العامة ، وشعوره الفطرى كشعور الحيوان وإلهامه لكان الناس فى هداية الدين سواء ، يسعدون به أجمعين ، فتمنعهم بيناته أن يختلفوا فيقتتلوا ، لكنه خلق الإنسان على غير ما عليه الحيوان ، وكان هذا سبب اختلاف أهل الأديان ، فمنهم من آمن إيمانا صحيحا فأخذ الدين على وجهه وفهمه حق فهمه ، ومنهم من حكم هواه فى تأويله ، فكان كافرا به فى الحقيقة ، وهذا هو منشأ التخاصم ، وسبب التنازع والقتال ، وقد اختلف اليهود فى دينهم فاقتتلوا ، والنصارى كانوا أشد منهم فى ذلك ، فتفرقوا طرائق قددا ، وكان أهل المذهب الواحد يتشعبون شعبا يقاتل بعضها بعضا .

وقد نهى الله المسلمين عن مثل هذا الخلاف ، وأمرهم بالاتحاد والوئام ، فامتثلوا أمره فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وزمنا قليلا بعده فكانوا خير أمة أخرجت للناس ، ثم تفرقوا فى الدين مذاهب ، واقتتلوا فيه ، وما زالت الحال تتفاقم حتى صاروا أبعد الأمم عن الاتفاق والائتلاف .

وقد جرت سنة الله بأن أهل الدين الواحد يقاتل بعضهم بعضا باسم الدين ، ولحماية الدين ، من طغيان الملحدين ، ولله فى خلقه شئون .

(ولو شاء الله ما اقتتلوا) أى ولو شاء الله أن يعذر بعض المختلفين بعضا ، ويقتصر كل فريق على الانتصار لرأيه بالحجة — لما اقتتلوا على مايختلفون فيه ، لكنه أودع فى غرائزهم النضال عن مصلحتهم بكل ما قدروا عليه من قول أو فعل ، فمنهم من يقارع الحجة بالحجة ، ومنهم القوى الذى يقاوم بالسيف ، فكان الاختلاف فى الرأى والمصالح مع عدم العذر مؤديا إلى الاقتتال لا محالة .

(ولكن الله يفعل ما يريد) أى أن اختصاص الناس بهذه المزايا أثر من آثار

إرادته تعالى فلا مرد له ، فإن أراد الله التوفيق لبعض عباده آمن به وأطاعه ، وإن أراد الخذلان لبعض آخر كفر به وعصاه .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)

شرح المفردات

المراد باليوم هنا يوم الحساب ، لا بيع فيه أى لا فداء فيتدارك المقصر تقصيره ، ولا خلة أى لا صداقة ولا مودة بنافعة ، والمراد بالكافرين تاركو الزكاة ، والظالمون هم الذين وضعوا المال فى غير موضعه وصرفوه فى غير وجهه .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فيا كان من الرسل ومن أقوامهم بعدهم من الاختلاف والاقتتال — وهنا عاد إلى الأمر بالإنفاق بأسلوب آخر غير ما تقدم ، فالأول كان خطابا بالترغيب لمن لطف وجدانه وشعوره ، وبلغ فى مراتب الكمال منازل الصديقين ، ولكن الأكثرين من الناس يفعل فى نفوسهم الترهيب أكثر مما يفعل فيهم الترغيب ، فهم لا ينفقون فى سبيل الله إلا خوفا من العقاب ، أو طمعا فى الثواب ، وقد يجول بخاطر بعض الضعفاء أن يركنوا إلى شفاعة تغنى عن العمل ، أو فدية تقى صاحبها عاقبة ما كان منه من الزلل ، أو خلة بها يسامح صاحب الكبيرة مما ألمّ به من الخطل — فمثل هؤلاء يخاطبون بنحو ما فى هذه الآية .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) الإنفاق هنا يشمل الإنفاق الواجب بالزكاة ، والإنفاق المستحب أيضا .

ذاك أنه إذا اضطرب حبل الأمن فى الأمة ، أو انتشر المرض فى أبنائها ، أو كثر الجهل فى أفرادها ، ولا سبيل لدرء هذا إلا ببذل المال ــ وجب على الأغنياء أن يبذلوه لدفع هذه المفاسد ، وإزالة هذه الطوارئ ، لحفظ المصالح العامة .

وفى قوله « مما رزقناكم » حث على الإنفاق ، وإشعار بأنه لا يطلب منهم إلا بعض ما جعلهم مستخلَفين فيه من رزقه ونعمه .

وقوله « مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ ... » إلى آخره أى من قبل أن يأتى يوم الحساب الذى لا يفدَى فيه مقصر بمال ، ولا تنفع فيه الصداقة ولا تجدى الشفاعة .

وخلاصة ذلك ــ أن الإنفاق فى سبيل البر هو الذى ينجيكم فى ذلك اليوم الذى لا ينجى فيه الأشحة الباخلين من عذاب الله فداء يفتدون به أنفسهم ، ولا خلة يحمل فيها الخليل شيئا من أوزار خليله ، أو يهبه شيئا من حسناته ، ولا شفاعة يؤثر بها الشفيع فيما أراده الله ، فيحولها عن مجازاة الكافر بالنعمة ، الباخل بالصدقة ، المستحق للمقت والعقوبة بما دنس به نفسه فى الدنيا ودساها به من المعاصى والآثام ، ويجعله يترك عقوبته مرضاة له .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِى نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَاعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ » .

وفى الآية إيماء إلى أن أمور الآخرة لا تقاس على ما هو حاصل فى الدنيا ، فلا يظن امرؤ أنه ينجو فيها بفداء يفتدى به أو شفاعة تناله من النبيين والربانيين كما كانت فى الدنيا تناله من الأمراء والسلاطين ، وإن كان فى هذه الحياة فاسقاً ظالماً فاسد الأخلاق منّاعا للخير معتديا أثيما .

(والكافرون هم الظالمون) أى والتاركون للزكاة هم الذين ظلموا أنفسهم ، إذ وضعوا المال فى غير موضعه ، وصرفوه فى غير وجهه ، وقد سماهم الله كافرين تغليظا وتهديداً كما قال فى آخر آية الحج « وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ » مكان

ومن لم يحج ، وإيذاناً بأن ترك الزكاة من صفات الكفار كقوله : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ » .

ذاك أن العلة فى منع الزكاة ونحوها من النفقات الواجبة ، أن حب المال أعلى فى قلب المانع من حب الله تعالى ، وشأنه أعظم فى نفسه من حقوقه عز وجل ، والنفس تذعن دائماً لما هو أرجح لديها نفعاً ، وأعظم فى وجدانها وقعاً .

وظلم الباخل بفضل ماله على ملهوف يغيثه ، أو مضطر يكشف ضرورته ، أو على المصالح العامة التى تقى أمته مصارع السوء ، أو ترفع من قدرها ، أو تزيل العقبات من طريقها ــ من أقبح أنواع الظلم ، فلا يعذر صاحبه بوجه من الوجوه التى يتعلل بها سواه ممن ظلموا أنفسهم .

وإن حال المسلمين اليوم لتوجب الأسى والحزن ، فترى أغنياءهم يعرفون حاجة أمتهم إلى بذل المال فى إنشاء دور العلم لينشلوها من بحار الجهل التى هى غارقة فيها ، وإلى رفع مستوى أخلاقها التى وصلت إلى الدرك الأسفل من الانحطاط ، حتى عم الفقر والشقاء ، ثم هم بعد ذلك يبخلون بفضلة مما أعطاهم الله من رزقه ، لتكون بلسما تداوى به تلك النفوس المكلومة ، وعلاجا لهذه الأمراض التى انتابتها .

ومثل هؤلاء لايستحقون أن ينسبوا إلى الإسلام ، ولا أن يكونوا من المسلمين ، إذ ليس فى أحدهم عرق ينبض أو يتألم لمصايب المسلمين ، فمن كان يرى أن ماله أفضل من دينه فى الوجدان والعمل ، وهواه أرجح من رضوان ربه ، فهو كافر بنعمته وإن سمى نفسه مؤمناً ، فما إيمانه إلا كإيمان من نزل فيهم « وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ » .

وقد أنذر الله مثل هؤلاء بقوله : « هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ ، وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ ، وَاللهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .

اللهُ لاَإِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ ، لَهُ مَافِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، مَنْ ذَا الَّذِى يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ، يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلاَ يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا ، وَهُوَ الْعَلِىُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)

شرح المفردات

الله هو المعبود بحق، والعبادة استعباد الروح و إخضاعها لسلطة غيبية لاتحيط بها علما ،ولاتدرك كنهها وحقيقتها، وكل ما أله البشر من جماد ونبات وحيوان و إنسان فقد اعتقدوا فيه هذا السلطان الغيبي استقلالا أو تبعا لسواه ، والحى هو ذو الحياة ، والحياة هى مبدأ الشعور والإدراك والحركة والنمو، وهى بهذا المعنى مما يتنزه عنها الله ، فالمراد بها بالنسبة إليه تعالى الوصف الذى يعقل معه الاتصاف بالعلم والإرادة والقدرة ، والقيوم القائم على خلقه بتدبير آجالهم وأعمالهم وأرزاقهم كما قال تعالى« أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » والأخذ الغلبة والاستيلاء ، والسنة النعاس ، وهو فتور يسبق النوم ، قال عدى بن الرقاع :

وسنان أقصده النعاس فرنقت   فى عينه سنة وليس بنائم

والنوم حال تعرض للحيوان بها تقف الحواس الظاهرة عن الإحساس والشعور، والكرسى هو العلم الإلهى ، وآده الشيء يئوده إذا أثقله ولحقه منه مشقة ، والعلى هو المتعالى عن الأشباه والأنداد ، والعظيم هو الكبير الذى لاشيء أعظم منه .

المعنى الجملى

أمرنا سبحانه قبل هذا بالإنفاق فى سبيله قبل أن يأتى اليوم الذى لاتنفع فيه شفاعة الشافعين، ولا يغنى مال يعطى فدية عن العاصين ، ولاتنفع صداقة لدى الرؤساء وذوى

الثراء كما كانت تجدى فى الدنيا نفعا ، وبها تحل كل مهمة ـ هنا انتقل إلى تقرير أصول الدين من توحيد الله وتنزيهه حتى يستشعر العبد عظيم سلطانه ووجوب الطاعة لأمره ، والإذعان لحكمه ، والوقوف عند حدوده ، وبذل المال فى سبيله ، وعدم الركون إلى شفاعة الشافعين ولا الفدية بمال ولا بنين .

الإيضاح

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) أى الإله الحق الذى يستحق أن يعبد هو الله الواحد الصمد ذو الملك والملكوت الحى الذى لايموت القائم بتدبير أمر عباده يكلؤهم ويحفظهم ويرزقهم .

(لاتأخذه سنة ولا نوم) أى لايعتريه نوم ولا مقدماته ، وإذا كان كذلك كان قائما بتدبير شئون عباده فى جميع الأوقات آناء الليل وأطراف النهار .

وقد جاء النظم الكريم على حسب الترتيب الطبيعى فى الوجود ، فنفى مايعرض أولا وهو السنة ، ثم مايتبعها وهو النوم ، وبعبارة أخرى ـ هو ترقّ فى نفى النقص عنه ، فإن من لا تغلبه السنة قد يغلبه النوم لأنه أقوى ، فذكر النوم بعد السنة ترقّ من نفى الأضعف إلى نفى الأقوى .

والخلاصة — أن هذه الجملة مؤكدة لما قبلها ، مقررة لمعنى الحياة والقيومية على أتم وجه ، إذ من تأخذه السنة والنوم يكون ضعيف الحياة ضعيف القيام بشئون نفسه ، وبشئون غيره .

(له ما فى السموات وما فى الأرض) فكل من فيهما وما فيهما ملكه وعبيده ، خاضعون لمشيئته ، وهو المصرف لشئونهم والحافظ لوجودهم .

وهذه الجملة تأكيد ثان لقيوميته واحتجاج بها على تفرده فى الألوهية ، لأنه تعالى خلقهما بما فيهما .

(من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) أى من ذا الذى يستطيع من عبيده

أن يغير ما مضت به سنته ، وقضت به حكمته ، وأوعدت به شريعته ، من تعذيب ذوى العقائد الباطلة، والأخلاق السافلة ، الذين أفسدوا فى الأرض وانحرفوا عن جادة الدين إلا إذا أذن له ربه ، ونحو هذا قوله : « يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ »

وهذا تمثيل لانفراده بالملك والسلطان فى ذلك اليوم ، وأن أحدا من عباده لا يجرؤ على الشفاعة أو التكلم بدون إذنه ـ و إذنه غير معروف لأحد من خلقه ـ وفى ذلك قطع لأمل الشافعين والذين يركنون إلى الشفاعة التى كان يقول بها المشركون وأهل الكتاب .

(يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم) أى يعلم أمور الدنيا التى خلفوها ، وأمور الآخرة التى يستقبلونها ، وهذه الجملة مؤكدة لنفى الشفاعة ، إذ من كان عالما بكل شىء فعله العباد فى الماضى وما هو حاضر بين أيديهم وما يستقبلهم ، وكان ما يجازيهم به مبنيا على هذا العلم ، كانت الشفاعة على هذا النحو المعروف ، مما يستحيل عليه تعالى ، لأنها لاتتحقق إلا بإعلام الشفيع المشفوع عنده من أمر المشفوع له وما يستحقه ما لم يكن يعلم .

وما ورد من أحاديث الشفاعة ، فهو محمول على الدعاء الذى يفعل الله تعالى عقبه ما سبق فى علمه الأزلى أنه سيفعله ، مع أنا نقطع بأن الشافع لايغير شيئا من علمه ، ولا يحدث تأثيرا فى إرادته ، وبذلك تظهر كرامة الله لعبده بما أوقع من الفعل عقب دعائه ، قاله شيخ الإسلام ابن تيمية .

(ولايحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) أى أن أحدا من خلقه لايحيط بما يعلمه الله إلا إذا شاء الله ذلك ، والشفاعة تتوقف على إذنه تعالى ، و إذنه لايعلم إلا بوحى منه ، و إنما يعرف إذنه تعالى بما حدده من الأحكام فى كتابه ، فمن بين أنه مستحق لعقابه ، فلا يجرؤ أحد أن يدعو له بالنجاة ، ومن بين أنه مستحق لرضوانه على هفوات ألمّ بها لم تحول وجهه عن الله تعالى إلى الباطل والفساد ولم تدسّ

روحه حتى تسترسل فى الخطايا ، فهو واصل إليه على ما وعد به فى كتابه وما تفضل به على عباده .

(وسع كرسيه السموات والأرض) أى أن علمه تعالى محيط بما يعملون مما عبر عنه بقوله : « يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ » وبما لايعلمون من شئون سائر الكائنات ، ويرى جمع من المفسرين منهم القفّال والزمخشرى أن الكلام تصوير لعظمته وتمثيل لكبريائه ، ولا كرسى ولا قيام ولا قعود ، ذاك أنه تعالى خاطب عباده فى تعريف ذاته وصفاته بما اعتادوه فى ملوكهم وعظمائهم .

والخلاصة — أن الكرسى شىء يضبط السموات والأرض ، نسلم به بدون بحث فى تعيينه ، ولا كشف عن حقيقته ، ولا كلام فيه بالرأى دون نص عن المعصوم .

(ولا يئوده حفظهما) أى ولا يثقله حفظ هذه العوالم بما فيها ، ولا يشق عليه ذلك ، وإنما لم يذكر ما فيهما ، لأن حفظهما مستتبع لحفظه .

(وهو العلى العظيم) أى وهو المتعالى عن الأنداد والأشباه ، العظيم على كل شىء سواه ، فهو المنزه بعظمته عن الاحتياج إلى من يعلمه بحقيقة أحوالهم ، أو يستنزله عما يريد من مجازاتهم على أعمالهم .

والخلاصة — أن هذه الآية تملأ القلب مهابة من الله وجلاله وكماله ، حتى لا تدع موضعا للغرور بالشفعاء الذين يعظمهم المغرورون ويتكلون على شفاعتهم ، فأوقعهم ذلك فى ترك المبالاة بالدين ، فخويت القلوب من ذكر الله ، وخلت من خشيته ، جهلا منها بما يجب من معرفته ، وأفسدت فطرتهم الأهواء والجهالات ، فلا يجدون ما يلهون به إلا كلمة (الشفاعة) ومن اغتر بها فشيطانه هو الذى يوسوس له ، ويمده فى الغىّ .

فهذه النفوس لم تعرف عظمة الله ، ولم تستشعر بالحياء منه ، ولم تحترم دينها وشريعتها ، إذ آية ذلك بذل المال والروح فى إعلاء كلمته ، لا تعظيمه بالقول دون أن يصدق ذلك العمل .

وإنك لترى المسلمين يترنمون بهذه الآيات ، وقلما تحدث لأحد منهم ذكراً يصرفه عن الشفاعات ، ويرجو النجاة بعمل الصالحات وهو مؤمن كما وعد الله بذلك فى كتابه ، وقد حذوا حذو أهل الكتاب من قبلهم ، واتكلوا فى نجاتهم على شفاعة سلفهم ، وتركوا المبالاة بالدين .

لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا ، وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦) اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ، أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٥٧)

شرح المفردات

لا إكراه فى الدين أى لا إكراه فى دخول الدين ، وبان الشىء واستبان وضح وظهر ومنه المثل : تبين الصبح لذى عينين ، والرشد - بالضم والتحريك - والرشاد الهدى وكل خير ، وضده الغي ، والجهل كالغى إلا أن الأول فى الاعتقاد ، والثانى فى الأفعال ، ومن ثم قيل زوال الجهل بالعلم وزوال الغى بالرشد ، والطاغوت من الطغيان وهو مجاوزة الحد فى الشىء ، ويجوز تذكيره وتأنيثه وإفراده وجمعه على حسب المعنى كما قال تعالى : « أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوت » وقال : « يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ » والعروة من الدلو والكوز ونحوهما المقبض الذى يمسك به من يأخذهما ، والوثقى مؤنث الأوثق وهو الحبل الوثيق المحكم ، والانفصام الانكسار أو الانقطاع من قولهم فصمه فانفصم أى كسره أو قطعه ، والولى الناصر والمعين ، والظلمات هى الضلالات التى تعرض للإنسان

فى أطوار حياته كالكفر والشبهات التى تعرض دون الدين فتصد عن النظر فيه أو تحول دون فهمه ، والإذعان له كالبدع والأهواء التى تحمل على تأويله وصرفه عن وجهه ، والشهوات التى تشغل عنه .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى تقرير أصول الدين من توحيد الله وتنزيهه وانفراده بالملك والسلطان فى السموات والأرض ، وبيان أن علمه محيط بكل شىء وأنه العلى العظيم .

والكلام هنا فى بيان أن الاعتقاد بهذا أمر تهدى إليه الفطرة ، وترشد إليه المشاهدات الكونية ، فأماراته واضحة ، والنُّصُب عليه جلية لا لبس فيها ولا إبهام ، فمن هدى إليه فقد فاز بالسعادة ، ومن أعرض عنه خسر الدنيا والآخرة ، وذلك هو الخسران المبين .

وسبب نزول الآية ما رواه ابن جرير من طريق عِكْرِمة عن ابن عباس : أن رجلا من الأنصار يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان وكان هو مسلما ، فقال للنبى صلى الله عليه وسلم : ألا أستكرههما ؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله الآية ، وفى بعض الروايات أنه حاول إكراههما ، فاختصموا إلى النبى صلى الله عليه وسلم . فقال يا رسول الله : أيدخل بعضى النار وأنا أنظر ، فنزلت فخلاهما .

الإيضاح

(لا إكراه فى الدين) أى لا إكراه فى الدخول فيه ، لأن الإيمان إذعان وخضوع ، ولا يكون ذلك بالإلزام والإكراه ، وإنما يكون بالحجة والبرهان .

وكفى بهذه الآية حجة على من زعم من أعداء الدين ، بل من أوليائه ، أن الإسلام ما قام إلا والسيف ناصره ، فكان يعرض على الناس ، فإن قبلوه نجوا ، وإن رفضوه حكم فيهم السيف حكمه .

والتاريخ شاهد صدق على كذب هذا الافتراء : فهل كان السيف يعمل عمله فى إكراه الناس على الإسلام حين كان النبي يصلى مستخفياً والمشركون يفتنون المسلمين بضروب من التعذيب ، ولا يجدون زاجراً حتى اضطر النبى وصحبه إلى الهجرة؟ أوكان ذلك الإكراه فى المدينة بعد أن اعتز الإسلام ؟ وقد نزلت هذه الآية فى مبدأ هذه العزة ، فإن غزوة بنى النضير كانت فى السنة الرابعة للهجرة ، اللهم لاهذا ولا ذاك.

هـذا وقد كان معهوداً عند بعض الملل ولا سيما النصارى إكراه الناس على الدخول فى دينهم .

ثم أكد عدم الإكراه بقوله :

(قد تبين الرشد من الغى) أى قد ظهر أن فى هـذا الدين الرشد والفلاح ، وأن ما خالفه من الملل الأخرى غىّ وضلال .

(فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فمن يكفر بما تكون عبادته والإيمان به سبباً فى الطغيان والخروج عن الحق من عبادة مخلوق ، إنسانا كان أو شيطانا أو وثنا أو صنما ، أو تقليد رئيس ، أو طاعة هوى ، ويؤمن بالله فلا يعبد إلا إياه ، ولا يرجو شيئاً من أحد سواه ، ويعترف بأن له رسلا أرسلهم للناس مبشرين ومنذرين بأوامره ونواهيه التى فيها مصلحة للناس كافة ـ فقد تحرى باعتقاده وعمله أن يكون ممسكا بأوثق عرا النجاة ، وأمتن وسائل الحق ، وإنما يكون ذلك بالاستقامة على الطريق القويم الذى لا يضل سالكه فمثله مثل الممسك بعروة الحبل المحكم المأمون الانقطاع لدى حمل جسم كبير ثقيل .

(والله سميع عليم) أى والله سميع لأقوال من يدعى الكفر بالطاغوت والإيمان بالله ، عليم بما يكنه قلبه مما يصدق هذا أو يكذبه ، فمن اعتقد أن جميع الأشياء مسيرة بقدرة الله ، لا تأثير فيها لأحد سواه ، فهو المؤمن حقًّا وله الجزاء الأوفى ، ومن انطوى قلبه على شىء من نزغات الوثنية ، ونسب ما جهل سره من عجائب الخلق إلى قوة

غير طبيعية يتقرب بها إلى الله زلفى ، فقد حق عليه العذاب ، وكان جزاؤه جزاء الذين يقولون آمنا بالله و باليوم الآخر وما هم بمؤمنين .

وهذه الجملة جاءت للترغيب والترهيب .

وقد جاء بمعنى الآية قوله : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ؟ » .

وقد جعل المسلمون قوله : (لا إكراه فى الدين) أسًّا من أسس الدين ، وركناً عظيما من أركان سياسته ، فلم يجيزوا إكراه أحد على الدخول فيه ، كما لم يجيزوا لأحد أن يكره أحداً على الخروج منه .

و إنما يتم ذلك إذا كانت لنا المنعة والقوة التى نحمى بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتنتنا فيه أو الاعتداء علينا ، وقد أمرنا الله بأن ندعو إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين بالتى هى أحسن مع حرية الدعوة وأمن الفتنة .

و إنما فرض علينا الجهاد ليكون سياجا ووقاية لصدّ من يقاوم هذه الدعوة ، و يمنع نشر هذا النور فى أرجاء المعمورة ، وكف شر الكافرين عن المؤمنين ، كيلا يزعزعوا ضعيفهم قبل أن يتمكن الإيمان من قلبه ، و يقهروا قويهم بفتنته عن دينه ، كما كانوا يفعلون ذلك فى مكة جهرا ، ومن ثم قال سبحانه : « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ » أى حتى يكون الدين كله خالصا لله غير مزعزع ولا مضْطرب ، ولن يكون كذلك إلا إذا كُفّت الفتن عنه وقوى سلطانه حتى لا يجرؤ على أهله أحد .

والفتن تكفّ بأحد أمرين :

(١) بإظهار المعاندين الإسلام ولو باللسان ، و بذا لا يكونون من خصومنا ولا يناصبوننا العداء ، ولا يمنعون أحدا من الدعوة إليه .

(٢) بقبول الجزية وهى جزء من المال يؤخذ من أهل الكتاب جزاء حمايتنا لهم بعد أن يخضعوا لنا فنكفى شرهم .

(الله ولىّ الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور) أى أن المؤمن لا ولىّ له ولا سلطان لأحد على اعتقاده إلا الله تعالى ، فهو يهديه إلى استعمال ضروب الهدايات التى وهبها الله (الحواس والعقل والدين) على الوجه الصحيح ، وإذا عرضت له شبهة لاح له شعاع من نور الحق يطرد هذه الظلمة حتى يخلص منها كما قال « إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ».

فنظر الحواس فى الأكوان وإدراكها ما فيها من بديع الإتقان ينير هذه الحواس ، ونظر العقل فى المعقولات يزيده نورا على نور، والنظر فيما جاء به الدين من الآيات يتم له ما يصل به إلى أوج سعادته ومنتهى فوزه وفلاحه .

(والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) أى والكافرون لا سلطان على نفوسهم إلا لتلك المعبودات الباطلة التى تسوقهم إلى الطغيان فإن كانت من الأحياء الناطقة ورأت أن عابديها قد لاح لهم شعاع من نور الحق نبههم إلى فساد ما هم فيه ـ بادرت إلى إطفائه وصرفه عنهم بإلقاء حجب الشبهات ، وإن كانت من غير الأحياء فسدنة هياكلها وزعماء حزبها لا يقصرون فى تمتيق هذه الشبهات ، ببيان أن الواجب الاعتقاد بتلك السلطة وبما ينبغى لأربابها من التعظيم وهو لاشك عبادة وإن سموه توسلا أو استشفاعا أو غير ذلك من الأسماء .

(أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) فإن ما يكون فى الآخرة ما هو إلا جزاء لما كان عليه الإنسان فى الدنيا ، ولا يليق بأهل الظلمات الذين لم يبق لنور الحق مكان فى نفوسهم إلا تلك الدار التى وقودها الناس والحجارة .

ونحن لا نبحث عن حقيقتها ، وإن كنا نعتقد مما جاء فيها من نصوص الدين أنها دار شقاء وعذاب ، جزاء ما قدمته أيدى العاصين من سيئ أعمالهم .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِى حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِى رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ ، قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ ، قَالَ إِبْرَاهِيمُ

فَإِنَّ اللّٰهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ، فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ ، وَاللّٰهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٢٥٨)

شرح المفردات

الاستفهام للتعجيب والإنكار ، وحاج جادل وقابل الحجة بالحجة ، فبهت أى صار مبهوتا دهشا وأخذه الحصَر من سطوع نور الحجة فلم يجد جوابا ، الظالمين أى المعرضين عن قبول الهداية بالنظر فى الدلائل القاطعة التى توصل إلى معرفة الحق .

المعنى الجملى

بعد أن أثبت فيما سلف أن الله ولىّ الذين آمنوا، وأن الطاغوت ولىّ الكافرين ضرب هنا مثلا يؤيد تلك القضية ويكون شاهدا على صدقها ودليلا على صحتها ، فبين أن ابرهيم كيف وفقه الله وتولاه بولايته إلى الحجج القيمة التى أزال بها تلك الشبهات التى عرضها عليه خصمه حتى فاز عليه وفلج بحجته ، وأن الذى حاجه كيف عمى عن نور الحق ، فانتقل من ظلمة من ظلمات الشكوك والأوهام إلى أخرى ، وتردّى فى مهاوى الهلاك بولاية الطاغوت له .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) أى ألم ينته إلى علمك الذى يبلغ مرتبة اليقين قصص ذلك الملك الذى تجبر وادعى الربوبية ، وعارض إبراهيم فى ربوبية ربه - ويقال إنه نمرود بن كنعان بن سام بن نوح عليه السلام .

(أن آتاه الله الملك) أى أن الذى أورثه الكبر والبطر ، وحمله على الإسراف فى الغرور والإعجاب بقدرته حتى حاج إبراهيم - هو إيتاء الله إياه الملك .

(إذ قال إبراهيم ربى الذى يحيي ويميت) هذا جواب من إبراهيم حين كسر

الأصنام التى تعبد من دون الله ، وسفه أحلام عابديها ، فسأله نمرود عن ربه الذى يدعو إلى عبادته (قال : ربى الذى يحيى ويميت) .

فأنكر الملك الطاغية هذا الجواب .

و(قال أنا أحيى وأميت) أى أنا أحيى من حكم عليه بالإعدام بالعفو عنه ، وأميت من شئت إماتته بالأمر بقتله .

وهذا الإنكار من ذلك الملك الجبار يدل على أنه لم يفهم قول إبراهيم صلى الله عليه وسلم ، فإن الحياة فى جوابه بمعنى إنشاء الحياة فى جميع العوالم الحية من نبات وحيوان وغيرها ، وإزالة الحياة بالموت ـ وفى جواب نمرود بمعنى أنه يكون سبباً فى الإحياء والإماتة ، من أجل هذا أوضح جوابه بقوله :

(قال إبراهيم فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى أن ربى الذى يعطى الحياة ويسلبها بقدرته وإرادته ، هو الذى يطلع الشمس من المشرق ، فهو المكوّن لهذه الكائنات على ذلك النظام البديع ، والسنن الحكيمة التى نشاهدها ، فإن كنت تستطيع أن تفعل كما يفعل ، فغيّر لنا شيئاً من هذه النظم ، فالشمس تطلع من المشرق فحولها وائت بها من المغرب .

(فبهت الذى كفر) أى فدهش ولم يجد جوابا ، وكأنما ألقمه حجراً .

(والله لا يهدى القوم الظالمين) أى إن الله لا يهدى من أعرض عن قبول الهداية ، ولم ينظر فى الدلائل التى توصل إلى معرفة الحق ، ويستسلم للطاغوت ، ويترك ما أعطاه الله من الفهم ، اتباعا لهواه وشهواته التى تزين له ما هو فيه ، وهو حينئذ قد ظلم نفسه وضل ضلالا بعيداً .

أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِى هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ ، قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ؟

قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ، قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ ، فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ ، وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنْشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٥٩)

شرح المفردات

القرية : الضيعة ، والمصر الجامع ، وقد أبهم الله القرية فلم يذكر مكانها ولا المارّ عليها ، بل اقتصر على موضع العبرة ، وما به تقوم الحجة ولم يعن بما فوق ذلك حتى لا يشغل القارئ أو السامع به ، ومن ثم اختلف المفسرون فيها فمن قائل إنها بيت المقدس و إن المار عليها هو عزير بن شرخيا ، ومن قائل هى دير هِرَقل على شط دجلة والمار هو أرميا من سبط هرون عليه السلام ، وخاوية أى ساقطة من خوى البيت إذا سقط ، والعروش واحدها عرش وهو سقف البيت وكل ما هيئ ليستظل به ، والمراد منه أن العروش سقطت أولا ثم سقطت الحيطان عليها ، وأنّى بمعنى كيف ، والحياة هنا العمران ، والموت الخراب ، وأماته أى جعله فاقدا للحس والحركة والإدراك بدون أن تفارق الروح البدن بتاتاً مثل ما حدث لأهل الكهف ، والبعث الإرسال من بعثت الناقة إذا أطلقتها من مكانها ، وعبر بالبعث دون الإحياء إيذانا بأنه عاد كما كان أولا حيا عاقلا مستعدا للنظر والاستدلال ، وقد دلت تجارب الأطباء فى العصر الحديث على أن من الناس من يبقى حيا زمنا طويلا لكنه يكون فاقد الحس والشعور ، وهو المسمى لديهم بالسبات وهو النوم المستغرق ويستعمله أهل الرياضيات فى الهند ، فقد شوهد شاب قد نام نحو شهر ثم أصيب بدَخَل فى عقله ، وآخرون ناموا أكثر من ذلك ، ومتى ثبت هذا فالذى يحفظ الأجسام مثل هذه المدة قادر أن يحفظها مائة سنة ، وثلثمائة سنة ، فهذا من الممكنات لا من المستحيلات

وقد تواتر به النص ، فيجب التسليم به ، والتجارب التى عملت تقرب بيان إمكانه من أذهان الذين يعسر عليهم أن يميزوا بين ما هو مستبعد لعدم إلْفِه فى مجرى العادة ، وما هو محال لايقبل الثبوت لذاته ، ولم يتسنه أى لم يتغير ولم يفسد من قولهم تسنه الشىء مرت عليه السنون والأعوام ، وآية علامة دالة على قدرة الله ، وننشزها أى نرفعها من الأرض ونردها إلى أماكنها من الجسد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر محاجة إبراهيم لذلك الكافر وإلزامه الحجة ، بإثباته أن لهذا الكون إلهاً قادراً على كل شىء ، واحداً لا شريك له فى الملك والتدبير ، ذكر هنا مايدل على إثبات البعث والنشور ، ويرشد إلى هداية الله للمؤمنين ، وإخراجهم من ظلمات الشبه إلى نور اليقين ، ولا غرابة فى وقوع الشبهة للمؤمن ثم طلبه المخرج منها بالدليل والبرهان ، فيهديه الله بما له من الولاية والسلطان على نفسه ، ويخرجه من الحيرة التى تعرض له إلى الطمأنينة التى تثلج قلبه وتملؤه بردا ويقينا .

الإيضاح

(أو كالذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها) أى أو أرأيت مثل الذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها ، أى ما رأيت مثله فتعجب منه ، لأن حاله بلغت من الغرابة حداً لا يرى لها مثل .

(قال أنى يُحيي هذه الله بعد موتها) أى قال : كيف يعمر الله هذه القرية بعد خرابها ؟ ومراده بذلك استبعاد عمرانها بالبناء والسكان بعد أن خربت وتفرق أهلها .

(فأماته الله مائة عام ثم بعثه) أى فجعله الله فاقد الحس والحركة دون أن تفارق الروح البدن ، ثم أعاده إلى ما كان عليه أولا .

(قال كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم ، قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى

طعامك وشرابك لم يتسنه) أى قال له بعد مبعثه كم يوما لبثت ياعزير ، قال لبثت يوما أو بعض يوم بناء على ظنه وتخمينه ، فقال له : ما لبثت هذا المقدار ، بل لبثت مدة متطاولة ، ومع ذلك لم يلحق طعامك وشرابك تغير مما تجرى العادة بمثله حين مرور الزمان وتطاول الأعوام .

والقصد من السؤال إظهار عجزه عن الإحاطة بشئونه تعالى ، وليطلع أثناء ذلك على بدائع قدرته بإبقاء الغذاء الذى لم يتسارع إليه الفساد مع مضى الزمن الطويل ، وليعلمه أن إحياءه كان بعد مدى طويل ، وبذا يزول من نفسه الاستبعاد الذى خطر على باله أولا .

(وانظر إلى حمارك) كيف نخرت عظامه ، وتقطعت أوصاله وتمزقت ، ليستبين لك طول لبثك ، وتطمئن بذلك نفسك .

(ولنجعلك آية للناس) أى فعلنا ما فعلنا من إحيائك وإحياء حمارك ، وحفظ ما معك من الطعام والشراب ، لنزيل تعجبك ، ونريك آياتنا فى نفسك وطعامك وشرابك ولنجعلك آية للناس .

أما كونه آية له فواضح ، وأما كونه آية للناس فلأن علمهم بموته مائة عام ، ثم بحياته بعد ذلك يكون من أكبر الآيات التى يهتدى بها من يشاهدها ، إلى كمال قدرة الله ، وعظيم سلطانه .

وبعد أن أراه الآية التى تكون حجة على من رآها فى قوله : (فانظر إلى طعامك وشرابك) نبهه إلى الدليل الذى يحتج به على إمكان البعث فى كل مكان وزمان ، وهو سنته تعالى فى تكوين الحيوان وإنشاء لحمه وعظمه فقال :

(وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً) أى أن القادر على أن يكسو هذه العظام لحماً ويمدها بالحياة ويجعلها أصلا لجسم حى ـ قادر على أن يعيد الخصب والعمران للقرية ، وكذلك القادر على الإحياء بعد لبث مائة سنة قادر على الإحياء بعد لبث الموتى آلاف السنين ، فبعض أفعاله تعالى يشبه بعضاً .

وخلاصة ذلك — أنه كما أطلعناك على بعض آياتنا الخاصة الدالة على قدرتنا على البعث ، نهديك إلى الآية الكبرى الدالة على كيفية التكوين ، وبمثل هذا يحتج القرآن فى مثل قوله : « كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ » وفى قوله : « كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ » وفى قوله : « فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا » .

(فلما تبين له قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) أى فلما ظهر له إحياء الميت عياناً قال : أعلم علما يقينيا مؤيدا بآيات الله فى نفسى وفى الآفاق ، أن الله على كل شىء من الأشياء التى من جملتها ما شاهدته ، قدير لا يستعصى عليه أمر .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى ؟ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ ؟ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ، قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ، وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٢٦٠)

شرح المفردات

فصرهن أى ضمهن ، سعياً أى مسرعات طيرانا ومشيا ، وعزيز أى غالب على أمره ، حكيم أى لأنه جعل أمر الإعادة وفق حكمة التكوين .

المعنى الجملى

ذكر فى هذه الآية مثالا آخر يدل على إثبات البعث ، وفيه دلالة على ولاية الله للمؤمنين ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور ، وكرر المُثُل لإثبات البعث ، ولم يذكر إلا مثالا واحداً لإثبات الربوبية ، لأن منكرى البعث أكثر من منكرى الألوهية .

الإيضاح

(وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيي الموتى ؟) أى واذكر وقت قول إبراهيم لربه ، أرنى كيف يكون إحياء الموتى ؟ وما وقع حينئذ من عجيب صنعه تعالى لتقف على هدايته تعالى للمؤمنين وولايته لهم .

وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات لأمرين :

(١) أن إيجاب ذكر الوقت يستلزم ذكر ما وقع فيه .

(٢) أن ذكر الوقت يشتمل على ما فيه بالتفصيل ، فإذا استحضر كان كل ما فيه حاضراً لايشذ عنه شىء .

وصرح بذكر إبراهيم دون الذى مرّ على القرية ، لأن فى سؤاله من الأدب مع الله والثناء عليه ما ليس فى سؤال ذاك ، فالصورة فى الأول صورة الإقرار مع طلب الزيادة فى العلم ، والصورة فى الثانى صورة الإنكار .

وبدأ سؤاله بكلمة (رب) المفيدة لعنايته تعالى بعبيده ، وتربيته لعقولهم وأرواحهم استعطافا وثناء على الله أمام الدعاء .

وخلاصة المعنى — يا رب أرنى بعينى كيفية إحيائك للموتى .

(قال أولم تؤمن قال بلى) أى قال : ألم تعلم ذلك وتؤمن بأنى قادر على الإحياء كيف أشاء حتى تسألنى إراءته ؟ قال بلى علمت ذلك وصدقت بالخَبَر ، ولكن تاقت نفسى للخُبْر والوقوف على كيفية هذا السر ليطمئن قلبى بالعيان بعد خبر الوحى.

وفى قوله تعالى لإبراهيم : « أَوَلَمْ تُؤْمِنْ » وهو العليم بإيمانه ويقينه ـ تنبيه وإرشاد إلى ما ينبغى أن يقف عنده الإنسان ولا يعدوه ، فإن الإيمان بهذا السر الإلهى والتسليم فيه لخبر الوحى ، هو غاية ما يطلب من البشر ، ولو كان وراء ذلك سبيل آخر لبينه الله تعالى .

وفى إرشاد ابراهيم خليله تأديب لعامة المؤمنين ، ومنع لهم عن التذكر فى كيفية الخلق والتكوين ، فإن هذا مما استأثر الله تعالى بعلمه .

وليس فى سؤال ابراهيم ما يشعر بالشك ، فالإنسان قد جبل على طلب المزيد فى العلم والرغبة فى الوقوف على أسرار الخليقة ، وأكمل الناس علما أشدهم رغبة فى طلب الوقوف على المجهولات .

فطلب ابراهيم رؤية كيفية إحياء الموتى طلب للطمأنينة فيما تنزع إليه نفسه من معرفة خفايا أسرار الربوبية ، لا طلب للطمأنينة بالبعث إذ قد عرفه بالوحى والدليل .

وإنا الآن لنؤمن بأمور كثيرة إيمانا يقينيا ولا نعرف كيفيتها ، ونود لو نعرفها ، فهذا الأثير (التلغراف اللاسلكى) ينقل أخبار العالم فى لحظة ، ولا نعرف كيفية ذلك ، بل أكثر من ذلك نقل الصور بالتلغراف من الأقطار النائية ، والقارات البعيدة ، ومثله أصوات المذياع (الراديو) التى تنشر فى جميع أقطار العالم بكل اللغات ، وتسمع فى أرجاء المعمورة ، ولا يعرف كثير من الناس كيف تصل إليهم .

(قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم) أى أن إبراهيم بعد أن طلب من ربه أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى ـ أمره ربه أن يأخذ أربعة من الطير ، فيقطعهن أجزاء ، ثم يفرقها على عدة جبال بحضرته وأرضه ، ثم يدعوها فتجيبه مسرعة ـ والطير أشد الحيوان نفورا من الإنسان غالبا ـ وقد فعل إبراهيم ذلك .

قال المرحوم النطاسى عبد العزيز باشا إسماعيل فى رسالته « الإسلام والطب الحديث » أثناء كلامه فى المعجزات التى وقعت على أيدى الأنبياء ، ليتجلى لك ما ربما غاب عن فكرك ، وندّ عن بالك ، وتفهم ذلك حق الفهم قال :

المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف ما نراه يوميا من عظة وعظمة كالولادة ونمو الحيوان والنبات فإنه مع إعجازه يأتى مطابقا لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير ، وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فإن ذلك

مع عظمته لا يحدث صدمة لتعوّدنا إياه ، ولكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان ، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

ولا تحدث المعجزات إلا على أيدى الأنبياء ، لأن صدمتها إن كانت شديدة على الحاضرين ، فهى أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

وصفوة القول ـ أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرابتها ، فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولكن أهمية المعجزة فى طريق صنعها دون السنن الاعتيادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبدا إلا بإذن الله ، لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها ، ولا يدرك طريق صنعها ، أما الاختراع فإنه اكتشاف لناموس إلهى طبيعى ، ولذلك هو يتكرر فى الظروف نفسها على يد كل إنسان ـ هذا كلامه باختصار .

مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ ، وَاللهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦١) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٦٢) قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ (٢٦٣) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِى يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ

عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَ يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللّٰهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٢٦٤)

شرح المفردات

سبيل الله ما يوصل إلى مرضاته تعالى ، الحبة واحدة الحب وهو مايزرع ليقتات به ، المنّ أن يذكر المحسن إحسانه لمن أحسن إليه ويظهر به تفضله عليه ، والأذى أن يتطاول عليه بسبب إنعامه عليه كأن يقول له : إنى قد أعطيتك فما شكرت ، قول معروف أى كلام حسن وردّ جميل على السائل كأن يقول له : رزقك الله ، أو عد إلى مرة أخرى ، أو نحو ذلك ، ومغفرة أى ستر لما وقع منه من الإلحاف فى السؤال وغيره مما يثقل على النفوس احتماله ، وخير له أى أنفع له وأكثر فائدة ، رئاء الناس أى مراءاة لهم لأجل أن يروه فيحمدوه ، ولا يقصد ابتغاء رضوان الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين وترقية شأن الأمة بالقيام بما يصلح شئونها ، فمثله أى فصفته ، وصفوان أى حجر أملس ، والوابل المطر الشديد ، والصلد الأملس الذى ليس عليه شىء من الغبار ، ويقال فلان لا يقدر على درهم أى لا يجده ولا يملكه .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أمر البعث وقرره بالأدلة التى أراها للذى مر على قرية ، ولإبراهيم صلوات الله عليه ، وذكر أن هؤلاء المبعوثين يعودون إلى دار يوفون فيها أجورهم بغير حساب ، فى يوم لا تنفع فيه فدية ولا شفاعة بل تنفعهم أعمالهم التى أهمها الإنفاق فى سبيل الله — ذكر هنا فضل الإنفاق وأن الحسنة قد يضاعفها الله إلى سبعمائة ثم ضرب مثل السنبلة لذلك ، ثم ذكر أن المنّ والأذى يبطل الصدقة كما يبطلها الرياء ، وضرب لهذا مثل الصفوان .

الإيضاح

(مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) أى مثل الذين ينفقون المال يبتغون به رضا الله وحسن مثوبته كمن يزرع حبة فى أرض مغلة فتنبت سبع سنابل أى تخرج ساقا تتشعب منه سبع شعب فى كل سنبلة منها مائة حبة كما يرى فى كثير من الحب كالذرة والدخن .

وقد عنى بتطبيق هذا المثل علميا بعض أعضاء الجمعية الزراعية فى مزارع القمح التى لها فى التفتيش النموذجي وفى غيره ، فهدتهم التجارب إلى أن الحبة الواحدة لا تنبت سنبلة واحدة بل أكثر ، وقد وصلت أحياناً إلى أربعين ، وأحياناً إلى ست وخمسين ، وأحياناً إلى سبعين ، كما دلتهم أيضا على أن السنبلة الواحدة تغل أحياناً ستين حبة أو أكثر ، وقد عثر فى عام (١٩٤٢ م) أحد مفتشى الجمعية على سنبلة أنبتت سبعا ومائة حبة وعرض نتيجة بحثه على الإخصائيين من رجال الجمعية وغيرهم فى حفل جامع ، ورأوا تلك السنبلة وعدوها عداً ، فاتفقت كلمتهم على صدق ما عدّ ورأى ، وشكروه على جهوده الموفقة ـ والزمان كفيل بتأييد قضايا الكتاب الكريم مهما طال عليها الأمد ، وكلما تقدم العلم ظهر صدق ما أخبر به .

وخلاصة ذلك — أن المنفق فى إرضاء ربه وإعلاء دينه كمثل أبرك بذر فى أخصب أرض ، فنما نمواً حسناً فجاءت غلته سبعمائة ضعف .

(والله يضاعف لمن يشاء) فيزيده زيادة لا حصر لها .

أخرج ابن ماجه عن على وأبى الدرداء كلهم يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من أرسل بنفقة فى سبيل الله وأقام فى بيته ، فله بكل درهم سبعمائة درهم ، ومن غزا بنفسه فى سبيل الله وأنفق فى وجهه ذلك ، فله بكل درهم يوم القيامة سبعمائة درهم » ثم تلا هذه الآية .

وعن معاذ بن جبل أن الغزاة المنفقين قد خبأ الله تعالى لهم من خزائن رحمته ما ينقطع عنه علم العباد .

(والله واسع عليم) أى أنه تعالى لاينحصر فضله ، ولا يحدد عطاؤه ، وهو عليم بمن يستحق هذه المضاعفة كالمنفقين فى إعلاء شأن الحق ، وتربية الأمم على آداب الدين وفضائله التى تسوقهم إلى سعادة المعاش والمعاد ، حتى إذا ما ظهرت آثار ذلك فى قوة ملتهم وسعادة أمتهم جنوا من ذلك أجل الفوائد وعاد ذلك عليهم بالخير الوفير.

ولنعتبر بما نراه فى الأمم العزيزة الجانب التى ينفق أفرادها فى إعلاء شأنها بنشر العلوم والمعارف وتأليف الجماعات الخيرية التى تقوم بها المصالح العامة ، ولنوازن بين هؤلاء وبين كبراء الأمم التى ضعفت وذلت بإهمال الإنفاق فى المصالح العامة ، نر صعاليك الأولين ذوى عزة ومنعة لا يجاريهم فيها ثراة الآخرين .

هذا وإن الناس بمقتضى الفطرة يقتدى بعضهم ببعض ، فمن بذل شيئا فى سبيل المصلحة العامة كان قدوة لمن يبذل بعده ، فالناس يتأسى بعضهم ببعض من حيث لايشعرون .

والفضل الأكبر للسابقين الأولين فى عمل الخير ، فهم الذين يضعون الأسس لعمل الخير ، فهم الفائزون برضوان الله ، ولهم أجرهم وأجر من اقتدى بهم . أخرج الترمذى وأبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سنّ فى الإسلام سنة حسنة فعُمِل بها بعده كتب له مثل أجر من عمل بها ، ومن سن سنة سيئة فعليه وزرها ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة » .

ثم بين ثواب الإنفاق فى الآخرة بعد بيان منافعه فى الدنيا فقال :

(الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين يبذلون أموالهم يبتغون بذلك مرضاة ربهم ، ولايلحقون ذلك بالمن على من أحسنوا إليهم ولا بإيذائهم، لهم عند ربهم ثواب لايقدر قدره ، ولا خوف عليهم حين يخاف الناس وتفزعهم الأهوال ، ولا هم يحزنون حين يحزن الباخلون الممسكون عن الإنفاق فى سبيل الله ، إذ هم أهل السكينة والاطمئنان والسرور الدائم .

والحكمة فى تعليق هذا الثواب على ترك المن والأذى ، أن الإنفاق فى سبيل الله يراد به وجه الله وطلب رضاه ، فلا وجه لمنّ المنفق على من أنفق عليه ، لأنه لايد له قبَله ، ولا صنيعة له عنده ، تستحق - إن لم يكافئه عليها - المن والأذى فعلى الله مثوبته دون من أنفق عليه .

(قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى) أى كلام حسن ورد جميل على السائل ، وستر لما وقع منه من الإلحاف فى السؤال وغيره أنفع لكم وأكثر فائدة من صدقة فيها الأذى ، لأنه وإن خيب رجاءه فقد أفرح قلبه وهون عليه ذل السؤال ، وهذا القول تارة يتوجه إلى السائل إن كانت الصدقة عليه ، وتارة أخرى يتوجه إلى المصلحة العامة ، كما إذا احتيج لجمع المال لدفع عدو مهاجم أو بناء مستشفى أو مدرسة أو نحو ذلك من أعمال الخير والبر ولم يكن لدى المرء مال ، فعليه أن يساعد بالقول المعروف الذى يحث العاملين على العمل ، وينشطهم إليه ، ويبعث عزيمة الباذلين على الزيادة فى البذل ، أما الصدقة التى يتبعها أذى فهى مشوبة بضرر ما يتبعها من الإيذاء ، ومن آذى فقد بغض نفسه إلى الناس بظهوره فى مظهر البغض لهم ، والسلم والولاء خير من العداوة والبغضاء .

ومن الخير للأمة أن يظهر أفرادها فى مظهر المتعاونين كما قال : « وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى » وذلك مما يعزز مقامها ، ويحفظ كرامتها ، ويجعلها مهيبة فى أعين الناس أجمعين .

وخلاصة المعنى — أن مقابلة المحتاج بكلام يسرّه وهيئة ترضيه خير له من الصدقة مع الإيذاء بسوء القول أو سوء المقابلة ، ولا فارق بين أن يكون المحتاج فردا أو جماعة ، فإن مساعدة الأمة ببعض المال مع سوء القول فى العمل الذى ساعدها عليه ، وإظهار استهجانه ، وتشكيك الناس فى فائدته ، لا توازى إحسان القول فى ذلك العمل الذى تطلب المساعدة له ، والإغضاء عن التقصير الذى ربما يقع من

العاملين فيه ، فكونك مع الأمة بقلبك ولسانك أجدى لها من شىء من المال تعطيه مع مقالة السوء وفعل الأذى .

وقد قررت هذه الآية مبدأ عامّا فى الشريعة وهو « درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » فقد دلت على أن الخير لا يكون طريقاً إلى الشر ، وعلى أن الأعمال الصالحة يجب أن تكون خالية من الشوائب التى تفسدها وتذهب بفائدتها كلها أو بعضها ، وعلى أن من عجز عن نوع من أنواع البر فعليه أن يجتهد فى إحسان عمل آخر يؤدى إلى مثل غايته ، فمن شق عليه أن يتصدق ولا يمن ولا يؤذى ، فعليه أن يجبر قلب الفقير بقول المعروف .

(والله غنىّ حليم) أى والله غنى عن صدقة عباده ، فلا يأمرهم ببذل المال لحاجة إليه ، بل ليطهرهم ويزكيهم ويؤلف بين قلوبهم ويصلح شئونهم الاجتماعية ، ليكونوا أعزاء ، بعضهم لبعض ناصر ومعين .

فهو غنى عن صدقة يتبعها منّ أو أذى لأنه لايقبل إلا الطيبات ، حليم لايعجل بعقوبة من يمنّ أو يؤذى .

وفى هذه الجملة سلوة للفقراء ، وتعليق لقلوبهم بحبل الرجاء بالله الغنى الحليم ، وتهديد للأغنياء وإنذار لهم بألا يغتروا بحلم الله وإمهاله إياهم ، وعدم تعجيل العقوبة على كفرهم بنعمته تعالى إذ من وهبهم المال فإنه يوشك أن يسلبه منهم .

وبعد أن أبان سبحانه فيما سلف أن ترك المنّ والأذى شرط لحصول الأجر والثواب على الإنفاق فى سبيله ــ أقبل يخاطب عباده المؤمنين وينهاهم نهياً لا هوادة فيه عن إبطال صدقاتهم بالمنّ والأذى فقال :

(يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) أى أن المنّ والأذى هادم للفائدة المقصودة من الصدقة ومبطل لها ، وهو تخفيف بؤس المحتاجين وكشف أذى الفقر عنهم إذا كانت الصدقة للأفراد ، وتنشيط القائمين بخدمة الأمة ومساعدتها

(٣)

إذا كانت الصدقة فى مصلحة عامة ـ إذ أن كل عمل لايؤدى إلى الغاية منه فقد حبط و بطل كأن لم يكن ، فما بالك إذا أتبع بضد الغاية ونقيضها ؟ .

ونحو ذلك ما يقال : إن صلاة المرائى باطلة ، على معنى أن الغرض منها وهو توجه القلب إلى الله واستشعار سلطانه والإذعان لعظمته والشكر لإحسانه لم يحصل ، لأن قلب المرائى إنما يتوجه إلى من يرائيه لا إلى ذى العظمة والجبروت والملك والملكوت .

وفى ذلك مبالغة أيما مبالغة فى التنفير عن هاتين الرذيلتين اللتين قد أولع الناس بهما ، فالنفوس مغرمة بذكر ما يصدر منها من الإحسان تمدحا وتفاخراً ، وذلك طريق إلى المنّ والإيذاء ، ولا سيما إذا آنس المتصدق تقصيراً فى شكر الناس له على صدقته ، أو احتقاراً لها ، فهو حينئذ لايكاد يملك نفسه عن المنّ والأذى .

(كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) أى لا تبطلوا صدقاتكم بإحدى هاتين الرذيلتين فتكونوا مشبهين من ينفق ماله مرائيا الناس أى لأجل أن يروه فيحمدوه ، لا لابتغاء مرضاة الله بتحرى ما حث عليه من رحمة عباده الضعفاء والمعوزين ، وترقية شأن الأمة بما يصلح شئونها ، وهو لايؤمن بالله واليوم الآخر حتى يرجو ثوابا أو يخشى عقابا .

والخلاصة — أن كلا من المرائى وذى المنّ والأذى أتى بعمل غير مقبول ولا صحيح ، بل هو باطل ومردود عليه .

(فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا) أى أن صفة عمل المنافق المرائى كصفة تراب على حجر أملس نزل عليه ماء مطر شديد ، فأزاله وترك الحجر صلدا نقيا لا تراب عليه .

والوجه المشترك بينهما ، أن الناس يرون أن لهؤلاء المرائين أعمالا كما يرى التراب على الصفوان ، فإذا جاء يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحل ذلك كله وذهب ، لأنه لم يكن لله ، كما يذهب الوابل من المطر ما كان على الصفوان ، فيتركه أملس لاشىء عليه

(لايقدرون على شىء مما كسبوا) أى أنهم لاينتفعون بما فعلوا رئاء ولا يجدون له ثمرة لا فى الدنيا ولا فى الأخرى ، أما فى الدنيا فلأن المنان المؤذى بغيض إلى الناس ، كالبخيل الممسك ، والمرائى لا يخفى على الناس فعله .

ثوب الرياء يشف عما تحته فإذا اكتسيت به فإنك عار

وأما فى الآخرة فلأن المنّ والأذى كالرياء مناف للإخلاص ، ولا أجر عند الله إلا للمخلصين فى أعمالهم الذين يتحرون تزكية نفوسهم وإصلاح أحوالهم .

(والله لايهدى القوم الكافرين) إلى ما فيه خيرهم ورشادهم ، فإن الإيمان هو الذى يهدى قلب صاحبه إلى الإخلاص ووضع النفقات فى مواضعها ، والاحتراس من الإتيان بما يذهب فائدتها .

وفى هذا تعريض بأن كلا من الرياء والمنّ والأذى من صفات الكافرين التى ينبغى للمؤمنين أن يتجنبوها .

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللهِ وَتَثْبِيتاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ ، فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ، وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٢٦٥) أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ ، كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ (٢٦٦)

شرح المفردات

ابتغاء مرضاة الله أى طلباً لرضوانه ، وتثبيتاً من أنفسهم أى لتمكين أنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها عند بذلها بحيث لاينازعها فيه زلزال البخل

ولا اضطراب الحرص ، والجنة البستان ، والربوة المكان المرتفع من الأرض ، وأشجار الربى أحسن منظراً وأزكى ثمراً للطافة هوائها وفعل الشمس فيها ، وآتت أكلها أى أعطت صاحبها أكلها ، والأُكل كل مايؤكل والمراد هنا الثمر ، وضعف الشىء مثله ، والطلّ المطر الخفيف ، والإعصار ريح عاصفة تستدير فى الأرض ثم تنعكس منها إلى السماء حاملة الغبار فتكون كهيئة العمود ، والنار أى السموم الشديد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مثل الذين ينفقون أموالهم ثم يتبعون ذلك بالمنّ والأذى ، ومثل الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ، قفى على ذلك بذكر مثل الذين ينفقون أموالهم طلباً لرضا ربهم وتزكية لأنفسهم .

الإيضاح

(ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطلّ) أى مثل المنفقين أموالهم ابتغاء رضوانه تعالى ، وتمكيناً لأنفسهم فى مراتب الإيمان والإحسان باطمئنانها حين البذل حتى يكون ذلك سجية لها ، كمثل جنة جيدة التربة ملتفة الشجر عظيمة الخصب تنبت كثيرا من الغلات ، نزل عليها مطر كثير فكان ثمرها مثلى ما كانت تغل ، وإن لم يصبها الوابل فطلّ ومطر خفيف يكفيها لجودة تربتها وكرم منبتها وحسن موقعها ، وهكذا كثير البر كثير الجود إن أصابه خير كثير أغدق ووسع فى الإنفاق ، وإن أصابه خير قليل أنفق بقدره ، فخيره دائم ، وبره لا ينقطع .

وإنما قال من أنفسهم أى بعض أنفسهم ، ولم يقل لأنفسهم ، لأن إنفاق المال وجه من وجوه التثبيت والطمأنينة ، وبذل الروح وجه آخر ، وكماله ببذل الروح

والمال معا كما جاء فى قوله سبحانه فى سورة الحجرات « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وقد هدانا الله بهذا إلى أن نقصد بأعمالنا طلب رضاه وتزكية نفوسنا وتطهيرها من الشوائب التى تعوقها عن الكمال كالبخل والمبالغة فى حب المال ، فإن نحن فعلنا ذلك جوزينا خير الجزاء .

(والله بما تعملون بصير) فهو يجازى كلا من المخلص والمرائى بما هو أعلم به ، وفى ذلك تحذير من الرياء الذى يظن صاحبه أنه يغش الناس بإظهاره خلاف مايضمر . فعليك أيها المنفق أن تخلص لربك الذى لايخفى عليه ما تنطوى عليه سريرتك ، ثم ضرب مثلا لمن ينفق ماله ويتبعه بالمن والأذى فقال :

(أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار فيه نار فاحترقت) أى هل يود الإنسان أن تكون له جنة معظم أشجارها الكرم والنخل ــ وهما أجل الأشجار وأكثرها نفعا ــ وحاوية لأنواع أخرى من الثمرات ، تجرى فيها الأنهار فتسقيها ماء غدقا ، علق بها آماله ، ورجا أن ينتفع بها عياله ، وقد أصابه الكبر وأقعده عن الكسب وله ذرية ضعفاء لايستطيعون أن يقوموا بشأنه وشأنهم ، ولا مورد له غير هذه الجنة .

وبينا هو على تلك الحال إذا بجنته قد أصابها إعصار فأحرقها بما فيه من سموم النار وهو أحوج ما يكون إليها ، وبقى هو وأولاده حيارى لايدرون ما ذا هم فاعلون ؟

وهكذا حال من يفعل الخير ويبذل المال ويحبط عمله بالرياء أو بالمنّ والأذى ، فإنه سيأتى يوم القيامة وهو أشد ما يكون حاجة إلى ثواب ما بذل ، لكنه يجد إعصار الرياء والمنّ والأذى أبطل ما فعل من الخير وجعله هباء منثوراً فأصبح يقلب كفيه نادما ، ولات ساعة مندم .

وقد جرت سنة القرآن أن يذكر الكرم بثمره ، والنخل بشجره ، لأن كل شيء فى النخل نافع للناس فى شئون معايشهم ، سواء فى ذلك ورقه وجذوعه وأليافه وعثا كيله ، فمنه يتخذون القفف والزنابيل والحبال والعروش والسقوف وغيرها .

والمراد بقوله (له فيها من كل الثمرات) مع كون الجنة من نخيل وعنب ـ المنافع أى هو متمتع بجميع فوائدها .

(كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أى مثل هذا البيان بضرب الأمثال التى بلغت الغاية فى الوضوح ـ يبين الله لكم دلائل شريعته وأسرارها وفوائدها وغاياتها ، لتتفكروا فيها وتعتبروا بما اشتملت عليه من العبر ، فتضعوا نفقاتكم فى مواضعها ، وتقصدوا بها أن تكون خالصة لوجهه تعالى بدون رياء ولا أذى .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ وَلَسْتُمْ بِآخِذِيهِ إِلَّا أَنْ تُغْمِضُوا فِيهِ ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ (٢٦٧)

شرح المفردات

الطيب هو الجيد المستطاب ، وضده الخبيث المستكره ، ولاتيمموا أى لاتقصدوا ، وتغمضوا أى تتساهلوا وتتسامحوا من قولهم أغمض فلان عن بعض حقه إذا غض بصره ، ويقال للبائع أغمِضْ أى لا تستقص كأنك لا تبصر ، وحميد أى مستحق للحمد على نعمه العظام .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه ما يجب أن يتصف به المنفق عند البذل من الإخلاص لله وقصد تزكية النفس والبعد عن الرياء ، وما يجب أن يتحلى به بعد البذل من البعد

عن المنّ والأذى على أبلغ وجه وآكده ، وفيه الإرشاد إلى ما يختص بالباذل وبطرق البذل .

أشار هنا إلى ما ينبغى أن يُعْنَى بشأنه فى المال المبذول ، ليتم الإرشاد والنصح فى وجوه البذل والنفقة فى سبيل الله .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض) أى أنفقوا من جياد أموالكم المكسوبة من النقد وسلع التجارة والماشية ومما أخرجنا من الأرض من الحبوب والثمار وغيرها قال تعالى : « لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ » .

(ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) أى ولا تقصدوا الخبيث الردىء من أموالكم فتخصوه بالإنفاق منه .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن بعض المسلمين كانوا يأتون بصدقتهم من حشف التمر (أى رديئه) .

وروى من وجه آخر أن الرجل كان يعمد إلى التمر فيصرمه ، ثم يعزل الجيد ناحية ، فإذا جاء صاحب الصدقة أعطاه من الردىء . وكما نهينا عن تعمد تخصيص الصدقة بالخبيث ، نهينا عن تكليف المتصدق بدفع الجيد من ماله فحسب ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل حين بعثه إلى اليمن « أعلِمْهم أن عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم وتردّ على فقرائهم ، وإياك وكرائم أموالهم » فالواجب أخذ الوسط .

(ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) أى كيف تقصدون الخبيث وتتصدقون به وحده ولستم ترضون مثله لأنفسكم إلا أن تتساهلوا فيه تساهل من أغمض عينيه عنه فلم ير العيب فيه ، ولن يرضى ذلك أحد لنفسه إلا وهو يرى أنه مغبون مغموص الحق ، ألا ترى أن الردىء لايقبل هدية إلا بإغماض فيه وتساهل مع المهدى ، لأن

إهداءه يشعر بقلة الاحترام لمن أهدى إليه ، والذى يقبله مع الإغماض إنما يقبله لحاجته إليه ، أو لخوف الحق ، والله لا يحتاج فيغمض .

(واعلموا أن الله غنى حميد) أى أن الله غنى عن إنفاقكم ، وإنما يأمركم به لمنفعتكم ، فلا تتقربوا إليه بما لا يقبله لرداءته ، وهو المستحق للحمد على جلائل نعمائه ومن الحمد اللائق بجلاله تحرّى إنفاق الطيب مما أنعم به .

الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ ، وَاللهُ يَعِدُكُمْ مَغْفِرَةً مِنْهُ وَفَضْلاً ، وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٦٨) يُؤْتِى الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُولُو الْأَلْبَابِ (٢٦٩)

شرح المفردات

يعدكم أى يخوّفكم ، والفقر سوء الحال وضيق ذات اليد ، ويأمركم أى يغريكم ، والمراد بالفحشاء هنا البخل ، والمغفرة الصفح عن الذنب ، والفضل الرزق والخلف ، والحكمة العلم النافع الذى يكون له الأثر فى النفس ، فيوجه الإرادة إلى العمل بما تهوى مما يوصل إلى السعادة فى الدنيا والآخرة .

المعنى الجملى

بعد أن أمرنا سبحانه بإنفاق الطيب من أموالنا ، ونهانا عن تيمم الخبيث منها وإعطائه صدقة ، أراد أن يبين أسباب هذا القصد الذى يفعله المتصدق ، وركونه إلى الردىء دون الجيد ، هى أن الشيطان يقول له : لا تنفق الجيد من أموالك حتى لا تكون عاقبة ذلك الفقر .

الإيضاح

(الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء) أى أن الشيطان يخوف المتصدقين الفقر ويغريهم بالبخل ، ويخيل إليهم أن الإنفاق يذهب بالمال ، ولابد من إمساكه والحرص عليه استعدادا لحاجات الزمان ، وسمى ذلك التخويف وعداً [والوعد هو الإخبار بما سيكون من جهة المخبر ، والشيطان لم يضف مجىء الفقر إليه] مبالغة فى الإخبار بتحقق وقوعه ، وكأن مجيئه على حسب إرادته وطوع مشيئته .

(والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) أى أن الله وعدكم على لسان نبيكم ، وبما أودعه فى القطر السليمة من حب الخير والرغبة فى البر ــ مغفرة لكثير من خطاياكم ، وخلفاً فى الدنيا من جاه عريض وصيت حسن بين الناس ومال أزيد مما أنفق ، كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ » . وروى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ما من يوم يصبح فيه العباد إلا ملكان ينزلان ، يقول أحدهما : « اللهم أعط منفقاً خلفاً ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفاً » ومعنى الدعاء للمنفق بالخلف أن يسهل له أسباب الرزق ، ويرفع شأنه عند الناس ، والبخيل محروم من مثل هذا . ومعنى الدعاء على الممسك بالتلف أن يذهب ماله حيث لا يفيده .

(والله واسع عليم) أى أن الله واسع الرحمة والفضل ، فيحقق ما وعدكم به من المغفرة وإخلاف ما تنفقون ، وهو عليم بما تنفقون ، فلا يضيع أجركم ، بل يجازيكم أحسن الجزاء .

(يؤتى الحكمة من يشاء) أى أنه تعالى يعطى الحكمة والعلم النافع المصرف للإرادة لمن يشاء من عباده ، فيميز به الحقائق من الأوهام ، ويسهل عليه التفرقة بين الوسواس والإلهام .

وآلة الحكمة العقل المستقل بالحكم فى إدراك الأشياء بأدلتها ، وفهم الأمور

على حقيقتها ـ ومن أوتى ذلك عرف الفرق بين وعد الرحمن ووعد الشيطان ، وعض على الأول بالنواجذ وطرح الثانى وراءه ظهريا .

وقد فسر حبر الأمة عبد الله بن عباس الحكمة بالفقه فى القرآن أى معرفة ما فيه من الهدى والأحكام بأسراره وحكمه ، ومن فقه ما ورد فى الإنفاق وفوائده وآدابه من الآيات ـ لا يكون وعد الشيطان له الفقر وأمره إياه بالبخل مانعا له من البذل والإنفاق .

والآية الكريمة رافعة شأن الحكمة بأوسع ما لها من المعانى ، وهادية إلى استعمال العقل فى أشرف ما خلق له .

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيراً) أى ومن يوفقه الله لهذا النوع النافع من العلم ويرشده إلى هداية العقل وتوجيهه الوجهة الصحيحة ـ فقد هدى إلى خيرى الدنيا والآخرة ، فهو يسخر القوى التى خلقها الله له من سمع وبصر وشعور ووجدان فى النافع من الأشياء ، ويعدها لتنفيذ ما يرغب فيه ، ثم بعدئذ يفوض الأمر إلى بارئه الذى فطره وسواه ، ومنه مبدؤه وإليه منتهاه ، وبهذا لا يستسلم لوساوس الشيطان ، ولا يقضّ مضجعه ما يجده من مكدرات الحياة وآلامها ، ولا ما تسوقه إليه من محنها وأرزائها اعتقادا منه أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، وبهذا يستريح باله ، وتهدأ ثائرته ، ويجد فى قلبه بردا وسلاماً لمزعجات الليالى والأيام .

(وما يذكر إلا أولو الألباب) أى لا يتعظ بالعلم ويتأثر به ، ويجعل الإرادة مصرفة له ، خاضعة لمشيئته ، إلا ذوو العقول السليمة ، والنفوس التى تغوص فى بحر الحقائق ، وتستخرج منها ما هو نافع فى هذه الحياة ، وبه سعادتها ، وتجعله سلماً ترقى به فى معارج الفلاح لتصل به إلى خير العقبى ـ حشرنا الله فى زمرة أولئك .

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللهَ يَعْلَمُهُ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ (٢٧٠)

شرح المفردات

النذر فى اللغة العزم على التزام شىء خاص فعلا أو تركا ، وفى الشرع التزام طاعة تقربا إلى الله تعالى ، والظلم وضع الشىء فى غير موضعه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الله تعالى حكم النفقة والبذل فى سبيل الله ـ عمم الحكم هنا فى كل نفقة ، سواء أكانت فى طاعة أم فى معصية ، وبين أن الله عليم بها ومجاز عليها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، فعلينا أن نختار لأنفسنا أفضل ما نحب أن يعلمه ربنا عنا .

الإيضاح

(وما أنفقتم من نفقة) فى خير أو شر ، صادرة عن إخلاص أو عن رياء ، أتبعت بمنّ أو أذى أو لم تتبع بذلك ، سرا كانت أو علانية .

(أو نذرتم من نذر) فى طاعة أو فى معصية فهو قسمان :

(١) نذر قربة وبر وهو ما قصد به التزام الطاعة قربة لله تعالى كأن ينذر بذل مقدار معين من المال ، أو صلاة نافلة ، كقوله إن شفى الله مريضى فلله على أن أتصدق بكذا .

(٢) نذر لجاج وغضب وهو مايقصد به حث النفس على شىء أو منعها عنه ، كقولك إن كلمت فلاناً فعلىّ كذا .

واتفق الأئمة على وجوب الوفاء بالأول ، وهو مخير فى الثانى بين الوفاء بما التزمه وكفارة يمين .

وكل هذا إن كان النذر فى طاعة ، لأنه لايتقرب إلى الله إلا بالطاعة ، فإن نذر فعل معصية حرم عليه فعله ، فقد أخرج النسأئى عن عمران بن الحصين قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « النذر نذران ، فما كان من نذر فى طاعة الله تعالى فذلك لله تعالى ، وفيه الوفاء ، وما كان من نذر فى معصية الله تعالى فذلك للشيطان، ولا وفاء فيه ، ويكفره ما كفر اليمين » .

ومن نذر مباحا فعله ، لأن فسخ العزائم من ضعف الإرادة ، ومن ثم أمر النبى صلى الله عليه وسلم من نذرت أن تضرب بالدف وتغنى يوم قدومه بالوفاء .

(فإن الله يعلمه) ويجازى عليه ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهذا ترغيب وترهيب ، ووعد ووعيد .

(وما للظالمين من أنصار) أى وما للذين ظلموا أنفسهم ولم يزكوها من رذيلة البخل ، أو من رذيلة المن والأذى ، وظلموا الفقراء والمساكين بمنع ما أوجبه الله لهم وظلموا الأمة بترك الإنفاق فى مصالحها العامة ــ من أنصار لهم ينصرونهم يوم الجزاء ، فيدفعون عنهم بجاههم أو بمالهم ، وهذا كقوله : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلاَ شَفِيعٍ يُطَاعُ » .

وفى هذا عبرة أيما عبرة لأولئك الباخلين بمالهم من المسلمين على المصالح العامة التى فيها خير للأمة ، وفيها سعادتها وعزها ، فالمال هو قطب الرحى ، وعليه تدور مصالح الأمم فى هذا العصر عصر المال ، ومن ثم تدهورت الأمم الإسلامية وصارت فى أخريات الأمم مدنية ورقيا وحضارة وتقدما ، وفشا الجهل بين أفرادها ، وأصبحت فى فقر مدقع ، وقد كان فى مكنتهم أن ينشلوها من وهدتها ، ويرفعوها من الحضيض الذى وصلت إليه ببذل شىء من المال الذى يعود عليهم وعلى أمتهم بالخير العميم والفضل الكبير ، ولله الأمر من قبل ومن بعد .

إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ، وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٧١)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن الله يعلم ما تنفقون ويجازيكم عليه إن خيراً وإن شرا بيّن هنا سبيل إعطاء الصدقات ، وما يتبع فى ذلك من السر والعلانية ، وأيهما الأفضل .

الإيضاح

(إن تبدوا الصدقات فنعما هى) أى إن تظهروا الصدقات فنعم عملا إظهارها ، لما فيه من الأسوة الحسنة ، فيقتدى بالمتصدق كثير من الناس ، ولأن الصدقة من شعائر الإسلام التى لو أخفيت لتوهم منعها .

(وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) أى وإن تعطوها الفقراء خفية فذلك أفضل لما فى ذلك من البعد عن شبهة الرياء ، ولما دلت عليه الآثار والأحاديث ، أخرج أحمد عن أبى أمامة أن أبا ذرّ قال يا رسول الله : أى الصدقة أفضل ؟ قال : صدقة سر إلى فقير أو جهد من مقل ثم قرأ الآية . وروى الطبرانى مرفوعا « إن صدقة السر تطفئ غضب الرب » وروى البخارى : أن من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة إذ لا ظل إلا ظله « ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما : صدقة السر فى التطوع تفضل على علانيتها سبعين ضعفا ، وصدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمس وعشرين ضعفا ، وهكذا الحكم فى جميع الفرائض والتطوع .

وقال أكثر العلماء : إن أفضلية السر على العلانية إنما هى فى التطوع

لا فى الفريضة ، فإن إظهارها أفضل لإظهار شعيرة من شعائر الدين ، وقوة الدين بإظهار شعائره ، ولما فى ذلك من القدوة الحسنة ، ولأن احتمال الرياء بعيد فى أداء الفرائض ، بل قالوا أيضا : إن الإظهار أفضل لمن يرجو اقتداء الناس به فى صدقته ، ولو كانت تطوعا .

والمُخْلِص فى صدقته لا يعسر عليه حين الصدقة فى المصالح العامة ـ أن يجمع بين إخفاء الصدقة الذى يسلم به من منازعة الرياء ، وبين إبدائها الذى يكون مدعاة للأسوة والاقتداء ، بأن يرسل حوالة مالية لجمعية خيرية ولا يذكر لها اسمه أو يذكره لرئيسها أو أمين صندوقها فحسب ، وقد جرت عادة الجمعيات أن تشيد بمثل هذه الصدقة بلسان أعضائها أو بلسان الجرائد والمجلات ونحوها ، وذلك أوسع طرق الشهرة وأبعدها مدى فى عصرنا .

وقد فهم من قوله (الفقراء) ولم يقل فقراءكم أعنى المسلمين ـ أن صدقة التطوع تعطى للمسلم والكافر والبر والفاجر ، لأن الله كتب الرحمة والإحسان فى كل شىء فقد ورد فى الصحيحين « فى كل ذى كبد حرّى أجر » أى فى جميع الأحياء ، وتمنع الزكاة التى هى أحد أركان الإسلام عن الكافر ، ومثلها زكاة الفطر .

كما فهموا من التصريح به أن الإخفاء مظنة الالتباس والاشتباه ، إذ ربما يدعى الغنى الفقر ويقدم على قبول الصدقة سراً ولا يفعل ذلك عند الناس ، فعلينا أن نتحرى ونعطى الفقراء حقا لا مدعى الفقر .

(ويكفر عنكم من سيئاتكم) أى ويمحو عنكم بعض ذنوبكم ، لأن الصدقة لا تكفر جميع الذنوب .

(والله بما تعملون خبير) أى فما تفعلونه فى صدقاتكم من الإسرار والإعلان ، فالله خبير به ، عليم بأمره ، ومجازيكم عليه ، وفى هذا ترغيب فى إعطاء الصدقات سراً .

وقد روى أنه لما نزل قوله (وَمَا أَنفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ) الآية قالوا يا رسول الله : أصدقة السر أفضل أم صدقة العلانية ؟ فنزلت الآية (إن تبدوا الصدقات ..) إلى آخرها .

لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَـكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاء ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ ، وَمَا تُنْفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللهِ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَتُظْلَمُونَ (٢٧٢) لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِى سَبِيلِ اللهِ لاَيَسْتَطِيعُونَ ضَرْباً فِى الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللهَ بِهِ عَلِيمٌ (٢٧٣)

شرح المفردات

الهدى ضربان : هدى التوفيق إلى طريق الخير والسعادة ، وهو على الله تعالى ، وهدى الدلالة والإرشاد إلى الخير وهو على النبى صلى الله عليه وسلم ، وابتغاء وجه الله طلب مرضاته ، أحصروا منعوا وحبسوا فى طاعته لغزو أو تعلم علم ، ضربا فى الأرض أى سيراً فيها للكسب والتجارة ، والتعفف إظهار العفة وهى ترك الطلب ومنع النفس مما تريد ، والسيا العلامة التى يعرف بها الشىء ، وإلحافا أى إلحاحا وهو أن يلازم السائل المسئول حتى يعطيه .

المعنى الجملى

بعد أن أرشد فى الآية السابقة إلى إيتاء الصدقات للفقراء عامة مسلمين وغيرهم ، بين هنا أنه لاينبغى التحرج من إعطاء الفقير غير المسلم الصدقة لكفره ، لأن الصدقة لسد خَلَّته ولا دخل لها بإيمانه ، إذ من شأن المؤمن أن يكون خيره عاما ، وأن يسبق سائر الناس بالفضل والجود .

أخرج ابن أبى حاتم وغيره عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم كان يأمرنا ألا نتصدق إلا على أهل الإسلام حتى نزلت هذه الآية .

وأخرج ابن جرير وغيره أن ناساً من الأنصار لهم صهر وقرابة من المشركين ، كانوا يتقون أن يتصدقوا عليهم ، ويريدونهم أن يسلموا فنزلت الآية .

وأخرج ابن أبى شيبة عن سعيد بن جبير قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصَّدَّقُوا إلا على أهل دينكم » فأنزل الله تعالى (ليس عليك هداهم) الآية .

الإيضاح

(ليس عليك هداهم) أى لا يجب عليك أن تجعل الناس مهديين ، إن أنت إلا بشير ونذير ، وما عليك إلا الإرشاد والحث على الفضائل والنهى عن الرذائل كالمن والأذى وإنفاق الخبيث .

(ولكن الله يهدى من يشاء) أى إن أمر الناس فى الاهتداء مفوض إلى ربهم ، بما وضعه لسير عقولهم وقلوبهم من السنن ، فهو الذى يوفقهم إلى النظر الصحيح الذى يكون من ثمرته العمل الموصل إلى سعادتهم .

(وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) أى وما تنفقوا من خير فنفعه عائد إليكم فى الدنيا والآخرة .

أما فى الدنيا فلأنه يكف شر الفقراء ويدفع عنكم أذاهم ، فإن الفقراء إذا ضاقت بهم الحال وحزبهم الأمر تألبوا على الأغنياء وسلبوهم ونهبوا أموالهم وآذوهم على قدر ما يستطيعون ، ثم سرى شرهم إلى غيرهم ، فتختل نظم المجتمع ، ويفقد الأمن فى الأمة .

وأما فى الآخرة فلأن ثوابه لكم ، ونفعه الدينى راجع إليكم لا للفقراء ، فلا تمنعوا الإنفاق على فقراء المشركين .

(وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) أى إنكم لا تنفقون لأجل جاه ولا مكانة

عند المنفق عليه ، وإنما تنفقون لوجه الله ، فلا فرق بين فقير وفقير إذا كان مستحقًّا يتقرب بإزالة ضرورته إلى الرزاق الكريم الذى لم يحرم أحداً من رزقه لأجل عقيدته ، وهذا كقوله : « كُلًّا نُمِدُّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا » .

(وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) أى يوف إليكم فى الآخرة لا تنقصون منه شيئاً ، فأنتم على استفادتكم من الإنفاق فى رقىّ أنفسكم ، وتثبيتها فى مقامات الإيمان والإحسان ، وإرادة وجه الله وابتغاء مرضاته ـ لايضيع عليكم ما تنفقون ، بل توفونه ولا تظلمون منه شيئاً .

وفى هذا إرشاد من الله لعباده أن يكملوا أنفسهم ، و يبتغوا أن يراهم الله كملة يعملون الحسن لأنه حسن تتحقق به حكمته ، وتقوم به سنته فى صلاح البشر .

ثم بين أحق الناس بالصدقة فقال :

(للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لايستطيعون ضربا فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافا) أى اجعلوا ما تنفقون للذين ذكر الله صفاتهم الخمس التى هى من أجلّ الأوصاف قدراً .

(١) الإحصار فى سبيل الله ، والمراد به حبس النفس للجهاد أو العمل فى مرضاة الله ، إذ هم لو اشتغلوا بالكسب لتعطلت المصلحة العامة التى أحصروا فيها ، وحبسوا أنفسهم لها ، وتجب نفقتهم فى بيت المال ، ومنه الإحصار لتعلم الفنون العسكرية فى العصر الحديث ، فإن حبس الشخص نفسه فى الأعمال المشروعة التى تقوم بها المصالح العامة كالجهاد وطلب العلم ، وكان يستطيع الكسب فى أوقات فراغه لم يحل له الأخذ من الصدقة .

(٢) العجز عن الكسب والضرب فى الأرض للتجارة ونحوها بسبب المرض أو الخوف من العدو ، وهذا هو المقصود بقوله : (لايستطيعون ضربا فى الأرض) .

(٣) التعفف والمبالغة فى التنزه عن الطمع مما فى أيدى الناس ، فإذا رآهم

الجاهل بحقيقة حالهم ظنهم أغنياء ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله : (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) .

(٤) أن لهم سيما خاصة تترك معرفتها إلى فراسة المؤمن الذى يتحرى بالإنفاق أهل الاستحقاق ، إذ صاحب الحاجة لا يخفى على المتفرس ، مهما تستر وتعفف ، ولا يختص ذلك بخشوع وتواضع ، ولا برثاثة فى الثياب ، فرب سائل يأتيك خاشع الطرف والصوت ، رث الثياب ، تعرف من سيماه أنه غنى وهو يسأل الناس تكثراً ، وكم رجل يقابلك بطلاقة وجه ، وحسن بِزَّة فتحكم عليه فى لحن قوله ، وأمارات وجهه أنه فقير عزيز النفس ، وهذا ما أشار إليه بقوله : (تعرفهم بسيماهم) .

(٥) ألا يسألوا الناس شيئاً مما فى أيديهم سؤال إلحاح كما هو شأن الشحاذين وأهل الكُدْية ، وقد يكون المعنى ـ أنهم لايسألون أحداً شيئاً لا سؤال إلحاف ولا سؤال رفق واستعطاف .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس المسكين الذى يطوف على الناس ، تردّه اللقمة واللقمتان والتمرة والتمرتان ، ولكن المسكين الذى لا يجد غنى يغنيه ، ولا يُفطن له فيتصدق عليه ، ولا يقوم فيسأل الناس » .

والسؤال محرم لغير ضرورة ، روى أبو داود والترمذى من حديث عبد الله ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا تحل الصدقة لغنى ولا لذى مِرَّة سَوِىّ » والمرة بكسر الميم القوة ، والسوى هو السليم الأعضاء ، والمراد به القادر على الكسب .

وروى أحمد وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يغديه أو يعشيه » .

وروى أحمد وابن ماجه عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من سأل الناس أموالهم تكثراً فإنما يسأل جمراً ، فليستقل منه أو ليستكثر » .

وروى أحمد والبخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « لأن يغدو أحدكم فيحتطب على ظهره فيتصدق منه ويستغنى به عن الناس ، خير له من أن يسأل رجلا أعطاه أو منعه » .

فمن يُعلم أنه يسأل لنفسه تكثراً كالشحاذين الذين جعلوا السؤال حرفة وهم قادرون على العمل ـ لايعطى شيئاً ، فقد رأى عمر رضى الله عنه سائلا يحمل جرابا فأمر أن ينظر فيه ، فإذا هو خبز ، فأمر أن يؤخذ منه ويلقى إلى إبل الصدقة .

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى أهل الصُّفّة وهم أربعمائة من فقراء المهاجرين أرصدوا أنفسهم لحفظ القرآن الكريم ، والجهاد فى سبيل الله ، ولم يكن لأكثرهم مأوى ، لذلك كانوا يقيمون فى صُفّة المسجد (موضع منه مُظَلّ) وقد هاجروا بدينهم وتركوا أموالهم ، فحيل بينهم وبينها ، فهم محصورون فى سبيل الله بهذه الهجرة ، ومحصورون بحبس أنفسهم على حفظ القرآن .

وقد كان حفظه حينئذ من أفضل العبادات على الإطلاق ، لأنهم ما كانوا يحفظونه إلا للفهم والاهتداء والعمل به ، وحفظ الدين بحفظه ، وكانوا يحفظون بيان النبى صلى الله عليه وسلم له بسنته القولية وسنته العملية ، وعن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقف يوما على أصحاب الصفة ، فرأى فقرهم وجهدهم وطيب قلوبهم فقال : « أبشروا يا أصحاب الصفة ، فمن بقى من أمتى على النعت الذى أنتم عليه راضياً بما فيه فإنه من رفقائى » .

ولا يحل لأهل التكايا ومشايخ الطرق أن يأكلوا أموال الناس ، لأنهم لم ينقطعوا لتعلم علم ولا غزو فى سبيل الله ، بل قصارى أمر الأولين أن يأكلوا الصدقات والأوقاف ليعبدوا الله فى هذه التكايا ، فهى لهم كالأديار للنصارى وهم فيها كالرهبان ، وإن كان بعضهم قد يتزوج .

وكذلك مشايخ الطرق الذين ينزلون بجماعتهم بلدا بعد آخر ، ويكلفون من يستضيفونه الذبائح والشيء الكثير من الطعام ، ثم لا يخرجون إلا مثقلين بالمال والهدايا ، بل قد يسلبون وينهبون باسم الدين وفى معرض الكرامات ، فهؤلاء الأوغاد يشبهون أنفسهم بأهل الصفة ، ويزعمون أن لأكلهم أموال الناس بالباطل — أصلا فى الكتاب والسنة «كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا».

(وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم) فلا يخفى عليه حسن النية والإخلاص له فى العمل ، ولا تحرى النفع به وإيتاؤه أحق الناس به ، فهو يجازى عليه على حسب هذا ، ولا يخفى ما فى هذا من الترغيب فى الإنفاق ، ولا سيما على مثل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٤)

المعنى الجملى

بعد أن رغب الله فى الآيات السالفة فى الإنفاق ، وبين فوائده للمنفقين والمنفق عليهم ، وللأمة التى يتعاون أفرادها ، ويكفل أقوياؤها ضعفاءها ، وأغنياؤها فقراءها ، ويقوم فيها القادرون بالمصالح العامة التى تجعل الأمة عزيزة الجانب محوطة بالكرامة فى أعين الأمم الأخرى ، كما بين آداب النفقة والمستحقين لها ، وأحق الناس بها إلى نحو من هذا .

بين هنا فضيلة الإنفاق فى جميع الأوقات والأحوال ومضاعفة الأجر على ذلك .

الإيضاح

المعنى — إن الذين ينفقون أموالهم فى جميع الأزمنة وفى سائر الأحوال ، ولا يحجمون عن البذل إذا لاح لهم وجه الحاجة إلى ذلك ، لهم ثوابهم عند ربهم

فى خزائن فضله ، ولا خوف عليهم حين يخاف الباخلون من تبعة بخلهم بالمال وحبسه حين الحاجة إلى بذله فى سبيل الله ، ولاهم يحزنون على ما فاتهم من صالح العمل الذى يرجون به ثواب الله .

ذاك أن نفوسهم قد سمت و بلغت حدا من الكمال لم يبق لسلطان المال معه موضع فى قلوبهم ، وأصبحت مرضاته الشغل الشاغل لهم ، فلا يستريح لهم بال إلا إذا سدوا خلة محتاج ، أو آسوا جراح مكلوم ، أو أشبعوا بطن جائع ، أو جهزوا جيشا يسدون به ثغرة فتحها عدو ، وهؤلاء هم المؤمنون حقا الذين يبتغون فضلا من ربهم ورضوانا .

وإنما قدم الليل على النهار ، والسر على العلانية ، للإيماء إلى تفضيل صدقة السر على صدقة العلانية ، وجمع بين السر والعلانية للإيماء إلى أن لكل منهما موضعا تقتضيه المصلحة ، قد يفضل فيه سواه ، إذ الأوقات والأحوال لا تقصد لذاتها .

وقد روى أن الآية نزلت فى أبى بكر الصديق إذ أنفق أربعين ألف دينار ، عشرة بالليل وعشرة بالنهار ، وعشرة بالسر وعشرة بالعلانية .

وأخرج ابن جرير بسند ضعيف عن ابن عباس أنها نزلت فى على كرم الله وجهه كانت له أربعة دراهم ، فأنفق بالليل درهما ، وبالنهار درهما ، وسرا درهما ، وعلانية درهما ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما حملك على هذا ؟ قال : حملنى أن أستوجب على الله الذى وعدنى ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألاَ إن ذلك لك » .

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لاَ يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ، وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا ، فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ

وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ ، وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٢٧٥) يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ (٢٧٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٢٧٧) يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٢٧٨) فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ ، وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لاَ تَظْلِمُونَ وَلاَ تُظْلَمُونَ (٢٧٩) وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ ، وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٢٨٠) وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٨١)

شرح المفردات

يأكلون أى يأخذون ويتصرفون فيه بسائر أنواع التصرفات ، والربا لغة الزيادة يقال ربا الشيء يربو إذا زاد ، ومنه الرابية لما علا من الأرض فزاد على ما حوله ، والخبط الضرب على غير اتساق ، يقال ناقة خبوط إذا وطئت الناس وضربت الأرض بقوائمها ، ويقال للرجل يتصرف فى الأمور على غير هدى : هو يخبط خبط عشواء [العشواء الناقة الضعيفة البصر] والمسّ الجنون ، يقال مُسَّ الرجل فهو ممسوس إذا جن ، والموعظة العظة والزجر ، والمحق نقص الشيء حالا بعد حال كمحاق القمر ، ويربى يزيد ويضاعف ، لا يحب أى لا يرتضى ، والكفار المقيم على الكفر المعتاد له ، والأثيم المنهمك فى ارتكاب الآثام ، اتقوا الله أى قوا أنفسكم عقابه ، وذروا أى اتركوا ، فأذنوا أى فاعلموا ، بحرب من الله أى بغضب منه ، وحرب من رسوله بمعاملتكم معاملة البغاة وقتالكم بالفعل فى عصره ، واعتباركم أعداء له فى كل عصر ، لا تظلمون أى لا تفعلون

الظلم بغرمائكم بأخذ الزيادة ، ولا تظلمون بنقص شىء من رأس المال ، العسر الإعسار ويكون بفقد المال أو كساد المتاع ، والنظرة الانتظار ، والميسرة اليسار والسعة .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى آيات الصدقة ، والمتصدق يعطى المال من غير عوض ابتغاء وجه الله ـ وهنا ذكر الكلام على الربا لأن المرابى يأخذ المال بلا عوض يقابله .

وقبل أن نفسر الآيات الكريمة نشرح المقصود بكلمة الربا فى الإسلام ونذكر ما كان معروفا منه عصر التنزيل ، وفيم يكون ؟ حتى تتفهمه حق الفهم ، ثم نذكر بعدئذ أسرار النهى عنه فى الإسلام .

الربا ضربان : ربا النسيئة ، وربا الفضل .

فالأول يكون بإقراض قدر معين من المال لزمن محدود كسنة أو شهر مع اشتراط الزيادة فى نظير امتداد الأجل ، وهو المستعمل الآن فى المصارف المالية ، وهو الذى نص القرآن الكريم على تحريمه ، وكان متعارفا فى الجاهلية وقت التنزيل ، قال ابن جرير : إن الرجل كان يكون له على الرجل مال إلى أجل ، فإذا حلّ الأجل طلبه من صاحبه ، فيقول الذى عليه المال : أخرعنى دَينك وأزيدك على مالك ، فيفعلان ذلك ، فذلك هو الربا أضعافا مضاعفة ، فنهاهم الله عز وجل فى إسلامهم عنه . اهـ .

والتعامل بهذا النوع من الكبائر، وقد ورد فى الحديث «لعن الله آكل الربا ومؤكله وكاتبه وشاهده» .

والثانى يكون فى بيع الشىء بنظيره مع زيادة أحد العوضين على الآخر كأن يبيعه إردبا من القمح الهندى بثلاث عشرة كيلة من القمح البلدى ، أو أقة عنب مصرى بأقة وربع من عنب أزمير ، أو قنطاراً من فحم انجلترا بقنطار ونصف من فحم إيطاليا وهكذا الحكم فى جميع المكيلات والموزونات والنقدين (الذهب والفضة) لما جاء فى الخبر من قوله صلى الله عليه وسلم « لا تبيعوا الذهب بالذهب والورِق بالورِق

(الفضة) والبُرَّ بالبُرِّ والتمر بالتمر والشعير بالشعير والملح بالملح إلا سواء بسواء عيناً بعين يداً بيد » .

والتعامل به محرم أيضاً لكنه أقل إثماً من سابقه .

أسرار تحريم الربا

زعم كثير من المسلمين الذين ذهبوا إلى بلاد الغرب ، بلاد المدنية والحضارة ، ونهلوا من مناهل العلم هناك ، أن تحريم الربا فى الإسلام هو العقبة الكئود فى مجاراة الأمم الإسلامية للبلاد الغربية فى الثروة التى هى مناط العزة والقوة فى العصر الحديث ويحتجون بأن المسلمين ما منوا بالفقر وذهبت أموالهم إلى أيدى الأجانب إلا بتحريم الربا ، فإنهم لاحتياجهم إلى الأموال يأخذونها من الأجانب بالربا الفاحش ، ومن كان منهم غنيا لايعطى ماله بالربا ، فمال الفقير يذهب ، ومال الغنى لاينمو ، وهم يريدون بذلك أن الدين قد وقف عقبة كأداء فى أهم مسألة عمرانية اجتماعية .

وهذه حجة أوهى من بيت العنكبوت ، وأوهام يزينها لهم الشيطان لم يمحصوها حق التمحيص ، فإن المسلمين فى هذا العصر لا يحكّمون الدين فى شىء من أعمالهم ومكاسبهم ، إذ لو حكموه لما استعانوا بالربا ، ولما جعلوا أموالهم غنائم لغيرهم ، فإن كانوا تركوا الربا لأجل الدين ، فهل هم تركوا الصناعة والتجارة لأجل الدين ؟ فالأمم جميعاً قد سبقتنا إلى إتقان ذلك ، فلماذا لا نتقن سائر المكاسب لنعوض على أنفسنا ما فاتنا من الكسب المحرم ، وديننا يدعونا إلى السبق فى إتقان كل شىء .

وفى الحق أن المسلمين قد نبذوا الدين وراءهم ظهريا ، فلم يبق منه إلا تقاليد وعادات ورثوها من آبائهم وأجدادهم ، فالدين لم يكن عائقاً لهم عن الرقى ، بل هو خير الأديان فى الدعوة إلى العمل والحث على الكسب كما قال تعالى : « فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ » وقال : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِى الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ » .

فالأمة الإسلامية ما ارتفعت إلا بالدين ، وما سقطت بعد ما ارتفعت إلا بترك الدين ، مع الجهل بالسبب الذى أفضى بها إلى ذلك ، إلى أن صارت تجعل علة الرقى سبباً فى الانحطاط ، فلو اتبعت حكوماتنا وأفرادنا أوامر الدين وتركت التعامل بالربا مع الأجانب لما ضاعت ثروتنا ، ولا ذهب ملكنا ، وكان الدين وحده هو العاصم لنا.

فالربا مسألة اجتماعية كبيرة اتفقت فى حكمها الأديان الثلاثة : اليهودية والنصرانية والإسلام ، لكن اختلف فيها أهل الأديان . فاليهود كانوا يرابون غيرهم ، والنصارى يرابى بعضهم بعضاً ويرابون سائر الناس ، والمسلمون حفظوا أنفسهم من هذه الرذيلة رَدَحا طويلا من الدهر ، ثم قلدوا غيرهم فيها ، ثم انتشرت بينهم فى العصر الحديث فى أكثر الأقطار ، والسر فى هذا أنهم قلدوا حكامهم فى هذه السبيل ، بل كثيرا ما ألزم الحكام الرعية بالتعامل بالربا أداء للضرائب التى يفرضونها عليهم .

فالأديان لم تستطع أن تقاوم ميل الجماهير إلى أكل الربا حتى صار كأنه ضرورة يضطرون إليها .

ويمكن أن نلخص الأسباب التى لأجلها حرم الدين الربا فيما يلى :

(١) أنه يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب الصحيحة كأنواع الحرف والصناعات ، لأن رب المال إذا تمكن بعقد الربا من إنماء ماله خف عليه الكسب وسهلت لديه أسباب العيش ، فيألف الكسل ، ويمقت العمل ، ويتجه همه إلى أخذ أموال الناس بالباطل ، وتزداد شراهته فى الاستيلاء على كل ما يستطيع أن يبتزه من أموالهم ، فلا يرأف بفقير ، ولا يشفق على بائس ، ولا يرحم مسكيناً ، وقد جرت عادة المرابين بأن يزداد طمعهم حين الأزمات كقحط فى البلاد ، أو حروب تشتد فيها الحاجة إلى الأقوات ، فيضطر الفقراء إلى الاستدانة من هؤلاء الطغاة الذين يستنزفون دماءهم ، ويستأثرون بالبقية الباقية من أموالهم .

(٢) أنه يؤدى إلى العداوة والبغضاء والمشاحنات والخصومات ، إذ هو ينزع

عاطفة التراحم من القلوب ، ويضيع المروءة ويذهب المعروف بين الناس ، ويحل القسوة محل الرحمة ، حتى إن الفقير ليموت جوعا ولا يجد من يجود عليه ليسد رمقه ، ومن جرّاء هـذا منيت البلاد ذات الحضارة التى تعاملت بالربا بمشاكل اجتماعية ، فكثيراً ما تألب العمال وغيرهم على أصحاب الأموال ، وأضربوا عن العمل الفَيْنَةَ بعد الفينة ، والمرة بعد المرة .

ومنذ فشا الربا فى البلاد المصرية ضعفت فيها عاطفة التعاون والتراحم ، وأصبح المرء لايثق بأقرب الناس إليه ، ولا يقرضه إلا بمستند وشهود ، بعد أن كان المقرض يستوثق من المقترض ولو أجنبيا عنه بألا يحدث أحدا بأنه اقترض منه ، وما كان المقرض فى حاجة فى وصول حقه إليه إلى مطالبة بَلْهَ محاكم ومقاضاة .

(٣) أن الله جعل طريق التعامل بين الناس فى معايشهم أن يستفيد كل منهم من الآخر فى نظير عوض ، لكن فى الربا أخذ مال بلا عوض ، وهذا نوع من الظلم لأن المال حقا وحرمة ، فلا يجوز لغير مالكه الاستيلاء عليه قهرا بطريق غير مشروع. قال صلى الله عليه وسلم « حرمة مال الإنسان كحرمة دمه » .

ولا ينبغى اعتبار القدر الزائد بسبب الربا عوضاً من بقاء رأس المال فى يد المدين زمناً لو كان فيه فى يد الدائن لاستفاد منه بطريق وسائل الكسب كتجارة وزراعة ونحوها ، لأن هذا ربما لا يحصل ، وإن حصل فربما لا تتحقق الاستفادة ، أما أخذ الزائد فى الربا فمتيقن ، ولا يجوز مقابلة المحتمل الحصول بالمؤكد المتيقن .

(٤) أن عاقبته الخراب والدمار ، فكثيرا ما رأينا ناساً ذهبت أموالهم ، وخربت بيوتهم بأكلهم الربا ، وفى حديث ابن مسعود عند أحمد وابن ماجه وابن جرير « إن الربا وإن أكثر فعاقبته تصير إلى قُلّ » .

والسر فى هذا أن المقترضين يسهل عليهم أخذ المال من غير بدل حاضر ويزين لهم الشيطان إنفاقه فى وجوه من الكماليات التى كان يمكن الاستغناء عنها ، ويغريهم بالمزيد من الاستدانة ، ولايزال يزداد ثقل الدين على كواهلهم حتى يستغرق أموالهم ،

فإذا حلَّ الأجل لم يستطيعوا الوفاء وطلبوا التأجيل ، ولا يزالون يمطلون و يؤجلون والدَّين يزيد يوما بعد يوم حتى يستولى الدائنون قسراً على كل ما يملكون ، فيصبحون فقراء معدمين ، صدق الله (يمحق الله الربا و يربى الصدقات) .

الإيضاح

(الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) يقال لمن يتصرف فى شىء من مال غيره ، أكله وهضمه أى أنه تصرف فيه تمام التصرف ، فلا سبيل إلى رده كما لا سبيل إلى رد المأكول .

والمراد أن حال المرابين فى الدنيا كالمتخبطين فى أعمالهم بسبب الصرع والجنون إذ أنهم لما فتنوا بحب المال ، واستعبدتهم زينته ، ضريت نفوسهم بجمعه ، وجعلوه مقصودا لذاته ، وتركوا لأجله جميع موارد الكسب الأخرى ، فخرجت نفوسهم عن حد الاعتدال الذى عليه أكثر الناس ، وترى أكثر ذلك ظاهرا فى حركاتهم وتقلبهم فى أعمالهم ، فالمولعون بأعمال (البورصة) والمغرمون بالقمار يزداد فيهم النشاط والانهماك فى الأعمال ، وترى فيهم خفة تعقبها حركات غير منتظمة ، والعرب تقول لمن يسرع و يأتى بحركات مختلفة على غير نظام : قد جنَّ .

وجمهور المفسرين على أن المراد بالقيام القيام من القبور حين البعث ، وأن الله جعل من علامة المرابين يوم القيامة أنهم يبعثون كالمصروعين ، ورووا ذلك عن ابن عباس وابن مسعود .

وروى الطبرانى حديث عوف بن مالك مرفوعا : إياك والذنوب التى لا تغفر ، الغلول ـ الخيانة فى مغنم وغيره ـ فمن غلَّ شيئاً أتى به يوم القيامة ، والربا فمن أكل الربا بعث يوم القيامة مجنوناً يتخبط .

وتخبط الشيطان للإنسان من زعمات العرب ، إذ يزعمون أنه يخبط الإنسان فيصرع ، فورد القرآن على ما يعتقدون ، وكذلك يعتقدون أن الجنى يمس الإنسان

فيختلط عقله ، ويقولون رجل ممسوس أى مسه الجن ، ورجل مجنون : إذا ضربته الجن ، ولهم فى ذلك قصص وأخبار وعجائب ، وإنكار ذلك عندهم كإنكار المحسوسات .

فجاءت الآية وفق ما يعتقدون ، ولا تفيد صحة هذا ولا نفيه ، كما جاء قوله تعالى فى وصف ثمر شجرة الزقوم التى تكون يوم القيامة فى النار « طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ » وما رأى أحد رءوس الشياطين ، لكنها جاءت على حسب ما يتخيلون ويزعمون .

(ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا) أى ذلك الأكل للربا مرتب على استحلالهم له وجعله كالبيع ، فكما يجوز أن يبيع الإنسان السلعة التى ثمنها عشرة دراهم نقدا بعشرين درهما بأجل ، يجوز أن يعطى المحتاج عشرة دراهم على أن يرد عليه بعد سنة عشرين درهما ، والسبب فى كل من الزيادتين واحد وهو الأجل .

تلك حجتهم وهم واهمون فيما قالوا ، فقياسهم فاسد ، ومن ثم قال الله : (وأحلَّ الله البيع وحرم الربا) .

إذ فى البيع ما يقتضى حله ، وفى الربا من المفسدة ما يقتضى تحريمه ـ ذلك أن البيع يلاحظ فيه دائما انتفاع المشترى بالسلعة انتفاعا حقيقياً ، فمن يشترى قمحا فإنما يشتريه ليأكله أو ليبذره فى الأرض أو ليبيعه ، والثمن مقابل للمبيع مقابلة مرضية للبائع والمشترى باختيارهما ، أما الربا فهو إعطاء الدراهم والمثليات وأخذها مضاعفة فى وقت آخر ، فما يؤخذ من المدين زيادة فى رأس المال لا مقابل له من عين ولا عمل ، ولا يؤخذ بالرضا والاختيار ، بل بالكره والاضطرار .

(فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) أى فمن بلغه تحريم الله للربا ونهيه عنه فتركه فورا بلا تراخ ولا تردد اتباعا لنهى الله ـ فله ما كان أخذه فيما سلف من الربا لا يكلف رده إلى من أخذه منهم ، ويكتفى منه بألا يأخذ ربا بعد ذلك .

(وأمره إلى الله) يحكم فيه بعدله ، ومن العدل ألا يؤاخذ بما أكل من الربا

قبل التحريم ، وبلوغه الموعظة من ربه ، وفى هذا إيماء إلى أن تلك الإباحة لما سلف رخصة للضرورة ، وترشد إلى أن رد ما أخذه من قبل النهى إلى أربابه من أفضل العزائم .

(ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى ومن عادوا إلى ما كانوا يأكلون من الربا المحرم بعد تحريمه فأولئك الذين لم يتعظوا بموعظة من ربهم ، وهو لا ينهاهم إلا عما يضرهم ، فهم أهل النار خالدين فيها .

والخلود هنا المكث الطويل ، وقد عبر به تغليظا كما جاء مثله فى آيات أخرى .

ويرى بعضهم أن الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمدا ـ إيثار لحب المال أواللذة به ، فلا يجتمع مع الإيمان الحق الذى يملأ النفوس خوفا ورهبة من عقاب الله بفعل ما نهى عنه ، وأما الإيمان الصورى فلا وزن له عند الله ، لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال ، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال كما يرشد إلى ذلك الحديث « لا يزنى الزانى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر وهو مؤمن » .

فالذى يرتكب الفواحش على هذه الطريقة يعد من الكافرين المستحلين ، وإن أنكر ذلك بلسانه ، فيكون خالدا مخلدا فى النار أبداً .

(يمحق الله الربا ويربى الصدقات) أى يذهب الله بركة الربا ويهلك المال الذى يدخل فيه ، فلا ينتفع به أحد من بعده ، ويضاعف ثواب الصدقات ، ويزيد المال الذى أخرجت منه .

أخرج البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من تصدق بعِدْل تمرة من كسب طيب ، ولا يقبل الله تعالى إلا طيبا ، فإن الله تعالى يقبلها بيمينه ، ثم يربيها لصاحبه كما يربى أحدكم فِلْوَه حتى تكون مثل الجبل » .

وقال العلماء : المراد بالمحق ما يلاقى المرابى من عداوة المحتاجين ، وبغض المعوزين وقد تفضى هذه العداوة والبغضاء إلى مفاسد ومضار كالاعتداء على الأموال والأنفس والثمرات ، كما ظهر أثر ذلك فى الأمم التى فشا فيها الربا ، فقد قام الفقراء يعادون

الأغنياء ويتألبون عليهم حتى صارت هذه مسألة اجتماعية شائكة لديهم ، وكذلك ما يصابون به فى أنفسهم من الوساوس والأوهام ، يعرف ذلك من راقب عُبَّاد المال وبلا أخبارهم . فمنهم من شغله المال عن طعامه وشرابه ، بل عن أهله وولده ، حتى لقد يقصر فى حق نفسه تقصيراً يفضى إلى الخسران والذل والمهانة .

وقصارى ذلك - أن الربا يمحق ما يطلب الناس بزيادة المال من اللذة وبسطة العيش والجاه والمكانة ، ويصل بصاحبه إلى عكس هذه النتيجة ، من الهموم والأحزان والحب الشديد للمال ، ومقت الناس له ، وكراهتهم إياه ، وبذا لم يصل إلى ثمرة المال المقصودة فى هذه الحياة ، وهى أن يكون ناعم البال عزيزا شريفا عند الناس ، لكونه مصدر الخير لهم ، كما يكون محروما فى الآخرة من ثواب المال ، فهو حينئذ قد فقد الانتفاع بماله هذا الضرب من الانتفاع ، فكان كمن محق ماله وهلك .

وقد قضت سنة الله فى المتصدق أن يكون انتفاعه بماله أكبر من ماله ، وقدتقدم إيضاح هذا .

(والله لا يحب كل كفار أثيم) الكفار هنا هو المتمادى فى كفر ما أنعم الله به عليه من المال ، لأنه لا ينفق منه فى سبيله ، ولا يواسى به المحتاجين من عباده ، والأثيم هو المنهمك فى ارتكاب الآثام ، فهو قد جعل المال آلة لجذب ما فى أيدى الناس إلى يده فاستغل إعسارهم ، وأخذ أقواتهم ، وامتص دماءهم .

(إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة ، لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين صدقوا بما جاءهم من ربهم من الأوامر والنواهى ، وعملوا ما تصلح به نفوسهم كمواساة المحتاجين ، والرحمة بالبائسين وإنظار المعسرين - وهذا من مستتبعات الإيمان الحقيقى المقرون بالإذعان - وأقاموا الصلاة التى تذكر المؤمن بالله ، فتزيد إيمانه ، وحبه لربه ومراقبته له ، فتسهل عليه طاعته فى كل شىء ، وآتوا الزكاة التى تطهر النفوس من رذيلة البخل وتمرنها على أعمال البر - وخص هذين بالذكر مع شمول الأعمال الصالحة لهما لأنهما أعظم أركان العبادات

النفسية والبدنية ـ لهم ثواب مدخَّر عند ربهم يوم الجزاء . ولا يحزنون على مافات ، ولا يخافون مما هو آت .

وفى هذا تعريض بآكلى الربا وأنهم لو كانوا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات لكفوا عن ذلك .

(يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين) أى يأيها المؤمنون المصدقون الله فيما به أمر وعنه نهى ، قوا أنفسكم عقابه باتباع أوامره ونواهيه واتركوا ما بقى لكم من الربا عند الناس إن كنتم مؤمنين حقا بكل ما جاء به الدين من أوامر ونواه .

وقد عهد فى كلام العرب أن يقال : إن كنت متصفا بما تقول فافعل كذا ويذكرون أمرا من شأنه أن يكون أثرا لهذا الوصف، وفى هذا إيماء إلى أن من لم يترك ما بقى من الربا بعد أن نهى الله عنه ، وتوعد عليه ، لايعدّ من أهل الإيمان الذى له السلطان على الإرادة ، فهو مخلد فى النار ، وإيمانه ببعض ماجاء فى الدين ، وكفره ببعضه بعدم الإذعان له والعمل به ، لايعد إيمانا حقا وإن أقر بلسانه ، إذ مثل هذا لايعتد به كما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم « لايزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ولا يشرب الخمر وهو مؤمن » .

(فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) أى فإن لم تتركوا ما بقى من الربا كما أمرتكم ، فاعلموا أنكم محاربون لله ورسوله ، إذ خرجتم عن شريعته ولم تخضعوا لحكمها ، ونبذتم ما جاء به رسوله عنه .

وفى هذا رمز إلى أن عدم الخضوع لأوامر الشريعة خروج منها وامتهان لأحكامها

وحرب الله غضبه وانتقامه ممن يأكل الربا ، والمشاهدة أكبر دليل على صدق هذا فكثيرا ما رأينا آكلى الربا أصبحوا بعد الغنى يتكففون الناس .

وحرب رسوله مقاومته لهم فى زمنه ، واعتبارهم خارجين من الإسلام بحل قتالهم ، وعداوته لهم بعد وفاته إذا لم يخلفه أحد يقيم شريعته .

(وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تَظلمون ولا تُظلمون) أى وإن رجعتم عن الربا خضوعا لأوامر الدين ، فلكم رءوس الأموال لا تأخذون عليها شيئا من الغرماء ، ولا تنقصون منها شيئا ، بل تأخذونها كاملة .

روى ابن جرير أن هاتين الآيتين نزلتا فى العباس بن عبد المطلب ورجل من بنى المغيرة كانا شريكين فى الجاهلية ، سلّفا فى الربا إلى أناس من ثقيف من بنى عمرو وهم بنو عمرو بن عمير ، فجاء الإسلام ولهما أموال عظيمة فى الربا فأنزل الله (وذروا ما بقى من الربا) .

وأخرج عن ابن جريج قال : كانت ثقيف قد صالحت النبى صلى الله عليه وسلم على أن مالهم من ربا على الناس وما لهم من ربا عليهم فهو موضوع ، فلما كان فتح مكة استعمل عتاب بن أسيد عليها ، وكان بنو عمرو بن عمير بن عوف يأخذون الربا من المغيرة ، وكان بنو المغيرة يربون لهم فى الجاهلية ، فجاء الإسلام ولهم عليهم مال كبير فأتاهم بنو عمرو يطلبون رباهم ، فأبى بنو المغيرة أن يعطوهم فى الإسلام ، ورفعوا ذلك إلى عَتّاب بن أُسَيْد ، فكتب عتاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عتاب وقال : « إن رضوا وإلا فآذنهم بحرب » .

(وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) أى وإن وجد مدين معسر ممن لكم عليهم دين فأنظروه وأمهلوه إلى حين اليسار حتى يتمكن من أداء الدين ، روى أن بنى المغيرة قالوا لبنى عمرو بن عمير فى القصة السالفة : نحن اليوم أهل عسرة فأخرونا إلى أن تدرك الثمرة فأبوا فنزلت الآية فى قصتهم كالآيتين قبلها .

(وأن تصدقوا خير لكم) أصل تصدقوا تتصدقوا أى وتصدقكم على المعسرين من المدينين بإبرائهم من الدين كُلاًّ أو بعضاً ، خير لكم من إنظارهم ، وأكثر ثوابا عند الله منه .

وفى هذا حث على الصدقة ، والسماح للمدين المعسر ، لما فيه من التعاطف

والتراحم وبرّ الناس بعضهم ببعض ، وذلك مما يوجد حسن الصلة بين الأفراد ويتم ارتباط الأمة وتضامن بنيها فى المصالح العامة ، كما يرشد إلى ذلك الحديث :

« المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم تعلمون أنه خير لكم فاعملوا وفق ما تعلمون ، وسامحوا إخوانكم ، وأشعروا قلوبهم الشفقة والحدَب عليهم .

وفى الآية دليل على وجوب إنظار المعسر إلى حين اليسار ، وأفضل منه الإبراء والتصدق عليه بقيمة الدين .

ثم ختم سبحانه آيات الربا بتلك العظة البالغة التى إذا وعاها المؤمن هونت عليه السماح بالمال والنفس وكل ما يملك مما طلعت عليه الشمس فقال :

(واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) أى واحذروا ذلك اليوم العظيم الذى تتفرغون فيه من شواغلكم الجسدية الدنيوية التى كانت تصرفكم عن ربكم فى هذه الحياة إذ كنتم ترون أن لكم حاجات وضرورات يجب عليكم أن تستعدوا لها بتكثير المال وجمعه .

والخلاصة — أنكم إذا تذكرتم ذلك اليوم وفكرتم فيما أعد الله لعباده من الجزاء على قدر أعمالهم ، خفف ذلك من غلوائكم واطمأنت نفوسكم إلى ملاقاة ربكم ، فتجدون برداً وسلاما لطيب هذه المعاملة .

(ثم توفى كل نفس ما كسبت) أى ثم يجازى كل امرئ بما عمل من خير أو شر .

(وهم لا يظلمون) أى لا ينقصون من ثوابهم ولا يزدادون على عقابهم .

عن ابن عباس أن هذه الآية آخر آية نزل بها جبريل عليه السلام وقال : ضعها فى رأس المائتين والثمانين من البقرة ، وعاش رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدها أحدا وعشرين يوما ، وقيل أحدا وثمانين يوما .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ، وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ، وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا ، فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ ، وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ ، أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى ، وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا ، وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِ ، ذَلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا ، وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ، وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ ، وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٢٨٢) وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَى سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَقْبُوضَةٌ ، فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ، وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٢٨٣)

شرح المفردات

تداينتم داين بعضكم بعضاً ، إلى أجل مسمى أى موعد محدود بالأيام والشهور والسنة ونحوها مما يفيد العلم ، لا بالحصاد وقدوم الحاج مما فيه جهالة ، بالعدل

أى بالسوية من غير ميل إلى أحد الجانبين ، ولا يأب أى لا يمتنع ، كما علمه الله أى على الطريق التى علمه الله إياها من كتابة الوثائق ، وليملل أى وليلق على الكاتب ما يكتبه ، والإملال والإملاء بمعنى ، يقال أملّ على الكاتب وأملى عليه ، ولا يبخس أى ولا ينقص ، سفيهاً أى ضعيف الرأى لا يحسن التصرف فى المال لضعف عقله ، أو ضعيفاً أى صبيا أو شيخا هرما ، أولا يستطيع أن يمل أى بأن كان جاهلا أو ألكن أو أخرس ، واستشهدوا شهيدين أى اطلبوا أن يشهد رجلان ، ترضون أى ترضون دينهم وعدالتهم ، أن تضل أى تخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها ، ولا تسأموا أى لا تملوا ولا تضجروا ، أقسط أى أعدل ، وأقوم أى وأعون على إقامتها على وجهها ، وأدنى أى أقرب ، ألا ترتابوا أى إلى انتفاء الريب فى جنس الدّين وقدره وأجله ، تديرونها أى تتعاطونها بالتعامل يداً بيد ، الجناح الإثم والذنب ، ولا يضار أى لا يفعل الضرر بالمتعاملين بالامتناع عن الكتابة أو الشهادة أو بالتحريف أو الزيادة أو النقص ، فسوق أى خروج عن الطاعة ، والرهان واحدها رهن بمعنى مرهون .

المعنى الجملى

بعد أن رغب الله فى الصدقات والإنفاق فى سبيل الله ، لما فيهما من الرحمة ، ثم أعقب ذلك بالنهى عن الربا لما فيه من القسوة ــ ذكر هنا ما يحفظ المال الحلال بكتابة الدّين والإشهاد عليه وعلى غيره من المعاوضات ، وأخذ الرهن إذا لم يتيسر الاستيثاق بالكتابة والإشهاد عليه ، إذ من يؤمر بالإنفاق والصدقة ، وينهى عن ترك الربا لابد له من كسب ينمى ماله ويحفظه من الضياع ، ليتسنى له القيام بما طلب الله وحث عليه .

وفى هذا دليل على أن المال ليس مبغوضاً عند الله ، ولا مذموما فى دين الله ، كيف وقد شرع الله لنا الكسب الحلال وهدانا إلى حفظ المال وعدم تضييعه ،

و إلى اختيار الطرق النافعة فى إنفاقه باستعمال عقولنا ، وتوجيه إرادتنا إلى العمل بخير ما نعرفه منها .

وكأن هذه الآية جاءت احتراسا مما عسى أن يقع فى الأذهان من الكلام السابق إذ ربما فهم من المبالغة فى الترغيب فى الإنفاق فى سبيل الله ، والتشديد فى تحريم الربا ، أن جمع المال وحفظه مذموم على الإطلاق كما يظهر من نصوص بعض الأديان السابقة وكأنه يقول : إنا لا نأمركم بإضاعة المال ولا بترك تثميره ، وإنما نأمركم أن تكسبوه من الطريق الحلال ، وتنفقوا منه فى وجوه البر والخير ، يرشد إلى هذا أن الله نهانا عن إيتاء المال للسفهاء خوفا من ضياعه بقوله : « وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللهُ لَكُمْ قِيَامًا » أى تقوم بها مصالحكم ومعايشكم .

روى أحمد والطبرانى حديث عمرو بن العاص « نعمّا المال الصالح للمرء الصالح »

و إنما يذم المال إذا استعبد صاحبه ، فبخل فى إنفاقه ، واشتط فى جمعه من الحلال والحرام ، روى البخارى عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « تَعِس عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم » .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) طالب الله إلى المؤمنين حفظاً لديونهم التى تشمل القرض والسلم (ما فيه المبيع مؤجل والثمن عاجل) ويسميه العامة (الغاروقة) و بيع الأعيان إلى أجل معين ــ أن يكتبوها حتى إذا حل الأجل سهل عليهم أن يطالبوها و يقاضوا المدين للحصول عليها .

وقد بين الله تعالى كيفية الكتابة ، ومن يتولاها فقال :

(وليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى وليكن الكاتب الذى يكتب لكم الديون عادلا يساوى بين المتعاملَين ، لا يميل إلى أحدهما فيزيده على حقه ، ولا يميل عن الآخر فيبخسه من حقه .

(ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله) بعد أن شرط الله فى الكاتب العدالة شرط فيه العلم بالأحكام والفقه فى كتابة الدين ، إذ الكتابة لا تكون ضماناً تاما إلا إذا كان الكاتب عالماً بالأحكام الشرعية والشروط المرعية عرفاً وقانوناً ، وكان عادلا حسن السيرة ، لا غرض له إلا بيان الحق بلا محاباة .

وقدم صفة العدالة على صفة العلم ، لأن العادل يسهل عليه أن يتعلم ما ينبغى أن يعلمه لكتابة الوثائق ، ولكن من كان عالماً غير عادل ، فالعلم بهذا وحده لا يهديه للعدالة ، وقلما رأينا فساداً من عدل ناقص العلم ، ولكن أكثر الفساد من العلماء الذين فقدوا ملكة العدالة .

وفى ذكر هذه الشروط فى الكاتب إرشاد من الله للمسلمين أن يكون فيهم هذا الصنف من الكتاب القادرين على كتابة العقود الرسمية ، كما أن فى ذكرها إيماء إلى أنه ينبغى أن يكون الكاتب غير المتعاقدين وإن كانا يحسنان الكتابة خيفة أن يغالط أحدهما الآخر أو يغشه .

وفى التعبير بقوله (ولا يأب) رمز إلى أن العالم بما فيه مصلحة الناس ، إذا دعى إلى القيام بعمل وجب عليه أن يلبى الدعوة ، ومن ثم أمره الله بذلك أمراً صريحاً فقال

(فليكتب) وهذا الأمر بعد النهى عن الإباء كالتأكيد ، لأن الموضوع هام لتعلقه بحفظ الحقوق ، ولا سيما لدى الأميين الذين خوطبوا به أولا .

(وليملل الذى عليه الحق) أى وليلق على الكاتب ما يكتبه المدين ليكون إملاله حجة عليه تحفظها الكتابة .

(وليتق الله ربه) أى وليتق الذى عليه الحق الله فى الإملال ، بأن يذكر ما عليه كاملا ، وفى هذا مبالغة فى الحث على التقوى بالتذكير بجلائل النعم والترهيب من العقاب .

ثم نهاه أن يبخس من الحق شيئاً تأكيداً لهذا فقال :

(ولا يبخس منه شيئاً) إذ الإنسان مجبول على دفع الضرر عنه ، وعرضة

للطمع ، وربما يستخفه طمعه إلى نقص شيء من الحق ، أو الإبهام فى الإقرار الذى يملى على الكاتب تمهيداً للمجادلة والمماطلة .

(فإن كان الذى عليه الحق سفيها أو ضعيفا أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل) أى فإن كان المدين ضعيف العقل أو صبيا أو هرما أو جاهلا أو ألكن أو أخرس ، فعلى من يتولى أموره ويقوم مقامه من قيم أو وكيل أو مترجم أن يمل بالعدل بلا زيادة ولا نقص .

(واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أى اطلبوا أن يشهد على المداينة رجلان من المؤمنين ممن حضرها ، وفى قوله من رجالكم دليل على اشتراط الإسلام فى الشهادة ، كما اشترطوا العدالة بدليل قوله : « وَأَشْهِدُوا ذَوَىْ عَدْلٍ مِنْكُمْ » .

قال ابن القيم فى إعلام الموقعين : البينة فى الشرع أعمّ من الشهادة ، فكل مايتبين به الحق كالقرائن القطعية يسمى بينة ، فلا مانع أن تدخل شهادة غير المسلم فى البينة بذلك المعنى إذا تبين للحاكم الحق بها .

(فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) أى فإن لم يكونا أى من تستشهدونهما رجلين ، فليستشهد رجل وامرأتان .

(ممن ترضون من الشهداء) أى ممن ترضون دينهم وعدالتهم من الشهداء ، وإنما جيء بهذا الوصف ، لضعف شهادة النساء وقلة ثقة الناس بها ، ومن ثم فوض الأمر فيها إلى رضى المستشهدين .

(أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى) أى حذر أن تضل إحداهما وتخطىء لعدم ضبطها وقلة عنايتها ، فتذكر كل منهما الأخرى بما كان فتكون شهادتها متمة لشهادة الأخرى .

وخلاصة هذا — أنه لما كان كل منهما عرضة للخطأ والضلال أى الضياع وعدم الاهتداء إلى ما كان قد وقع بالضبط ، احتيج إلى إقامة الثنتين مقام الرجل الواحد، حتى إذا تركت إحداهما شيئا من الشهادة ، كأن نسيته أو ضل عنها تذكرها الأخرى

وتمم شهادتها ، وعلى القاضى أن يسأل إحداهما بحضور الأخرى ، و يعتد بجزء الشهادة من إحداهما و بباقيها من الأخرى ، وكثير من القضاة لا يعملون بهذا جهلا منهم بما ينبغى أن يتبع فى نحو هذا .

أما الرجلان فيفرق بينهما ، فإن قصر أحدهما أو نسى شيئا مما يبين الحق لا يعتد بشهادته ، وتكون شهادة الآخر وحده غير كافية ولا يعول عليها إن بينت الحق .

وهـذه العبارة لبيان سر تشريع الحكم فى اشتراط العدد فى النساء ، إذ قد جرت العادة أن المرأة لا تشتغل بالمعاملات المالية ونحوها من المعاوضات ، فتكون ذاكرتها ضعيفة فيها ، بخلاف الأمور المنزلية فإن ذاكرتها فيها أقوى من ذاكرة الرجل فقد جبل الإنسان على أن يقوى تذكره لما يهتم به و يُعْنَى بشأنه ، واشتغال النساء فى هذا العصر بالمسائل المالية لا يغير هذا الحكم ، لأن الأحكام إنما تكون للأعم الأكثر ، وعدد هؤلاء قليل فى كل أمة وجيل .

(ولا يأب الشهداء إذا ما دعوا) أى لا ينبغى للشهود أن يمتنعوا عن تحمل الشهادة ليؤدوها حين الحاجة .

روى الربيع أن الآية نزلت حين كان الرجل يطوف فى القوم الكثير فيدعوهم إلى الشهادة ، فلا يتبعه أحد منهم ، وقيل إن المراد لا يأبوا عن تحمل الشهادة ولا أدائها ، فالامتناع عن كل منهما محرم ، وهو فرض كفاية لا يجب على من دعى إليه إلا إذا لم يوجد غيره يقوم مقامه .

(ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيرا إلى أجله) أى لا تتكاسلوا عن كتابة الدين ، قليلا كان أو كثيرا ، مبينين بذلك أجله المسمى ، وفى هذا دليل على أن الكتابة من الأدلة التى تعتبر عند استيفاء شروطها ، وعلى أنها واجبة فى القليل والكثير ، وعلى أنه لا ينبغى التهاون فى الحقوق حتى لا يضيع شىء منها ، وهذا قاعدة من قواعد الاقتصاد فى العصر الحديث ، فكل المعاملات والمعاوضات لها دفاتر خاصة تذكر فيها مواقيتها ، والمحاكم تجعلها أدلة فى الإثبات .

ثم يبين الحكمة فى الأوامر والنواهى المتقدمة بعد ذكرها ، وتلك سنة القرآن يذكر الأحكام ثم يذكر أسرارها وفوائدها لتكون أثبت فى النفس ، وأثلج للقلب قال :

(ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى ألا ترتابوا) أى ذلك الحكم أحرى بإقامة العدل بين المتعاملين ، وأعون على إقامة الشهادة على وجهها ، وفى هذا إيماء إلى أن للشاهد أن يطلب وثيقة العقد المكتوب ليتذكر ما كان من الأحوال حين كتابتها وإملائها .

وقوله: أدنى ألا ترتابوا ؛ أى أنه أقرب إلى نفى ارتياب بعضكم من بعض ، إذ هذا الاحتياط فى كتابة الحقوق والإشهاد عليها ومراعاة العدل من المتعاملين والكتّاب والشهداء يدفع الارتياب وما ينشأ منه من مفاسد كالعداوات والمخاصمات ــ وهذه ميزة ثالثة تؤكد الأخذ بها والاعتماد عليها وجعلها مذكرة للشهود .

(إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح ألا تكتبوها) أى أن الكتابة مطلوبة إلا أن توجد تجارة حاضرة تدار بين المتعاملين بالتعاطى بأن يأخذ المشترى المبيع والبائع الثمن ، فلا حرج حينئذ فى ترك الكتابة ولا إثم فى ذلك إذ لا يترتب عليه شىء من التنازع والتخاصم .

وفى هذا إشارة إلى ما يجب على المرء فى ضبط أمواله وإحصاء ما يرد إليه وما يصدر عنه ، وهذا منتهى الرقى المدنى ، هدى إليه الإسلام قبل أن يعرفه الغربيون ذوو الحضارة والمدنية بعدة قرون ، ولم يجعل ذلك أمرا محتوما لما فيه من الشقة على غير الأمم ذات التقدم والحضارة .

(وأشهدوا إذا تبايعتم) أى وأشهدوا فى التبايع فى التجارة الحاضرة ، إذ قد يحصل التنازع والخلاف فى بعض العقود الحاضرة بعد تمام العقد ، فاكتفى بالإشهاد .

أما الديون المؤجلة فربما يقع التنازع فيها بعد موت الشهود ، إذ هى مما يطول زمنها ، ومن ثم وجبت كتابتها .

(ولا يضارّ كاتب ولا شهيد) أصل يضارِر (بكسر الراء) وهذا نهى للكاتب أن يضرّ أحد المتعاملين بالتحريف أو التغيير بزيادة أو نقص ، وللشاهدين أن يحرفا أو يتركا الإجابة عما يطلب منهما ، ويؤيده قوله بعد (وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) إذ التحريف فى الكتابة والشهادة فسق وإثم .

(وإن تفعلوا فإنه فسوق بكم) أى وإن تفعلوا ما نهيتم عنه من الضرار ، فإن هذا الفعل خروج من طاعة الله إلى معصيته .

(واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شىء عليم) أى واتقوا الله فى جميع ما أمركم به ونهاكم عنه ، وهو سبحانه يعلمكم ما فيه صلاح حالكم فى الدارين وحفظ أموالكم ، ولولا هديه لكم لم تعلموا شيئاً ، وهو العليم بكل شىء ، فإذا شرع شيئاً من الأحكام فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن اتبع شرعه وهداه .

وجاء ختم الآية بهذه الموعظة الحسنة ليكون معينا على الامتثال لجميع ما تضمنته من الأحكام ـ وهذه أطول آية فى القرآن وأبسطها شرحا وأبينها أحكاما ، وفيها مبالغة فى التوصية بحفظ المال وصونه من الضياع ، ليتمكن المرء من الإنفاق فى سبيل الله ، والإعراض عما يوجب سخطه من التعامل بالربا وغيره ، ومن المواظبة على تقواه التى هى الوسيلة لكل فوز وفلاح .

(وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتباً فرهان مقبوضة) أى وإن كنتم مسافرين ولم تجدوا كاتباً يحسن كتابة المداينة ، أو لم تجدوا صحيفة ولا دواة ولا قرطاساً ، فاستوثقوا برهن تقبضونه .

وذِكْرُ السفر وعدم وجود الكاتب الذى يكتب وثيقة الدين ، بيان للعذر الذى رخص ترك الكتابة ووضع الرهن محله فى التوثق لصاحب الدين ، وإلا فقد رهن النبى صلى الله عليه وسلم درعه فى المدينة ليهودى بعشرين صاعا من شعير أخذها لأهله رواه البخارى ومسلم .

وفى الآية إشارة إلى أنه ينبغى أن يكون عدم وجود الكاتب مقيداً بحال السفر ، لا فى مواطن الإقامة ، لأن الكتابة مفروضة على المؤمنين ، والإيمان لا يتحقق إلا بالإذعان والعمل ، ولا سيما فى فريضة أكدت كالكتابة .

(فإن أمن بعضكم بعضاً فليؤدّ الذى ائتمن أمانته وليتق الله ربه) أى فإن أمن بعض الدائنين بعض المدينين لحسن ظنه به وثقته بأنه لا يجحد الحق ولا ينكره ، فليؤد المدين دينه وليكن عند ظن الدائن به ، وليتق الله ربه فلا يتخون من الأمانة شيئاً ، فقد يوسوس له الشيطان بأن لا حجة عليه ولا شهيد ، فالله خير الشاهدين وهو أولى أن يتقى ، وسمى الدين أمانة لائتمان المدين عليه بترك الارتهان به .

والآيات السالفة الدالة على وجوب الكتابة والإشهاد وأخذ الرهن هى الأصل والعزيمة للاحتياط فى الديون ـ وهذه الآية رخصة أباحها الله لنا حين الضرورة كالأوقات التى لا يوجد فيها كاتب ولا شهيد ، فإذا احتاج امرؤ إلى الاقتراض من أخيه فى مثل هذه الحال ، فالله لا يحرم عليه قضاء حاجته وسد خَلّته إذا هو ائتمنه .

ثم أكد وجوب الشهاد الذى استفيد من قوله : (ولا يأب الشهداء إذا مادعوا) بقوله :

(ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) أى ولا تمتنعوا عن أداء الشهادة إذا طلب إليكم ذلك ، ومن يفعل ذلك يكن مجترحا للإثم مرتكباً للذنب .

وسر هذا التأكيد أن الكتّاب والشهود هم الذين يعينون الناس على حفظ أموالهم ، فعليهم ألا يقصروا فى ذلك ، كما على أرباب الأموال ألا يضاروهم ، فإن المصلحة مشتركة بين الجميع .

ونسب الإثم إلى القلب ، لأنه هو الذى يعى الوقائع ويدركها ويشهد بها ، فهو آلة الشعور والعقل ، فكتمان الشهادة عبارة عن حبس ذلك فيه ، والإثم كما يكون بعمل الجوارح وحركات الأعضاء يكون بعمل القلب واللب كما يرشد إلى ذلك قوله تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً »

فأسند إلى الفؤاد أى القلب أو النفس أعمالا خاصة به ، كما أسند الباقى إلى السمع والبصر .

ومن آثام القلب سوء القصد وفساد النية والحسد .

والآية ترشد إلى أن الإنسان يعاقب على ترك المعروف كما يعاقب على فعل المنكر ، لأن الترك فى الشهادة بكتمانها فعل للنفس تترتب عليه آثار تضر غيرها .

وكل من الكتابة والاستشهاد شرع للاستيثاق بين الدائن والمدين ، والكتابة أقوى من الشهادة ، وهى عون لها ، فالدائن يستوثق بماله فيأمن من إنكاره كله أو بعضه ، والمدين يستوثق بما عليه ، فلا يخاف أن يزاد فيه ، والشاهد يستوثق بشهادته ، فإذا شك أو نسى رجع إلى الكتاب فتذكر واطمأن قلبه كما قال : « ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَى أَلَّا تَرْتَابُوا » .

وللكتابة الفضل الأكبر فى حفظ الحقوق حين موت الشهيدين أو أحدهما ، لأنه لا حافظ لها حينئذ إلا هى ، فهى التى يرجع إليها ويعمل بها .

لِلّٰهِ مَا فِى السَّمَوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ ، وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِى أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللهُ ، فَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٢٨٤)

المعنى الجملى

جاءت هذه الآية متممة لقوله : « وَاللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » ودليل عليه ، لأن كل شىء هو له ، وهو خالقه فهو العليم به ، ونحو الآية قوله : «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ».

وإذا كان كل شىء فى السموات والأرض له ، فهو يعاقب من كتم الشهادة ، لأنه قد أتى إثماً وارتكب جرما ، ثم زاد هذا المعنى توكيداً بما بعده من قوله :

(وإن تبدو ما فى أنفسكم) إلى آخر الآية ، إذ كتمان الشهادة داخل فى عموم ما فى النفس .

الإيضاح

(لله ما فى السموات وما فى الأرض) أى كل ما فيهما خلقاً وملكا وتصرفا له لا شركة لغيره فى شىء منهما ، فلا يعبد فيهما سواه ، ولا يعصى فيما يأمر وينهى ، وله أن يُلْزِم من شاء بما شاء من التكاليف .

(وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أى وإن تظهروا ما فى قلوبكم من السوء والعزم عليه بالقول أو بالفعل ، أو تكتموه عن الناس ولا تظهروه ، يجازكم الله به يوم القيامة ، لأن الإبداء والإخفاء سيان عند الله ؛ لأنه « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » فالمعوّل عليه فى مرضاته تزكية النفوس وتطهير السرائر لا لَوْكُ اللسان وحركات الأبدان .

والمراد بقوله : ما فى أنفسكم الأشياء التى لها قرار فى أنفسكم ، وعنها تصدر أعمالكم كالحقد والحسد ونحوهما ـ ذاك أن الخواطر والهواجس قد تأتى بغير إرادة الإنسان ولا يكون لها أثر فى نفسه ولا يُنْتَج منها فعل يكون مترتباً عليها ، لكنه إذا استرسل معها حسبت عليه عملا يجازى به ، لأنه مشى معها قُدُما باختياره ، وقد كان يستطيع مطاردتها وجهادها ، فالمظلوم يذكر ظالمه ، فيشتغل فكره فى دفع ظلمه والهرب من أذاه ، وربما استرسل مع خواطره إلى أن تجره إلى تدبير الحيل للإيقاع به ، ومقابلة ظلمه بما هو شر منه ، فيكون مؤاخذاً عليه أبداه أو أخفاه .

وصفة الحسد تبعث فى نفس الحاسد خواطر الانتقام من المحسود والسعى فى إزالة نعمته ، وهذه الخواطر مما يحاسب الحاسد عليها ، أبداها أو أخفاها ـ وهكذا يقال فى كل أعمال القلب التى أمرنا الشارع بجهادها ومقاومتها ، مما هو أثر لأخلاق وملكات وعزائم قوية تنشأ عنها أعمال هى آثار لها ، إذا انتفت الموانع وتركت المجاهدة .

أخرج أحمد ومسلم عن أبى هريرة قال : لما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله ما فى السموات وما فى الأرض وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب ، فقالوا أىْ رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق ـ الصلاة والصيام والجهاد والصدقة ـ وقد أنزل الله هذه الآية ولا نطيقها ، فقال رسول الله : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم : سمعنا وعصينا ، بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما قرأها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى إثرها « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ » الآية ، قال فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل « لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » إلى آخرها .

وقوله نسخها الله أى أزال ما أخافهم من الآية الأولى وحوله إلى وجه آخر .

وقد قال الصحابة ما قالوا لأنهم قد دخلوا فى الإسلام وكثير منهم تربوا فى حجر الجاهلية وانطبعت فى نفوسهم أخلاقها ، وأثرت فى قلوبهم عاداتها ، وكانوا يتطهرون منها بالتدريج بهدى الرسول ونور القرآن ، فلما نزلت هذه الآية خافوا أن يؤاخذوا على ما كان باقياً فى أنفسهم من العادات الأولى ، وكانوا يحاسبون أنفسهم لاعتقادهم النقص وخوفهم من الله عز وجل ، حتى أثر عن عمر بن الخطاب أنه كان يسأل حذيفة بن اليمان ، هل يجد فيه شيئاً من علامات النفاق ، فأخبرهم الله تعالى بأنه لا يكلف نفساً إلا وسعها ، ولا يؤاخذها إلا على ما كلفها ، وهم مكلفون بتزكية أنفسهم ومجاهدتها بقدر الطاقة ، وطلب العفو عما لا طاقة لهم به .

وقد يكون بعضهم خاف أن تدخل الوسوسة والشبهة قبل التمكن من دفعها فيما تشمله الآية ، فكان ما بعدها مبيناً لغلطهم فى ذلك .

(فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشا) أى فهو يغفر بفضله لمن يشاء أن يغفر له ، ويعذب بعدله من يشاء أن يعذبه ، والله إنما يشاء ما فيه الرحمة والعدل ، ومن العدل

أن يجازى المسيء بقدر إساءته ، والمحسن على قدر إحسانه ، ومن الفضل أن يضاعف جزاء الحسنة عشرة أضعافها أو يزيد ، ولا يضاعف السيئة .

والذنب المغفور هو الذى يوفق الله صاحبه لعمل صالح يغلب أثره فى النفس ، وليس كما يزعم الجاهلون أن الأمور فوضى والكيل جزاف ، فيقيمون على الذنوب ويصرون عليها ويمنون أنفسهم بالمغفرة — اقرأ قوله تعالى فى دعاء الملائكة للمؤمنين « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ، رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ، وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ ، وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

ومحاسبة الله لعباده أن يريهم أعمالهم الظاهرة والباطنة ، ويسألهم لم فعلوها ؟ ثم إن شاء غفر وإن شاء عذب ، فمن لم تصل أعماله المنكرة إلى أن تكون ملكات له فالله يغفرها له ، ومن تكون كذلك فالله يعاقبه عليها ، وهو المختار يفعل ما يشاء .

ولا يخفى ما فى الآية من الإنذار والتخويف ، وليس فيها قطع بمغفرة ذنب وإن كان صغيراً ، ومن ثم أثر عن بعض الصوفية أنه قال : أبهمت الأمر علينا ، نرجو ونخاف ، فآمن خوفنا ، ولا تخيب رجاءنا .

آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ، كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ (٢٨٥) لاَ يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ، لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ، رَبَّنَا لاَتُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ، رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ،

رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٨٦)

شرح المفردات

لا نفرق بين أحد من رسله أى أن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء لا يفضل بعضهم بعضاً ، سمعنا أى سماع تدبر وفهم ، والتكليف الإلزام بما فيه كلفة ، والوسع ما تسعه قدرة الإنسان من غير حرج ولا عسر ، والاكتساب يفيد الجد فى العمل ، والمؤاخذة المعاقبة لأن من يراد عقابه يؤخذ بالقهر ، ما لا طاقة لنا به أى ما لا قدرة لنا عليه ويشق علينا فعله ، والإصر العبء الثقيل يأصر صاحبه ويحبسه مكانه ، إذ لايطيق حمله لثقله ، والمراد به التكاليف الشاقة ، مولانا أى مالكنا ومتولى أمورنا .

المعنى الجملى

افتتح سبحانه هذه السورة ببيان أن القرآن لا ريب فيه ، وأنه هدى للمتقين ، وبين صفات هؤلاء ، وأصول الإيمان التى أخذوا بها ، ثم ذكر خبر الكافرين والمرتابين ، ثم أرشد فيها إلى كثير من الأحكام كالصيام والحج والطلاق ، وحاج الضالين من الأمم السالفة ولا سيما اليهود ، فإنه قد بلغ فى حجاجهم مبلغاً ليس بعده زيادة لمستزيد ـ وهنا اختتم السورة بالشهادة للرسول صلوات الله عليه وللمؤمنين ، ثم لقنهم من الدعاء ما يرضيه ، ثم ذكر تمام خضوعهم وإخباتهم إلى ربهم الذى رباهم وخلقهم فى أحسن تقويم ، وميزهم بالفطر السليمة والخلق الكامل ، وطهر نفوسهم وزكاها من الأدناس والأرجاس حتى وصلوا إلى طريق السعادة ، وفازوا بخيرى الدارين ، وهـذا منتهى الكمال الإنسانى ، وغاية ما تصبو إليه نفوس البشر .

الإيضاح

(آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون) أى صدق الرسول بما جاء به الوحى من العقائد والأحكام تصديق يقين واطمئنان ، وتخلق به كما قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن ، وكذلك المؤمنون من أصحابه .

وقد كان من أثر هذا الإيمان أن زكت نفوسهم ، وطهرت قلوبهم ، وعلت همتهم ، فأتوا بالعجب العاجب من فتح البلاد والشعوب وسياستها سياسة عدل وحكمة مما شهد لهم به أعدى أعدائهم ، وسجله لهم التاريخ فى سجل الدول العظيمة الرقى والتقدم حين كان الناس فى ظلام دامس ، وحين كانت أرقى الأمم فى تلك العصور تسوس رعاياها بالخسف والعسف ، فأنقذها مما ترسف فيه من قيود الاستعباد وجعلها تتنفس فى جو من الحرية لم تر مثله ـ وكفى بالله شهيداً لهم .

(كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله) أى كل منهم آمن بوجود الله ووحدانيته ، وتمام حكمته فى نظام خليقته ، وبوجود الملائكة وسفارتهم بين الله والرسل ، ينزلون بوحيه على قلوب أنبيائه ، أما البحث عن ذواتهم وصفاتهم وأعمالهم فما لم يأذن به الله .

وآمن كل منهم إجمالا فيما أجمله القرآن وتفصيلا فيما فصله ـ بأن الله أنزل على رسله كتباً فيها هداية للبشر على حسب ما فصل فى قوله : « قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاط وَمَا أُوتِىَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِىَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ » الآية .

(لا نفرق بين أحد من رسله) أى ويقولون إن الرسل فى الرسالة والتشريع سواء ، كثر قوم الرسول أو قلوا ، والتفضيل الذى جاء فى قوله تعالى : « تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » إنما هو فى مزايا أخرى فوق الرسالة .

وفى هذا إشارة إلى فضيلة المؤمنين على غيرهم من أهل الكتاب الذين يفرقون بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض .

(وقالوا سمعنا وأطعنا) أى وقالوا بَلَّغنا الرسول فسمعنا القول سماع تدبر وفهم ، وأطعنا ما فيه من الأوامر والنواهى طاعة إذعان وانقياد ، وهذا مما يبعث النفس إلى العمل به إلا إذا عرض لها مانع يمنعها منه .

والمخلصون فى إيمانهم يحاسبون أنفسهم على ما يقع منهم من تقصير تأتى به العوارض الطارئة ، ويأبون إلا الكمال ، ومن ثم كان من شأنهم أن يقولوا :

(غفرانك ربنا وإليك المصير) أى استر لنا ذنوبنا بعدم الفضيحة عليها فى الدنيا وترك الجزاء عليها فى الآخرة ، أى نسألك ربنا المغفرة مما عساه يقع منا من التقصير الذى يعوقنا عن الرقى فى مراتب الكمال .

وإنما يكون ذلك بالتوبة ، وإتباع السيئة الحسنة ، وبهذا يمحى أثر الذنب من النفس فى الدنيا ، فترجع إلى الله فى الآخرة نقية زكية .

(لايكلف الله نفساً إلا وسعها) أى لايكلف الله عباده إلا ما يطيقون ، ويتيسر لهم فضلا منه ورحمة ، وهو كقوله : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ » .

وهذا إخبار من الله بعد تلقيهم تكاليفه بالطاعة والقبول ، بآثار فضله ورحمته لهم ، إذ كلفهم ما يتسنى لهم فعله ، ولا يصعب عليهم عمله .

وفيه بشارة بغفران ما طلبوا غفرانه من التقصير ، وبتيسير ما ربما يفهم من الآية السالفة (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) من المشقة والتعسير .

(لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) أى لها خير ما كسبته لنفسها من قول أو فعل ، وعليها ضرّ ما جدّت فيه من شر ، وأضيف الاكتساب إلى الشر لبيان أن النفس مجبولة على فعل الخير ، وتفعل الشر بالتكلف والتأسى ، إذ الميل إلى الخير مما أودع فى طبع الإنسان ، ولا يحتاج إلى مشقة فى فعله ، بل يجد لذة فى عمله ، كما يشعر بالميل إلى عبادة الله ، لأن شكر المنعم مغروس فى طبعه .

وأما الشر فإنه يعرض للنفس لأسباب ليست من طبيعتها ، ولا مقتضى فطرتها ، ولا يخفى عليها إذ ذاك أنها ممقوتة فى نظر الناس ، وأنها مهينة فى قرارة نفوسهم .

فالطفل ينشأ على الصدق حتى يسمع الكذب من الناس فيتعلمه وهو يشعر بقبحه ، وهكذا شأنه عند اجتراح كل شر ، فتراه يشعر بقبحه ، ويجد بين جوانحه وازعا يقول له : لا تفعل ، ويحاسبه بعد الفعل ويوبخه .

والخير كل ما فيه نفع نفسك ونفع الناس ، والعبارة الجامعة لذلك ، أن تحب لأخيك ما تحب لنفسك كما ورد فى الحديث الذى رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » .

والخلاصة — أن للنفس ثواب ما كسبت من الخير ، وعليها عقاب ما اجترحت من الشر .

وفى هذا ترغيب فى عمل الخير ، والمحافظة على أداء الواجبات الدينية ، فإن اختصاص نفع الفعل بفاعله من أقوى الدواعى إلى تحصيله ، وتحذير له من الإخلال به لأن مضرة ذلك تحيق به لا بغيره ، واقتصار مضرة الفعل بفاعله من أشد الزواجر عن مباشرته .

وبعد أن بين الله حال المؤمنين فى السمع والطاعة ، وطلبهم المغفرة مما يتهمون به نفوسهم من التقصير ، وذكر فضله على عباده فى عدم تكليفهم مالايطيقون ـ علمهم ما يدعون به ربهم فقال :

(ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) علمنا الله أن ندعوه بألا يؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا تفضلا منه ، وإحساناً علينا ، إذ كان ينبغى العناية والاحتياط والتذكر ، لعلنا نسلم من الخطأ والنسيان ، أو يقل وقوعهما منا ، فيكون ذنبنا جديراً بالعفو والمغفرة .

ذاك أن النسيان قد يكون من عدم العناية بالشىء ، وترك إجالة الفكر فيه يستقر فى النفس ، ومن ثم ينسى الإنسان ما لا يهمه ويحفظ مايهمه ، ويؤاخذ الناس

بعضهم بعضا بالنسيان ، ولا سيا نسيان الأدنى لما يأمره به الأعلى ، فإنه إن لم يفعل ما يأمره به نسيانا رماه بالإهمال والتقصير وآخذه على ذلك .

وكذلك الخطأ ينشأ من التساهل وعدم الاحتياط والتروى ، ومن ثم أوجبت الشريعة الضمان فى إتلاف الشىء خطأ ، فإذا رمى امرؤ صيدا فأخطأ وأصاب إنسانا فقتله أوخذ به فى الشريعة والقوانين الوضعية .

وبهذا تعلم أن المؤاخذة على النسيان والخطأ مما جاءت به الشريعة ، وجرى عليه العرف فى المعاملات والقوانين ، ولو لم يكن كل منهما مقصرا ما جاز هذا وما حسن ، وكذلك يجوز أن يؤاخذ الله الناس فى الآخرة بما يأتونه من المنكر ناسين تحريمه أو واقعين فيه خطأ .

والخلاصة — أن المراد من الآية أن الخطأ والنسيان مما يرجى العفو عنهما إذا وقع الإنسان فيهما بعد بذل الجهد والتفكر والتذكر وأخذ الدين بقوة ، ثم لجأ إلى الدعاء الذى يقوى فى النفس خشية الله ورجاء فضله ، فيكون هذا الإقبال نورا تنقشع به ظلمة ذلك التقصير .

وما رواه ابن ماجه والبيهقى فى السنن عن ابن عباس مرفوعا « إن الله تجاوز عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » فهو وعد من الله بالتجاوز عنها يوم القيامة رحمة منه وفضلا .

(ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا) أى ربنا لا تكلفنا ما يشق علينا فعله ، كما كلفت من قبلنا من الأمم التى بعثت فيها الرسل كبنى إسرائيل إذ كان يجب عليهم قطع موضع النجاسة من الثوب إذا تنجس ، وكانوا يدفعون ربع المال زكاة ، إلى نحو من ذلك .

وفى تعليمنا هذا الدعاء بشارة بأنه لا يكلفنا ما يشق علينا كما صرح بذلك فى قوله : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » وامتنان علينا وإعلام لنا بأنه

كان يجوز أن يحمل علينا الإصر ، فيجب علينا أن نشكره لذلك ، فنحن ندعوه استشعارا للنعمة والشكر عليها .

(ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) من العقوبات أو من البلايا والمحن ، ولا ما يشق علينا من الأحكام ، بل حملنا اليسير الذى يسهل علينا حمله والنهوض به ، حتى لا نستحق بمقتضى سنتك أن تحملنا مالا طاقة لنا به من عقوبة المفرطين فى دينهم .

(واعف عنا) أى امح آثار ذنوبنا فلا تعاقبنا عليها .

(وارحمنا) بتوفيقك إيانا للسير على سنتك التى جعلتها وسيلة لسعادة الدارين .

وهذه الجمل الثلاث نتائج لما قبلها من الجمل التى افتتحت بلفظ (ربنا) فاعف عنا مقابل لقوله (لا تؤاخذنا) ، واغفر لنا مقابل لقوله (ولا تحمل علينا إصرا) وارحمنا مقابل لقوله (ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) لأن من آثار عدم المؤاخذة بالنسيان والخطأ العفو ، ومن آثار عدم حمل الإصر عليهم المغفرة ، ومن آثار عدم تحميل مالا يطاق الرحمة .

(أنت مولانا) أى أنت مالكنا ومتولى أمورنا ، فأنت الذى منحتنا الهداية ، وأيدتنا بالتوفيق والعناية .

(فانصرنا على القوم الكافرين) بإقامة الحجة عليهم والغلبة حين قتالهم ، والأول أشد أثرا وأقوى فعلا ، فإنه نصر على الروح والعقل ، أما النصر بالسيف فهو نصر على الجسد فحسب .

وما علمنا الله هذا الدعاء لتلوكه ألسنتنا وتتحرك به شفاهنا فقط ، بل لندعوه مخلصين له لاجئين إليه بعد استعمال ما يصل إليه كسبنا من الأسباب والوسائل التى هى طريق الاستجابة ، فمن فعل ذلك فإن الله يستجيب دعاءه ، ومن لم يعرف من الدعاء إلا حركة اللسان ، مع مخالفة أحكام الشريعة ، وتجافى السنن التى سنها الله ، فهو بدعائه كالساخر من ربه ، فهو لا يستحق منه إلا المقت والخذلان .

ونحن الآن قد أعرضنا عن هدايته ، وتنكبنا سنته فى خليقته ، ثم طلبنا منه النصر بألسنتنا دون قلوبنا ، فلم يستجب لنا دعاء ، وكنا نحن الجانين على أنفسنا ، المستحقين لهذا الخذلان .

فإذا اتخذ المسلمون العُدَّة وقاموا ببذل الوسع فى استكمال الوسائل التى أرشد إليها الله تعالى ، وساروا على السنن التى هدى إليها البشر ، فإن الله يستجيب دعوتهم وينصرهم على أعدائهم ، فقد ورد فى الأثر : إن هذه الأمة لاتغلب من قلة ، وفقنا الله إلى العمل بسنته ، والسير وفق شريعته ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

خلاصة ما فى هذه السورة من أمهات الشريعة

(١) دعوة الناس جميعا إلى عبادة ربهم .
(٢) عدم اتخاذ أنداد له .
(٣) ذكر الوحى والرسالة ، والحجاج على ذلك بهذا الكتاب المنزل على عبده وتحدى الناس كافة بالإتيان بمثله .
(٤) ذكر أس الدين وهو توحيد الله .
(٥) إباحة الأكل من جميع الطيبات .
(٦) ذكر الأحكام العملية من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وأحكام الصيام ، والحج والعمرة ، وأحكام القتال والقصاص .
(٧) الأمر بإنفاق المال فى سبيل الله .
(٨) تحريم الخمر والميسر .
(٩) معاملة اليتامى ومخالطتهم فى المعيشة .
(١٠) أحكام الزوجية من طلاق ورضاعة وعدة .
(١١) تحريم الربا والأمر بأخذ ما بقى منه .
(١٢) أحكام الدَّيْن من كتابة وإشهاد وشهادة وحكم النساء والرجال فى ذلك .

(١٣) وجوب أداء الأمانة .

(١٤) تحريم كتمان الشهادة .

(١٥) خاتمة ذلك كله الدعاء الذى طلب الينا أن ندعوه به .

وعلى الجملة فقد فصلت فيها الأحكام ، وضربت الأمثال ، وأقيمت الحجج ، ولم تشتمل سورة على مثل ما اشتملت عليه ، ومن ثم سميت فسطاط القرآن .

سورة آل عمران

هذه السورة مدنية ، وعدد آياتها مائتان باتفاق العادّين .

ووجه اتصالها بما قبلها أمور :

(١) أن كلا منهما بدىء بذكر الكتاب وحال الناس فى الاهتداء به ــ فقد ذكر فى الأولى من آمن به ومن لم يؤمن به والمذبذبين بين ذلك ، وفى الثانية طائفة الزائغين الذين يتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة ، وطائفة الراسخين فى العلم الذين يؤمنون بمحكمه ومتشابهه ، ويقولون كل من عند ربنا .

(٢) أن فى الأولى تذكيرا بخلق آدم ، وفى الثانية تذكيرا بخلق عيسى ، وتشبيه الثانى بالأول فى أنه جرى على غير سنة سابقة فى الخلق .

(٣) أن فى كل منهما محاجة لأهل الكتاب ، لكن فى الأولى إسهاب فى محاجة اليهود واختصار فى محاجة النصارى ، وفى الثانية عكس هذا ، لأن النصارى متأخرون فى الوجود عن اليهود ، فليكن الحديث معهم تاليا فى المرتبة للحديث الأول .

(٤) أن فى آخر كل منهما دعاء ، إلا أن الدعاء فى الأولى ينحو نحو طلب النصر على جاحدى الدعوة ومحاربى أهلها ، ورفع التكليف بما لا يطاق ، وهذا

بما يناسب بداءة الدين ، والدعاء فى الثانية يرمى إلى قبول دعوة الدين وطلب الجزاء على ذلك فى الآخرة .

(٥) أن الثانية ختمت بما يناسب بدء الأولى ، كأنها متممة لها ، فبدئت الأولى بإثبات الفلاح للمتقين ، وختمت هذه بقوله واتقوا الله لعلكم تفلحون .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) اللهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ (٢) نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنْزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ (٣) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٣) إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى الْأَرْضِ وَلَا فِى السَّمَاءِ (٥) هُوَ الَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ ، لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦) هُوَ الَّذِى أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ وَالرَّاسِخُونَ فِى الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ (٧) رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ (٨) رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٩)

شرح المفردات

(الم) تقدم أن قلنا فى السورة قبلها إن الرأى الذى عليه المعول أن الحروف المقطعة التى وقعت فى أوائل السور هى حروف للتنبيه كألا ويا مما جاء فى أوائل الكلام لتنبيه المخاطب إلى ما يلقى بعدها من حديث يستدعى العناية بفهمه ، وتقرأ بأسمائها ساكنة كما تقرأ أسماء العدد فيقال (ألف . لام . ميم) كما يقال (واحد . اثنان . ثلاثة) وتمد اللام والميم ، وإذا وصل به لفظ الجلالة جاز فى الميم المد والقصر ، وفتحها وطرح الهمزة من (الله) للتخفيف والإله هو المعبود ، والحى ذو الحياة وهى صفة تستتبع الاتصاف بالعلم والإرادة ، والقيوم القائم على كل شىء بكلاءته وحفظه ، ونزّل يفيد التدريج والقرآن نزل كذلك فى نَيْف وعشرين سنة على حسب الحوادث كما تقدم ، وعبر عن الوحى مرة بالتنزيل ، وأخرى بالإنزل للإشارة إلى أن منزلة الموحِى أعلى من الموحَى إليه ، ومعنى كونه بالحق أن كل ماجاء به من العقائد والأحكام والحكم والأخبار فهو حق لا شك فيه ، ما بين يديه هى الكتب التى أنزلت على الأنبياء السابقين ، والتوراة كلمة عبرية معناها الشريعة ، ويريد بها اليهود خمسة أسفار يقولون إن موسى كتبها ، وهى : سفر التكوين ، وسفر الخروج ، وسفر اللاويين ، وسفر العدد ، وسفر تثنية الاشتراع ، ويريد بها النصارى جميع الكتب التى تسمى العهد العتيق ، وهى كتب الأنبياء وتاريخ قضاة بنى إسرائيل وملوكهم قبل المسيح ، وقد يطلقونه عليها وعلى العهد الجديد معا وهو المعبر عنه بالإنجيل ، ويريد بها القرآن ما أنزل على موسى ليبلغه قومه ، والإنجيل كلمة يونانية معناها التعليم الجديد أو البشارة ، وتطلق عند النصارى على أربعة كتب تسمى بالأناجيل الأربعة وهى كتب مختصرة فى سيرة المسيح عليه السلام وشىء من تاريخه وتعاليمه ، وليس لها سند متصل عند أهلها وهم مختلفون فى تاريخ كتابتها على أقوال كثيرة ، وكتب العهد الجديد تطلق على هذه الكتب الأربعة مع كتاب

أعمال الرسل (الحواريين) ورسائل بولس وبطرس ويوحنا ويعقوب ورؤيا يوحنا ، والإنجيل فى عرف القرآن هو ما أوحاه الله إلى رسوله عيسى عليه السلام ومنه البشارة بالنبى محمد وأنه هو الذى يتمم الشريعة والأحكام ، والفرقان هو العقل الذى يفرق بين الحق والباطل ، وكل ما كان عن حضرة القدس يسمى إعطاؤه إنزالا ألا ترى إلى قوله تعالى « وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ » ، والانتقام من النقمة وهى السطوة والتسلط يقال انتقم منه إذا عاقبه بجنايته ، والتصوير جعل الشىء على صورة لم يكن عليها ، والصورة هيئة يكون عليها الشىء بالتأليف ، والأرحام واحدها رحم وهى مستودع الجنين من المرأة ، والمحكم من أحكم الشىء بمعنى وثقه وأتقنه ، والأم فى اللغة الأصل الذى يتكون منه الشىء ، والمتشابه يطلق تارة على ماله أفراد أو أجزاء يشبه بعضها بعضا ، وتارة أخرى على ما يشتبه من الأمور ويلتبس ، والزيغ الميل عن الاستواء والاستقامة إلى أحد الجانبين والمراد به هنا ميلهم عن الحق إلى الأهواء الباطلة ، والتأويل من الأَوْل وهو الرجوع إلى الأصل ومنه الموئل للموضع الذى يرجع إليه ، والراسخون فى العلم هم المتفقهون فى الدين ، ومن لدنك أى من عندك ، والمراد بالرحمة العناية الإلهية والتوفيق الذى لا يناله العبد بكسبه ، وجمع الناس حشرهم للحساب والجزاء ، لا ريب فيه أى أننا موقنون به لا نشك فى وقوعه لأنك أخبرت به وقولك الحق .

المعنى الجملى

روى ابن جرير وابن إسحق وابن المنذر أن هذه الآيات وما بعدها إلى نحو ثمانين آية نزلت فى نصارى نجران إذ وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا نحو ستين راكبا ، وخاصموه فى عيسى بن مريم وقالوا له من أبوه؟ وقالوا على الله تعالى الكذب والبهتان فقال لهم النبى صلى الله عليه وسلم : ألستم تعلمون أنه لا يكون ولد إلا وهو يشبه أباه ؟ قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا حى

لا يموت وأن عيسى يأتى عليه الفناء ؟ قالوا بلى ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا قيم على كل شىء يكلؤه ويحفظه ويرزقه ؟ قالوا بلى ، قال : فهل يملك عيسى من ذلك شيئا ؟ قالوا لا ، قال : ألستم تعلمون أن ربنا صور عيسى فى الرحم كيف شاء ، وأن ربنا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يحدث الحدث ؟ قالوا بلى ، قال: ألستم تعلمون أن عيسى حملته أمه كما تحمل المرأة ، ثم وضعته كما تضع المرأة ولدها ، ثم غذّى كما يغذى الصبى ، ثم كان يأكل الطعام ويشرب الشراب ويحدث الحدث قالوا بلى ، قال : فكيف يكون هذا كما زعمتم فعرفوا ثم أبوا إلا جحودا ، فأنزل الله ألم الله لا إله إلا هو الحى القيوم إلى آخر تلك الآيات .

ووجه الرد عليهم فيها ـ أنه تعالى بدأ بذكر التوحيد لينفى عقيدة التثليث بادئ ذى بدء ، ثم وصفه بما يؤكد ذلك من كونه حيا قيوما أى قامت به السموات والأرض وهى قد وجدت قبل عيسى فكيف تقوم به قبل وجوده ، ثم ذكر أنه تعالى نزل الكتاب وأنزل التوراة ليبين أنه قد أنزل الوحى وشرع الشرائع قبل وجوده كما أنزل عليه الإنجيل وأنزل على من بعده ، فليس هو المنزل للكتب على الأنبياء وإنما هو نبى مثلهم ، ثم أعقب ذلك ببيان أنه هو الذى وهب العقل للبشر ليفرقوا به بين الحق والباطل ، وعيسى لم يكن واهبا للعقول ، ثم قال إنه لا يخفى عليه شىء ليرد على استدلالهم على ألوهية عيسى بإخباره عن بعض المغيبات ، فإن الإله لا يخفى عليه شىء مطلقا سواء أكان فى هذا العالم أم غيره من العوالم السماوية ، وعيسى لم يكن كذلك ، ثم أبان أن الإله هو الذى يصور فى الأرحام ليرد على ولادة عيسى من غير أب ، إذ الولادة من غير أب ليست دليلا على الألوهية ، فالمخلوق عبد كيفما خلق ، وإنما الإله هو الخالق الذى يصور فى الأرحام كيف يشاء ، وعيسى لم يصور أحدا فى رحم أمه ، ثم صرح بعد هذا بكلمة التوحيد وبوصفه تعالى بالعزة والحكمة .

ثم انتقل بعد ذلك إلى وصف الكتاب وجعله قسمين ، محكم العبارة محفوظ من الاحتمال والاشتباه ، وهو الأصل الذى دعى الناس إلى تدبر معانيه والعمل به ،

و إليه يرجع فى فهم المتشابه ، ومتشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شىء والعقل على خلافه فتشابهت الدلالة ولم يمكن الترجيح كالاستواء على العرش وكون عيسى روح الله وكلمته ، ثم بين أن الناس فى هذا انقسموا فرقتين فرقة زائغة يرجعون فى تأويله إلى أهوائهم وتقاليدهم لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، وفرقة يقولون آمنا به ونفوض علمه إلى ربنا ، وقد دعوه ألا يضلهم بعد الهداية ، ويرزقهم الثبات على معرفة الحقيقة والاستقامة على الطريقة .

الإيضاح

(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) قد مر تفسير هذا بإيضاح أول آية الكرسى.
(نزل عليك الكتاب بالحق) أى أنه أوحى إليك هذا القرآن بالتدريج متصفا بالحق الذى لا شبهة فيه .

(مصدقا لما بين يديه) أى مبينا صدق ما تقدمه من الكتب المنزلة على الأنبياء السالفين ، فإنه أثبت الوحى وذكر أنه أرسل رسلا أوحى إليهم ، وهذا تصديق جملى لأصل الوحى إليهم ، لا تصديق تفصيلى لتلك الكتب التى عند الأمم التى تنمى إلى أولئك الأنبياء بمسائلها جميعها ، ألا ترى أن تصديقنا لمحمد صلى الله عليه وسلم فى جميع ما أخبر به ، لا يلزم منه التصديق بكل ما فى كتب الحديث المروية عنه ، بل ماثبت منها صحته فقط .

(وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس) أى وأنزل التوراة على موسى هدى للناس، وقد أخبر الكتاب الكريم أن قومه لم يحفظوها إذ قال: «وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ» كما أخبر عنهم أنهم حرفوا الكلم عن مواضعه فيما حفظوه واعتقدوه، والأسفار التى بين أيديهم تؤيد ذلك ، ففى سفر التثنية (فعند ما كمل موسى كتابة كلمات هذه التوراة فى كتاب إلى تمامها ـ أمر موسى اللاويين حاملى تابوت عهد الرب قائلا ، خذوا كتاب التوراة هذا وضعوه بجانب تابوت عهد الرب إلهكم

ليكون هناك شاهدا عليكم ، لأنى عارف أنكم بعد موتى تفسدون وتزيغون عن الطريق الذى أوصيتكم به ، ويصيبكم الشر فى آخر الأيام ، لأنكم تعملون الشر أمام الرب حتى تغيظوه بأعمال أيديكم - إلى أن قال لهم : وجهوا قلوبكم إلى جميع الكلمات التى أنا أشهد عليكم بها اليوم ، لكى توصوا بها أولادكم ليحرصوا أن يعملوا بجميع كلمات هذه التوراة ، لأنها ليست أمرا باطلا عليكم ، بل هى حياتكم ، وبهذا الأمر تطيلون الأيام على الأرض التى أنتم عابرون الأردن إليها لتمتلكوها ، وكذلك خبر موت موسى وكونه لم يقم فى بنى إسرائيل نبى مثله بعد .

فهذان الخبران عن كتابة موسى للتوراة وعن موته معدودان عندهم من التوراة وليسا من الشريعة المنزلة على موسى التى كتبها ووضعها بجانب التابوت ، بل كتبا كغيرهما بعده) .

إذا فالتوراة التى عندهم كتب تاريخية مشتملة على كثير من تلك الشريعة المنزلة ، والقرآن يثبت ذلك ، وأيضا ففقد كتاب الشريعة لأمة لا يجعلها تنسى جميع أحكام هذه الشريعة ، فما كتبه عزرا وغيره مشتمل على ما حفظ منها إلى عهده ، وعلى غيره من الأخبار ، وهذا كاف فى الاحتجاج على بنى إسرائيل بإقامة التوراة ، والشهادة بأن فيها حكم الله كما جاء فى سورة المائدة ، وأسفارها كلها كتبت بعد السَّبْى يرشد إلى ذلك كثرة الألفاظ البابلية التى جاءت فيها ، وقد اعترف علماء النصارى بفقد توراة موسى التى هى أصل دينهم ، فقد جاء فى كتاب خلاصة الأدلة السنية على صدق أصول الديانة المسيحية (والأمر مستحيل أن تبقى نسخة موسى الأصلية فى الوجود إلى الآن ، ولا نعلم ماذا كان أمرها ، والمرجح أنها فقدت مع التابوت لما خرَّب بُخْتُنَصَّرَ الهيكل ، وربما كان ذلك سبب حديث كان جاريا بين اليهود على أن الكتب المقدسة فقدت ، وأن عزرا الكاتب الذى كان نبيا جمع النسخ المتفرقة من الكتب المقدسة وأصلح غلطها ، وبذلك عادت إلى منزلتها الأصلية ، ولكن من أين جمع عزرا تلك الكتب بعد فقدها ؟ وعلى أى شىء

اعتمد فى إصلاح غلطها ؟ فإن قالوا إنه بالإلهام فإنا نقول إن هذا مما يحتاج فيه إلى جمع ما فى أيدى الناس الذين لا ثقة بنقلهم ، على أن علماء أوربا قالوا إن أسفار التوراة كتبت بأساليب مختلفة ، لا يمكن أن تكون كتابة رجل واحد .

وأنزل الله الإنجيل على عيسى ، وأنبأ سبحانه بأن النصارى نسوا حظا مما ذكروا به كاليهود ، بل هم أولى بذلك ، فإن التوراة كتبت زمن نزولها ، وكان ألوف الناس يقرءونها ويعملون بما فيها من شرائع وأحكام ثم فقدت ، ولكن الكثير من أحكامها كان محفوظا معروفا عندهم ، أما كتب النصارى فلم تعرف ولم تشتهر إلا فى القرن الرابع للمسيح ، لأن أتباعه كانوا مضطهدين بين اليهود والرومان ، حتى اعتنق قسطنطين النصرانية فظهرت كتبهم ، ومنها تواريخ المسيح المشتملة على بعض كلامه الذى هو إنجيله ، وكانت كثيرة فتحكم فيها الرؤساء حتى اتفقوا على أنها أربعة .

وخلاصة ذلك — أن الله أنزل التوراة والإنجيل لهداية من أنزلا عليهم إلى الحق ومن جملة ذلك الإيمان به صلوات الله عليه ، واتباعه حين يبعث ، فقد اشتملتا على البشارة به والحث على طاعته ـ ونسخ أحكامهما بالكتاب الذى أنزل عليه .

(وأنزل الفرقان) أى وأنزل العقل الذى يفرق بين الحق والباطل ، وجاء فى آية أخرى (الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان) والميزان هو العدل .

فالله سبحانه قرن بالكتاب أمرين الفرقان الذى نفرق به الحق فى العقائد ونميزه عن الباطل ، والميزان وهو ما نعرف به الحقوق فى الأحكام ونعدل بين الناس .

فالخلاصة — أن ما يقوم عليه البرهان العقلى من عقائد وغيرها فهو حق منزل من عند الله وما قام به العدل فهو حكم منزل من عند الله وإن لم ينص عليه فى الكتاب ، فإن الله هو المنزل والمعطى للعقل والعدل ـ الفرقان والميزان ـ كما أنه سبحانه هو المنزل للكتاب ، ولا غنى لأحدهما عن الآخر .

(إن الذين كفروا بآيات الله لهم عذاب شديد) أى إن الذين كفروا بآيات الله

الناطقة بتوحيده وتنزيهه عما لا يليق بشأنه الجليل ، فكذبوا بالقرآن أولا ثم بسائر الكتب تبعا لذلك — لهم عذاب شديد بما يلقى الكفر فى عقولهم من الخرافات والأباطيل التى تدنس نفوسهم — وتكون سبب عقابهم فى الدار الآخرة التى تغلب فيها الحياة الروحية على الحياة الجسدية المادية .

(والله عزيز ذو انتقام) أى أن الله بعزته ينفذ سنته ، وينتقم ممن خالفها بسلطانه الذى لا يعارض .

(إن الله لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء) فينزل لعباده من الكتب ما فيه صلاحهم إذا أقاموه ، ويعلم سرهم وجهرهم فلا يخفى عليه حال الصادق فى إيمانه، ولا حال الكافر ، ولا حال من استبطن النفاق وأظهر الإيمان ، ولا حال من أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان .

وفى التعبير بعدم خفاء شىء عليه — إشارة إلى أن علمه لا يوازن بعلوم المخلوقين بل هو الغاية فى الوضوح وعدم الخفاء .

(هو الذى يصوركم فى الأرحام كيف يشاء) أى هو الذى يجعلكم على صور مختلفة متغايرة وأنتم فى الأرحام من النطف إلى العلق إلى المضغ ، ومن ذكورة وأنوثة، ومن حسن وقبح إلى غير ذلك ، وكل هذا على أتم ما يكون دقة ونظاما ، ومستحيل أن يكون هذا قد جاء من قبيل الاتفاق والمصادفة ، بل هو من صنع عليم خبير بالدقائق.

(لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فهو المنفرد بالإيجاد والتصوير ، العزيز الذى لا يغلب على ما قضى به علمه وتعلقت به إرادته ، الحكيم المنزه عن العبث ، فهو يوجد الأشياء على مقتضى الحكمة ، ومن ثم خلقكم على هذا النمط البديع الذى لا يتصور ما هو أدق منه وأحكم كما قيل « ليس فى الإمكان أبدع مما كان » .

(هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) أى هو الذى أنزل عليك الكتاب منقسما إلى محكم العبارة ، بعيد من الاحتمال والاشتباه ، ومتشابه وهو ما يدل اللفظ فيه على شىء والعقل على خلافه ،

فتشابهت فيه الدلالة ولم يتمكن الترجيح كالاستواء على العرش ، أو هو ما استأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة .

وقد جاء وصف القرآن بالمحكم فى قوله : « كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ » وهو إما بمعنى إحكام النظم وإتقانه ، وإما بمعنى الحكمة التى اشتملت عليها آياته ، ووصفه بالمتشابه فى قوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُتَشَابِهاً » بمعنى أنه يشبه بعضه بعضاً فى الهداية والسلامة من التناقض والتفاوت والاختلاف كما قال : « وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافاً كَثِيرًا » وقوله : « وَأُوتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً » أى أن ما جيئوا به من الثمرات فى الآخرة يشبه ما رزقوا به من قبل فاشتبهوا فيه لهذا التشابه .

(فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله) أى فأما الذين يميلون عن الحق ويتبعون أهواءهم الباطلة فينكرون المتشابه وينفرون الناس منه ويستعينون على ذلك بما فى غرائز الناس وطبائعهم من إنكار ما لم يصل إليه علمهم ولا يناله حسهم كالإحياء بعد الموت وجميع شئون العالم الأخروى ، ويأخذونه على ظاهره بدون نظر إلى الأصل المحكم ليفتنوا الناس بدعوتهم إلى أهوائهم ، فيقولون إن الله روح والمسيح روح منه ، فهو من جنسه ، وجنسه لا يتجزأ فهو هو، ومعنى ابتغاء تأويله – أنهم يرجعونه إلى أهوائهم وتقاليدهم ، لا إلى الأصل المحكم الذى بنى عليه الاعتقاد ، فيحولون خبر الإحياء بعد الموت وأخبار الحساب والجنة والنار عن معانيها ويصرفونها إلى معان من أحوال الناس فى الدنيا ليخرجوا الناس من دينهم ، والقرآن ملىء بالرد عليهم من نحو قوله : « قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِى أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

(وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا) للعلماء فى تفسير هذه الآية رأيان :

(١) رأى بعض السلف وهو الوقوف على لفظ الجلالة ، وجعل قوله : والراسخون

في العلم كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه لايعلم تأويله إلا الله ، واستدلوا على ذلك بأمور منها :

(ا) أن الله ذم الذين يتبعون تأويله .

(ب) أن قوله (يقولون آمنا به كل من عند ربنا) ظاهر في التسليم المحض لله تعالى ، ومن عرف الشيء وفهمه لايعبر عنه بما يدل على التسليم المحض .

وهذا رأى كثير من الصحابة رضوان الله عليهم كأبيّ بن كعب وعائشة .

(٢) ويرى بعض آخرون الوقف على لفظ (العلم) ويجعل قوله : (يقولون آمنا) كلام مستأنف ، وعلى هذا فالمتشابه يعلمه الراسخون ـ وإلى ذلك ذهب ابن عباس وجمهرة من الصحابة ، وكان ابن عباس يقول : أنا من الراسخين في العلم ، أنا أعلم تأويله .

وردوا على أدلة الأولين بأن الله تعالى إنما ذم الذين يبتغون التأويل بذهابهم فيه إلى ما يخالف المحكمات يبتغون بذلك الفتنة ، والراسخون في العلم ليسوا كذلك فإنهم أهل اليقين الثابت الذى لا اضطراب فيه ، فالله يفيض عليهم فهم المتشابه بما يتفق مع فهم المحكم ، وبأن قولهم (آمنا به كل من عند ربنا) لاينافي العلم ، فإنهم لرسوخهم في العلم ووقوفهم على حق اليقين لا يضطربون ، بل يؤمنون بهذا وذاك ، لأن كلا منهما من عند الله ، وليس في هذا من عجب ، فإن الجاهل في اضطراب دائم ، والراسخ في العلم ثابت العقيدة لا تشتبه عليه المسالك : ووجود المتشابه الذى يستأثر الله بعلمه من أحوال الآخرة ـ ضرورى ، لأن من مقاصد الدين الإخبار بأحوالها ، فيجب الإيمان بما جاء به الرسول من ذلك ، وهو من عالم الغيب نؤمن به كما نؤمن بالملائكة والجن ، ولا يعلم تأويل ذلك أى حقيقة ما تئول إليه هذه الألفاظ إلا الله .

والراسخون في العلم وغيرهم في مثل هذا سواء ، لأن الراسخين يعرفون ما يقع تحت حكم الحس والعقل ، ولا يستشرفون بأنظارهم إلى معرفة حقيقة ما يخبر به

الرسل من عالم الغيب ، إذ هم يعلمون أنه لا مجال لحسهم ولا لعقلهم فيه ، إنما سبيله التسليم ، فيقولون آمنا به كل من عند ربنا ، فالوقف فى مثل هذا لازم على لفظ الجلالة (الله) .

أما النوع الأول من المتشابه وهو الألفاظ التى لا يجوز فى العقل أخذها على ظاهرها من صفاته تعالى وصفات أنبيائه كقوله «وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ» فمثل هذا يمنع الدليل العقلى والدليل النقلى حمله على ظاهره ، ومثل هذا هو الذى يأتى فيه الخلاف فى علم الراسخين بتأويله ، فالذين نفوا عنهم علمهم به ، جعلوا حكمة تخصيص الراسخين بالتفويض والتسليم ــ هى تمييزهم بين الأمرين وإعطاء كل حكمه كما تقدم ، والذين أثبتوا لهم علمه ، يردون ما تشابه ظاهره من صفات الله وأنبيائه إلى أم الكتاب وهو المحكم ، و يأخذون منه ما يمكنهم من فهم المتشابه .

وعلى هذا فتخصيص الراسخين بهذا العلم لبيان أن غيرهم يمتنع عليه الخوض فيه ، ولا يجوز لهم التهجم عليه .

وقد يخطر على البال سؤال وهو ، لم كان فى القرآن متشابه لا يعلمه إلا الله والراسخون فى العلم ؟ ولم لم يكن كله محكما يتساوى فى فهمه جميع الناس ، وهو قد نزل هاديا والمتشابه يحول دون الهداية لوقوع اللبس فى فهمه ، وفتح باب الفتنة فى تأويله لأهل التأويل ؟

أجاب العلماء عن هذا بأجوبة كثيرة منها .

(١) أن فى إنزال المتشابه امتحانا لقلوبنا فى التصديق به ، إذ لو كان ما جاء فى الكتاب معقولا واضحا لا شبهة فيه لأحد ، لما كان فى الإيمان به شىء من الخضوع لأمر الله والتسليم لرسله .

(٢) ان فى وجوده فى القرآن حافزا لعقول المؤمنين إلى النظر فيه كيلا تضعف وتموت ، إذ السهل الجلى لاعمل للعقل فيه ، و إذا لم يجد العقل مجالا للبحث مات ، والدين أعز شىء على الإنسان فإذا ضعف عقله فى فهمه ضعف فى كل شىء ، ومن

ثم قال والراسخون فى العلم ، ولم يقل والراسخون فى الدين ، لأن العلم أعمّ وأشمل ، فمن رحمته أن جعل فى الدين مجالا لبحث العقل بما أودع فيه من المتشابه ، إذ بحثه يستلزم النظر فى الأدلة الكونية ، والبراهين العقلية ، ووجوه الدلالة ، ليصل إلى فهمه ويهتدى إلى تأويله .

(٣) أن الأنبياء بعثوا إلى الناس كافة وفيهم العالم والجاهل والذكى والبليد ، وكان من المعانى الحِكَمُ الدقيقة التى لا يمكن التعبير عنها بعبارة تكشف عن حقيقتها ، فجعل فهم هذا من حظ الخاصة ، وأمر العامة بتفويض الأمر فيه إلى الله ، والوقوف عند فهم المحكم ، ليكون لكل نصيبه على قدر استعداده ، فإطلاق كلمة الله وروح من الله على عيسى يفهم منه الخاصة ما لا يفهمه العامة ، ومن ثم فتن النصارى بمثل هذا التعبير إذ لم يقفوا عند حد المحكم وهو التنزيه واستحالة أن يكون لله أم أو ولد بمثل ما دل عليه قوله : « إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ » .

(وما يذكر إلا أولو الألباب) أى وما يعقل ذلك ويفقه حكمته إلا ذوو البصائر المستنيرة ، والعقول الراجحة ، التى امتازت بالتدبر والتفكر فى جميع الآيات المحكمة التى هى الأصول ، حتى إذا عرض لهم المتشابه بعد ذلك سهل عليهم أن يتذكروها ويردوا المتشابه إليها ، ويقولوا فى المتشابه الذى هو نبأ عالم الغيب : إن قياس الغائب على الشاهد قياس مع الفارق لا ينبغى للعقلاء أن يعتبروه .

(ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب) أى أن أولئك الراسخين فى العلم مع اعترافهم بالإيمان بالمتشابه يطلبون إلى الله أن يحفظهم من الزيغ بعد الهداية ، ويهبهم الثبات على معرفة الحقيقة ، والاستقامة على الطريقة فهم يعرفون ضعف البشر ، وكونهم عرضة للتقلب والنسيان والذهول ، فيخافون أن يقعوا فى الخطأ ، والخطأ قرين الخطر .

وقد روى عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرا ما يدعو يا مقلّب القلوب ، ثبت قلبى على دينك ، قلت : يا رسول الله

ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إن شاء أن يقيمه أقامه ، وإن شاء أن يزيغه أزاغه .

(ربنا إنك جامع الناس ليوم لا ريب فيه إن الله لا يخلف الميعاد) أى ربنا إنك تجمع الناس للجزاء فى يوم لا شك فيه ، وإنا موقنون به ، لأنك أخبرت به وقولك الحق ، ووعدت وأوعدت بالجزاء فيه ، وأنت لا تخلف وعدك .

وقد جاءوا بهذا الدعاء بعد الإيمان بالمتشابه ، ليستشعروا أنفسهم الخوف من تسرب الزيغ الذى يسلبهم الرحمة فى ذلك اليوم ، وهذا الخوف هو مبعث الحذر والتوقى منه .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ (١٠) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (١١) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٢) قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ ، وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ (١٣)

شرح المفردات

تغنى أى تنفع ، وقود (بفتح الواو) أى حطب ونحوه ، والدأب : العادة من دأب على العمل إذا جد فيه وتعب ثم غلب فى العادة ، والمهاد : الفراش ، يقال مهّد الرجل المهاد إذا بسطه ، والآية : العلامة على صدق ما يقول الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الدين الحق وقرر التوحيد ، وذكر الكتب الناطقة به ، وألمع إلى شأن القرآن الكريم وإيمان العلماء الراسخين به ـ شرع يذكر حال أهل الكفر والجحود ، ويبين أسباب اغترارهم بالباطل واستغنائهم عن الحق ، أو اشتغالهم عنه ، ومن أهم ذلك الأموال والأولاد ، وأرشد إلى أنها لا تغنى عنهم شيئا فى ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الناس ليحاسبهم على ما عملوا ، والكافرون فى أشد الحاجة إلى مثل هذه العظة ، لأن الجحود إنما يقع لغرور الناس بأنفسهم وأموالهم ، فيتوهمون الاستغناء عن الحق ، ويتبعون الهوى .

وقد ضرب الله مثلا لهؤلاء الكافرين الذين استغنوا بما أوتوا فى الدنيا عن الحق فعارضوه وناصبوا أهله العداء حتى ظفروا بهم مثل آل فرعون ومن قبله ممن كذبوا الرسل فقد أهلكهم الله ونصر موسى على آل فرعون ، ونصر الرسل ومن آمن معهم على أممهم لصلاحهم وإصلاحهم ، فالله لا يحابى ولا يظلم وهو شديد العقاب .

الإيضاح

(إن الذين كفروا لن تغنى عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك هم وقود النار) أى إن الذين جحدوا ما قد عرفوه من نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سواء كانوا من بنى إسرائيل أم من كفار العرب ـ لن تنجيهم أموالهم التى يبذلونها فى جلب المنافع ودفع المضارّ ، ولا أولادهم الذين يتناصرون بهم فى مهامّ أمورهم ويعولون عليهم فى الخطوب النازلة ، من عذاب الله شيئا ، وقد كانوا يقولون نحن أكثر أموالا وأولاداً وما نحن بمعذبين فردّ الله عليهم بقوله : « وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً » وسيكونون يوم القيامة حطباً لجهنم التى تسعر بهم .

ثم ضرب لهم مثلا لينبههم إلى ماحلّ بمن قبلهم من الأمم التى كانت أقوى منهم جنداً وأكثر عدداً لعلهم يتعظون فقال :

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم والله شديد العقاب) أى أن صنيع هؤلاء فى تكذيبهم بمحمد صلى الله عليه وسلم وكفرهم بشريعته ، كدأب آل فرعون مع موسى عليه السلام ، ودأب من قبلهم من الأمم ، كذبوا بآياتنا فأخذهم الله بذنوبهم ، فأهلكهم ونصر الرسل ومن آمن معهم ، ولم يجدوا من بأس الله محيصا ولا مهربا ، إذ عقابه أثر طبيعى لاجتراح الذنوب وارتكاب الموبقات .

(قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد) المراد بالكافرين هنا اليهود لما روى عن ابن عباس رضى الله عنهما أن يهود المدينة لما شاهدوا غلب رسول الله صلى الله عليه وسلم للمشركين يوم بدر قالوا والله إنه النبى الأمى الذى بشرنا به موسى ، وفى التوراة نعته ، وهموا باتباعه ، فقال بعضهم : لا تعجلوا حتى تنظروا إلى وقعة أخرى ، فلما كان يوم أحد شَكّوا ، وقد كان بينهم وبين رسول الله عهد إلى مدة فنقضوه ، وانطلق كعب بن الأشرف فى ستين راكباً إلى أهل مكة فأجمعوا أمرهم على قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم فنزلت .

وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم لما أصاب قريشا ببدر ورجع إلى المدينة جمع اليهود فى سوق بنى قَيْنُقاع فحذرهم أن ينزل بهم ما نزل بقريش ، فقالوا له : لا يغرنّك أنك لقيت قوما أغمارا لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة ، لئن قاتلتنا لعلمت أنّا نحن الناس فنزلت .

أى قل لأولئك اليهود إنكم ستغلبون فى الدنيا ، وسينفذ فيكم وعيدى ، وتساقون فى الآخرة إلى جهنم سوقا ، وبئس المهاد ما مهدتموه لأنفسكم .

وقد صدق الله وعده فقتل المسلمون بنى قُرَيظة الخائنين ، وأُجْلَوا بنى النَّضِير المنافقين ، وفتحوا خيبر وضربوا الجزية على من عداهم .

(قد كان لكم آية فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله ، وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين) أى قل لأولئك اليهود الذين غرتهم أموالهم ، واعتزوا بأولادهم وأنصارهم : لا تغرنكم كثرة العدد ، ولا المال والولد ، فليس هذا سبيل النصر والغلب ، فالحوادث التى تجرى فى الكون أعظم دليل على تفنيد ما تدعون.

انظروا إلى الفئتين اللتين التقتا يوم بدر، فئة قليلة من المؤمنين تقاتل فى سبيل الله كتب لها الفوز والغلب على الفئة الكثيرة من المشركين .

وفى هذا عبرة أيما عبرة لذوى البصائر السليمة التى استعملت العقول فيما خلقت لأجله من التأمل فى الأمور والاستفادة منها ، لا لمثل من نعتهم الله بقوله : « لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا ، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ » .

ووجه العبرة فى هذا أن هناك قوة فوق جميع القوى قد تؤيد الفئة القليلة فتغلب الفئة الكثيرة بإذنه تعالى ، وقوله تقاتل فى سبيل الله ترشد إلى السرّ فى هذا الفوز ، لأنه متى كان القتال فى هذا السبيل أى لحماية الحق والدفاع عن الدين وأهله ، فإن النفس تقبل عليه بكل ما أوتيت من قوة ، وما أمكنها من تدبير واستعداد ، علماً منها بأن وراء قوتها معونة الله وتأييده ، يرشد إلى هذا قوله تعالى : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ، وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » فها أنت ذا ترى أن الله أمر المؤمنين بالثبات وبكثرة ذكره لشدّ العزائم والنهوض بالهمم ، وبالطاعة لرسوله ، وكان هو القائد فى تلك الواقعة ـ واقعة بدر ـ وطاعة القائد من أهم أسباب الظفر والنجاح فى ميدان القتال .

وقد امتثل المؤمنون ما أوصاهم به ربهم بقدر طاقتهم ، فوجد لديهم الاستعداد والعزيمة الصادقة ، فقاتلوا ثابتين واثقين بنصر الله ، فنصرهم وفاء بوعده « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ » .

وغزوات الرسول وأصحابه تفسر ما ورد فى هذه الآيات ، ولما خالفوا ما أمروا به فى غزوة أحد نزل بهم ما نزل ، وفى هذا أكبر عبرة لمن تذكر واعتبر .

وقد روى أرباب السير أن جيش المسلمين كان ثلثمائة وثلاثة وعشرين رجلا ، سبعة وسبعون منهم من المهاجرين ، ومائتان وستة وثلاثون من الأنصار ، وصاحب راية المهاجرين على بن أبى طالب ، وصاحب راية الأنصار سعد بن عبادة ، وكان فى العسكر تسعون بعيرا وفرسان أحدهما للمقداد بن عمرو ، والآخر لمرثد بن أبى مرثد ، وكان معهم ست دروع وثمانية سيوف ، وجميع من قتل منهم يومئذ أربعة عشر رجلا ستة من المهاجرين وثمانية من الأنصار .

وأن جيش المشركين كان تسعمائة وخمسين مقاتلا ، رأسهم عقبة بن ربيعة ، وفيهم أبو سفيان وأبو جهل ، وكان فى معسكرهم من الخيل مائة فرس وسبعمائة بعير ، ومن الأسلحة ما لا يحصى عدًّا .

ومعنى قوله يرونهم مثليهم رأى العين ، أن المشركين رأوا المسلمين مثلى عدد المشركين أى قريبا من ألفين ـ وكانوا نحو ثلثمائة ـ أراهم الله إياهم مع قلتهم أضعافهم ليهابوهم ويجبنوا عن قتالهم ، وكان ذلك مددا لهم من الله كما أمدهم بالملائكة ، بعد ما قللهم فى أعينهم حتى اجترءوا عليهم وتوجهوا إليهم كما جاء فى خطاب أهل بدر « وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلاً وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولاً وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ » ومعنى قوله رأى العين أنها رؤية مكشوفة لا لبس معها ولا خفاء كسائر المرئيات والمشاهدات .

(والله يؤيد بنصره من يشاء) أى والله يقوى بمعونته من يشاء كما أيد أهل بدر بتكثيرهم فى عين العدو .

(إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار) أى إن فى هذا النصر مع قلة عددهم وكثرة عدوهم عظة لمن عقل وتدبر فعرف الحق وثلج قلبه ببرد اليقين .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ، ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤)

المعنى الجملي

بعد أن بين سبحانه قبل هذا اشتغال الكافرين بالأموال والأولاد وإعراضهم عن الحق وانهما كهم فى اللذات ، ذكر هنا وجه غرورهم بذلك تحذيرا لهم من جعلها مطية لشهواتهم ، وتذكيرا لهم بأنه لاينبغى أن تجعل هى غاية الحياة ، فتشغلهم عن أعمال الآخرة التى جعلت الدنيا مزرعتها ، والوسيلة لكسب السعادة فيها .

الإيضاح

(زين للناس حب الشهوات) معنى تزيين حب الشهوات للناس ، أن حبها مستحسن لديهم لايرون فيه قبحاً ولا غضاضة ، ومن ثم لايكادون يرجعون عنه ، وهذا أقصى مراتب الحب ، وصاحبه قلما يفطن لقبحه أو ضرره إن كان قبيحاً أو ضارّا ، ولا يحب أن يرجع عنه وإن تأذى به ، وقد يحب الإنسان شيئا وهو يراه شينا لازينا ، وضارّا لا نافعا ، ويود لذلك لو لم يحبه كما يحب بعض الناس شرب الدخان على تأذيهم منه ، ومن أحب شيئا ولم يزين له يوشك أن يرجع عنه يوما ما ، ومن زين له حبه فلا يكاد يرجع عنه .

والشهوات واحدها شهوة وهى رغبة الناس فى الحصول على ما تستلذه ، والمراد بها هنا المشتهيات ، كما يقال هذا الطعام شهوة فلان أى ما يشتهيه .

المعنى — أن الله فطر الناس على حب هذه الشهوات المبينة بعد كما قال : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً » وقال : « كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ » .

وقد يسند التزيين إلى الشيطان بالوسوسة فى قبيح الأعمال كما قال تعالى : « وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ » .

ثم فصل هذه المشتهيات الستة التى ملأت قلوب الناس حبا فقال :

(من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث) .

(فأولها) النساء وهن موضع الرغبة ومطمح الأنظار وإليهن تسكن النفوس كما قال تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » وعليهن ينفق أكثر ما يكسب الرجال بكدهم وجدهم ، فهم القوامون عليهن لقوتهم وقدرتهم على حمايتهن ، فإسرافهم فى حبهن له الأثر العظيم فى شئون الأمة ، وفى إضاعة الحقوق أو حفظها .

وقدم حب النساء على حب الأولاد مع أن حبهن قد يزول وحب الأولاد لايزول ـ لأن حب الولد لايعظم فيه الغلو والإسراف كحب المرأة ، فكم من رجل جنى حبه للمرأة على أولاده ، فكثير ممن تزوجوا بما فوق الواحدة ، وأفرطوا فى حب واحدة وملوا أخرى ـ أهملوا تربية أولاد المبغوضة وحرموهم سعة الرزق وقد وسعوه على أولاد المحبوبة ، وكم من غنىّ عزيز يعيش أولاده عيشة الذل والفقر ، وليس لهذا من سبب إلا حب والدهم لغير أمهم ، فهو يفعل ذلك للتقرب وابتغاء الزلفى إليها .

(وثانيها) البنون والمراد بهم الأولاد مطلقا كما قال تعالى : « إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ » وفى الحديث الولد مَجْبَنَةٌ مَبْخَلَةٌ .

والعلة فى حب الزوجة وحب الولد واحدة وهى تسلسل النسل وبقاء النوع ، وهى حكمة مطردة فى غير الإنسان من الحيوانات الأخرى .

وحب البنين أقوى من حب البنات لأسباب كثيرة منها .

(١) أنهم عمود النسب الذى به تتصل سلسلة النسل ، وبه يبقى ما يحرص عليه الإنسان من بقاء الذكر وحسن الأحدوثة بين الناس .

(٢) أمل الوالد فى كفالتهم له حين الحاجة إليه لضعف أو كبر .

(٣) أنه يرجى بهم من الشرف ما لا يرجى من الإناث كنبوغ فى علم أو عمل أو رياسة أو قيادة جيش للدفاع عن الوطن وحفظ كيان الأمة .

(٤) الشعور بأن الأنثى حين الكبر تنفصل من عشيرتها وتتصل بعشيرة أخرى

(وثالثها) القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والعرب تريد بالقنطار المال الكثير ، والمقنطرة مأخوذة منه على سبيل التوكيد ، وقد جرت عادتهم بأن يصفوا الشيء بما يشتق منه مبالغة كما قالوا ألوف مؤلفة ، وظلّ ظليل ، وقيل المقنطرة المضروبة من دنانير ودراهم ، وقيل هى المنضدة فى وضعها .

وهذا التعبير يشعر بالكثرة التى تكون مظنة الافتتان ، والتى تشغل القلب للتمتع بها ، وتستغرق فى تدبيرها الوقت الكثير حتى لا يبقى بعد ذلك منفذ للشعور بالحاجة إلى نصرة الحق والاستعداد لأعمال الآخرة .

ومن ثم كان الأغنياء فى كل الأمم لدى بعثة الرسل أول الكافرين بهم المستكبرين عن تلبية دعوتهم ، وإن أجابوها وآمنوا فهم أقل الناس عملا وأكثرهم بعدا عن هدى الدين ، انظر إلى قوله تعالى « سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا »

وحب المال مما أودع فى غرائز البشر واختلط بلحمهم ودمهم ، وسر هذا أنه وسيلة إلى جلب الرغائب ، وسبيل إلى نيل اللذات والشهوات ، ورغبات الإنسان غير محدودة ، ولذاته لا عدّ لها ولا حصر ، وكلما حصل على لذة طلب المزيد منها ، وما وصل إلى غاية فى جمع المال إلا تاقت نفسه إلى ما فوقها ، حتى لقد يبلغ به النهم فى جمعه أن ينسى أن المال وسيلة لا مقصد ، فيفتنّ فى الوصول إليه الفنون المختلفة ، والطرق التى تعنّ له ، ولا يبالى أمن حلال كسب أم من حرام ؟

روى البخارى ومسلم عن ابن عباس قوله صلى الله عليه وسلم « لو كان لابن آدم

واديان من ذهب لتمنى أن يكون لهما ثالث ، ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب ، ويتوب الله على من تاب .

ولقد أعمت فتنة المال كثيرا من الناس فشغلتهم عن حقوق الله وحقوق الأمة والوطن ، بل عن حقوق من يعاملهم ، بل عن حقوق بيوتهم وعيالهم ، بل عن أنفسهم ، ومنهم من يقصر فى النفقة على نفسه وعياله بالقدر الذى يزرى بمروءته ، فيظهر بمظهر المسترذل بين الناس فى مأكله ومشربه وملبسه ، ومنهم من يثلم شرفه ويفتح ثغرة الطاعنين والقائلين فيه بالحق وبالباطل لأجل المال ، ومن ثم قالوا : (المال ميّال) .

(ورابعها) الخيل المسوّمة ، والمسوّمة هى التى ترعى فى الأودية والقيعان ، يقال سام الدابة : رعاها ، وأسامها : أخرجها إلى المرعى ، كما قال تعالى : « وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ » .

وقال ابن جرير : المسومة المعلمة من السُّومة وهى العلامة . قال النابغة :

بسُمْرٍ كالقداح مسوَّمات　　عليها معشر أشباه جن

وكل من الخيل الراعية التى تقتنى للتجارة ، والمعلمة المطهَّمة التى يقتنيها العظماء والأغنياء — من المتاع الذى يتنافس فيه الناس ويتفاخرون ، حتى لقد يتغالى بعضهم فى ذلك إلى حد هو أشبه بالجنون .

(وخامسها) الأنعام واحدها نعم وهى الإبل والبقر والغنم ، ولا تطلق النعم إلا على الإبل خاصة ، والأنعام مال أهل البادية ومنها تكون ثروتهم ومعايشهم ومرافقهم ، وبها تفاخرهم وتكاثرهم ، وقد امتنّ الله بها على عباده بقوله : « وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ . وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ . وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ » .

(وسادسها) الحرث وهو الزرع والنبات على اختلاف أنواعه ، وعليه قوام حياة الإنسان والحيوان فى البدو والحضر والحاجة إليه أشد من الحاجة إلى الأنواع السالفة، والانتفاع به أتمّ منها ، لكنه أخر عنها ، لأنه لما عم الارتفاق به كانت زينته فى القلوب أقل ، وقلما يكون الانتفاع به صادًّا عن الاستعداد لأعمال الآخرة أو مانعا من نصرة الحق .

وهناك ما هو أعم نفعا وأعظم فائدة فى الحياة وهو الضوء والهواء ، فلا يستغنى عنهما حىّ من الأحياء ، ومع ذلك قلما يلتفت الإنسان إليهما ولا يفكر فى غبطته بهما

(ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب) المتاع ما يتمتع به ، والمآب المرجع من آب يئوب إذا رجع ، أى هذا الذى ذكر من الأصناف الستة المتقدمة هو ما يتمتع به الناس قليلا فى هذه الحياة الفانية ، ويجعلونه وسيلة فى معايشهم ، وسببا لقضاء شهواتهم ، وقد زين لهم حبها فى عاجل دنياهم ، والله عنده حسن المآب فى الحياة الآخرة التى تكون بعد موتهم وبعثهم فلا ينبغى لهم أن يجعلوا كل همهم فى هذا المتاع القريب العاجل بحيث يشغلهم عن الاستعداد لخير الآجل .

فعلى المؤمن ألا يُفتن بهذه الشهوات ، ويجعلها أكبر همه ، والشغل الشاغل له عن آخرته ، فإذا استمتع بها بالقصد والاعتدال ووقف عند حدود الله سعد فى الدارين ووفق لخير الحياتين كما قال : « رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ » .

قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ ؟ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٤) الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا

وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٥) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالْأَسْحَارِ (١٥)

شرح المفردات

النبأ والإنباء لم يردا فى القرآن إلا لما له شأن عظيم كما قاله أبو البقاء فى الكليات ، والتقوى هى الإخبات لله والإعراض عما سواه، والمطهرة الخالية من الشوائب الجسمية والنفسية ، والرضوان (بضم الراء وكسرها) الرضا ، والصبر : حبس النفس عند كل مكروه يشق عليها احتماله ، والصدق يكون فى القول والعمل والوصف ؛ يقال فلان صادق فى قوله ، وصادق فى عمله ، وصادق فى حبه ، والقانتين : أى المداومين على الطاعة والعبادة ، والمستغفرين بالأسحار : أى المصلين وقت السحر .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه زخارف الدنيا وزينتها ، وذكر ما عنده من حسن المآب إجمالا ــ أمر رسوله بتفصيل ذلك المجمل للناس مبالغة فى الترغيب والحث على فعل الخيرات .

الإيضاح

(قل أؤنبئكم بخير من ذلكم) أى قل لقومك وغيرهم : أأخبركم بخير من جميع ما تقدم ذكره من النساء والبنين إلى آخره وجىء بالكلام على صورة الاستفهام لتوجيه النفوس إلى الجواب وتشويقها إليه .

وقوله خير يشعر بأن تلك الشهوات خير فى ذاتها ، ولاشك فى ذلك إذ هى من أجلّ النعم التى أنعم الله بها على الناس ، وإنما يعرض الشر فيها كما يعرض فى سائر نعم الله على عباده كالحواس والعقول وغيرها ، فما مثل المسرف فى حب النساء حتى

يعطى امرأته حق غيرها ، أو يهمل لأجلها تربية ولده إلا مثل من يستعمل عقله فى استنباط الحيل ليبتزّ حقوق الناس ويؤذيهم ، فسلوك الناس فى الانتفاع بالنعم لايدل على أنها هى فى ذاتها شر ولا كون حبها شرا مع القصد والاعتدال والوقوف عند حدود الشريعة .

ثم أجاب عن هـذا الاستفهام على طريق قولك هل أدلك على تاجر عظيم فى السوق يصدق فى المعاملة ، ويرخص السعر ويفى بالوعد ؟ ـ هو فلان فقال :

(للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله) أى للذين أخبتوا إلى ربهم وأنابوا إليه نوعان من الجزاء .

أحدهما جسمانى وهو الجنات وما فيها من النعيم والخيرات ، والأزواج المبرأة من العيوب التى فى نساء الدنيا خَلْقاً وخُلُقاً .

وثانيهما روحانى عقلى وهو رضوان الله الذى لايشوبه سخط ولا يعقبه غضب ، وهو أعظم اللذات كلها فى الآخرة عند المتقين .

وفى الآية إيماء إلى أن أهل الجنة مراتب وطبقات كما ترى ذلك فى الدنيا .

فمنهم من لايفقه لرضوان الله معنى ولا يكون ذلك باعثاً له على فعل الخير وترك الشر ، وإنما يفقه اللذات الحسية التى جرّبها فى الدنيا ، ففى مثلها يرغب .

ومنهم من ارتقى إدراكه ، وعظم قربه من ربه ، فيتمنى رضاه ويجعله الغاية القصوى ، والسعادة التى ليس وراءها سعادة .

وجاء فى معنى هذه الآية قوله تعالى : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » وقوله : « اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ (الزراع) نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا ، وَفِى الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ ، وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ » .

(والله بصير بالعباد) أى أنه تعالى هو البصير بعباده ، الخبير بقرارة نفوسهم ودخائل أحوالهم ، العليم بسرهم ونجواهم ، فلا تخفى عليه خافية من أمرهم ، وهوالمجازى كل نفس بما كسبت من خير أو شر .

وقد ختم سبحانه هذه الآية بتلك الجملة ليحاسب الإنسان نفسه على التقوى ، فليس كل من ادّعاها لنفسه أو تحرك بها لسانه يعد متقيا ، وإنما المتقى من يعلم منه ربه التقوى .

ثم وصف المتقين الذين تتأثر قلوبهم بثمرات إيمانهم ، فتفيض ألسنتهم بالاعتراف بهذا الإيمان حين الدعاء والابتهال فقال :

(الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار) أى إن الذين اتقوا معاصى الله وتضرعوا إليه خاشعين يقولون مبتهلين متبتلين : ربنا إننا آمنا بما أنزلته على رسلك إيمانا يقينيا راسخا فى القلب مهيمناً على العقل له السلطان على أعمالنا البدنية التى لا تتحول عن طاعتك إلا لنسيان أو جهالة كغلبة انفعال يعرض ثم لا يلبث أن يزول ، ثم نقفو التوبة إثره لتمحوه كما أرشدت إلى ذلك بقولك : «إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ» وقوله « وَإِنِّى لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً ثُمَّ اهْتَدَى » .

فاستر اللهم ذنوبنا بعفوك عنها وترك العقوبة عليها ، وادفع عنا عذاب النار إنك أنت الغفور الرحيم ، وقد خصوا هذا العذاب بالمسألة ، لأن من زحزح يومئذ عن النار فقد فاز بالنجاة وحسن المآب .

والخلاصة — أن مرادهم بالأيمان الذى أقروا به ــ هو الإيمان الصحيح الذى تصدر عنه آثاره من ترك المعاصى وفعل الصالحات ، إذ الإيمان اعتقاد وقول وعمل كما أجمع على ذلك السلف ويرشد إليه العقل والعلم بطبيعة البشر .

ثم ذكر من أوصافهم ماامتازوا به من غيرهم وبه استحقوا المثوبة عند ربهم فقال :

(الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار) أى إن المتقين

جمعوا هـذه الصفات التى لـكل منها درجة فى الفضل وشرف ورفعة وبها نالوا هذا الوعد وهى :

(١) الصبر وأكمل أنواعه الصبر على أداء الطاعات وترك المحرمات ، فإذا هبت أعاصير الشهوات وجمحت بالنفس إلى ارتكاب المعاصى ، فلا سبيل لردعها إلا بالصبر فهو الذى يثبت الإيمان، ويقف بها عند الحدود المشروعة، وكذلك هو الحافظ لشرف الإنسان فى الدنيا عند المكاره ، ولحقوق الناس أن تغتالها أيدى المطامع .

وهو كالشرط فى كل ما يذكر بعده من الصدق والقنوت والاستغفار بالأسحار

(٢) الصدق وهو منتهى الكمال ، وحسبك فى بيان فضيلته قوله تعالى : « وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ، لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ » .

(٣) القنوت وهو المداومة على الطاعة والإخبات إلى الله مع الخشوع والخضوع ، وهو لب العبادة وروحها ، وبدونه تكون العبادة بلا روح وشجرة بلا ثمرة .

(٤) الإنفاق للمال فى جميع السبل التى حث عليها الدين ، سواء أكانت النفقة واجبة أم مستحبة ، فالإنفاق فى أعمال البر جميعاً مما حث عليه الشارع وندب إليه .

(٥) الاستغفار بالأسحار : أى التهجد فى آخر الليل وهو الوقت الذى يطيب فيه النوم ويشق القيام ، وتكون النفس فيه أصفى والقلب أفرغ من الشواغل .

والاستغفار المطلوب ما يقرن بالتوبة النصوح ، والعمل وفق حدود الدين ، ولا يكفى الاستغفار باللسان مع الإدمان على فعل المنكر ، فإن المستغفر من الذنب وهو مصرّ عليه كالمستهزئ بربه ، ولا يغتر بمثل هذا الاستغفار إلا جاهل بدينه ، أو غرٌّ فى معاملته لربه ، ومن ثم أثر عن بعض الصوفية قوله : إن استغفارنا يحتاج إلى استغفار .

شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلاَمُ ، وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِنْ بَعْدِ مَاجَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ ، وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللهِ فَإِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (١٩) فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ ، أَأَسْلَمْتُمْ ؟ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ، وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاَغُ وَاللهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (٢٠)

شرح المفردات

يقال شهد الشيء إذا حضره وشاهده كما قال : « مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ » وقال « فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ » والشهادة بالشيء الإخبار به عن علم إما بالمشاهدة الحسية ، وإما بالمشاهدة المعنويةوهى الحجة والبرهان ، وأولو العلم هم أهل البرهان القادرون على الإقناع ، وهم يوجدون فى هذه الأمة وفى جميع الأمم السالفة ، بالقسط أى بالعدل فى الدين والشريعة وفى الكون والطبيعة ، والدين له فى اللغة عدة معان : منها الجزاء ، والطاعة والخضوع ، ومجموعة التكاليف التى بها يدين العباد لله ، ـ وما يكلف به العباد يسمى شرعا باعتبار وضعه و بيانه للناس ، ودينا باعتبار الخضوع وطاعة الشارع ، وملة باعتبار أنها أملّت وكتبت ـ والإسلام يأتى بمعنى الخضوع والاستسلام ، و بمعنى الأداء ، يقال أسلمت الشيء إلى فلان إذا أديته إليه، و بمعنى الدخول فى السلم أى الصلح والسلامة ، وتسمية الدين الحق إسلاما يناسب كل هذه المعانى وأولها أوفقها بالتسمية ، يرشد إلى ذلك قوله تعالى « وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً » وحاجوك

جادلوك ، وأسلمت أى أخلصت ، والأميون مشركو العرب واحدهم أمىّ نسبوا إلى الأم لجهلهم كأنهم على الفطرة ، البلاغ أى التبليغ للناس .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه جزاء المتقين ، وشرح أوصافهم التى استحقوا بها هذا الجزاء ــ ذكر هنا أصول الإيمان وأسسه .

الإيضاح

(شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط) أى بين سبحانه وحدانيته بنصب الدلائل التكوينية فى الآفاق والأنفس ، وإنزال الآيات التشريعية الناطقة بذلك ، والملائكة أخبروا الرسل بهذا وشهدوا شهادة مؤيدة بعلم ضرورى وهو عند الأنبياء أقوى من جميع اليقينيات ، وأولو العلم أخبروا بذلك وبينوه وشهدوا به شهادة مقرونة بالدلائل والحجج ، لأن العالم بالشىء لا تعوزه الحجة عليه .

وقوله بالقسط أى بالعدل فى الاعتقاد فالتوحيد هو الوسط بين إنكار الإله والشرك به ، والعدل فى العبادات والآداب والأعمال ، فعدل بين القوى الروحية والبدنية ، ، فأمر بشكره فى الصلاة وغيرها لترقية الروح وتزكية النفس وأباح كثيرا من الطيبات لحفظ البدن وتربيته ، ونهى عن الغلو فى الدين والإسراف فى حب الدنيا ، وبالعدل فى الأحكام فى نحو قوله : « إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ والْإِحْسَانِ » وقوله « وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْلِ » .

كما جعل سنن الخليقة قائمة على أساس العدل ، فمن نظر فى هذه السنن ونظمها الدقيقة تجلى له عدل الله فيها على أتم ما يكون وأوضحه .

فقيامه تعالى بالقسط فى كل هذا برهان على صدق شهادته تعالى فإن وحدة النظام فى هذا العالم تدل على وحدة واضعه .

ثم أكد كونه منفردا بالألوهية وقائما بالعدل بقوله :

(لا إله إلا هو العزيز الحكيم) فإن العزة إشارة إلى كمال القدرة ، والحكمة إيماء إلى كمال العلم ، والقدرة لا تتم إلا بالتفرد والاستقلال ، والعدالة لا تكمل إلا بالاطلاع على المصالح والأحوال ، ومن كان كذلك فلا يغلبه أحد على ما قام به من سنن القسط ، ولا يخرج من الخليقة شىء عن حكمته البالغة .

(إن الدين عند الله الإسلام) أى إن جميع الملل والشرائع التى جاء بها الأنبياء روحها الإسلام والانقياد والخضوع ، وإن اختلفت فى بعض التكاليف وصور الأعمال وبه كان الأنبياء يوصون ، فالمسلم الحقيقى من كان خالصا من شوائب الشرك ، مخلصا فى أعماله مع الإيمان من أى ملة كان ، وفى أى زمان وجد ، وهذا هو المراد بقوله عز اسمه « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » .

ذاك أن الله شرع الدين لأمرين :

(١) تصفية الأرواح ، وتخليص العقول من شوائب الاعتقاد بسلطة غيبية للمخلوقات ، بها تستطيع التصرف فى الكائنات ، لتسلم من الخضوع والعبودية لمن هم من أمثالها .

(٢) إصلاح القلوب بحسن العمل وإخلاص النية لله وللناس .

وأما العبادات فإنما شرعت لتربية هذا الروح الخلق ، ليسهل على صاحبه القيام بسائر التكاليف الدينية .

أخرج ابن جرير عن قتادة قال : الإسلام شهادة أن لا إله إلا الله والإقرار بما جاء من عند الله ، وهو دين الله تعالى الذى شرع لنفسه ، وبعث به رسله ، ودل عليه أولياءه لا يقبل غيره ، ولا يجزى إلا به .

وخطب على كرم الله وجهه قال : الإسلام هو التسليم ، والتسليم هو اليقين ،

واليقين هو التصديق ، والتصديق هو الإقرار ، والإقرار هو الأداء ، والأداء هو العمل ، ثم قال : إن المؤمن أخذ دينه عن ربه ، ولم يأخذه عن رأيه ، إن المؤمن يعرف إيمانه فى عمله ، والكافر يعرف كفره بإنكاره ، أيها الناس دينَكم دينَكم ، فإن السيئة فيه خير من الحسنة فى غيره ، إن السيئة فيه تغفر ، وإن الحسنة فى غيره لا تقبل .

(وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم) أى وما خرج أهل الكتاب من الإسلام الذى جاء به أنبياؤهم على نحو ما فصلناه آنفاً، وصاروا مذاهب وشيعاً يقتتلون فى الدين ـ والدين واحد لا مجال فيه للاختلاف والاقتتال ـ إلا بسبب البغى وتجاوز الحدود من الرؤساء ، ولولا بغيهم ونصرهم مذهباً على مذهب وتضليلهم من خالفهم بتفسيرهم نصوص الدين بالرأى والهوى وتأويل بعضه أو تحريفه ـ لما حدث هذا الاختلاف .

والتاريخ شهيد بأن الملوك والأحبار هم الذين جعلوا الدين المسيحى مذاهب ينقض بعضها بعضا ، وجعلوا أهله شيعا يفتك بعضهم ببعض ، فآريوس وأتباعه الذين دَعَوْا إلى التوحيد بعد فشوّ الشرك ، قد حكم عليهم المجمع الذى ألفه الملك قسطنطين سنة ٣٢٥ م بالإلحاد و إحراق كتبهم وتحريم اقتنائها ، ولما انتشرت تعاليمه فيما بعد ، حكم تيودوسيوس الثانى بإبادة الآريوسية بقانون رومانى صدر ٦٢٨ م ، و بقيت مذاهب التثليث تتطاحن و يغالب بعضها بعضا .

والعبرة من هذا القصص أن نبتعد عن الخلاف فى الدين والتفرق فيه إلى شيع ومذاهب كما فعل من قبلنا ، ولكن وا أسفا وقعنا فيما وقع فيه السالفون ، وتفرقنا طرائق قدداً ، وأصابنا من الخذلان والذل بسبب هذا التفرق ما لا نزال نئنّ منه ، ونرجو أن يشملنا الله بعفوه ورحمته ، ويمدنا بروح من عنده ، فيسعى أهل الإيمان الصادق فى نبذ الاختلاف والشقاق ، والعودة إلى الوحدة والاتفاق ، حتى يعود

المسلمون إلى سيرتهم الأولى فى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين ، ومن تبعهم بإحسان .

(ومن يكفر بآيات الله فإن الله سريع الحساب) أى ومن يكفر بآيات الله الدالة على وجوب الاعتصام بالدين ووحدته وحرمة الاختلاف والتفرق فيه، و يترك الإذعان لها ـ فالله يجازيه و يعاقبه على ما اجترح من السيئات ، والله سريع الحساب .

والمراد بآيات الله هنا هى آياته التكوينية فى الأنفس والآفاق ويدخل فى ترك الإذعان لها صرفها عن وجهها لتوافق مذاهب أهل الزيغ والإلحاد والتشريعية التى أنزلها على رسله .

(فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) أى فإن جادلك أهل الكتاب أو غيرهم ـ وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو اليهود فى المدينة إلى ترك ما أحدثوه فى دينهم وتعودوه من التحريف والتأويل والرجوع إلى حقيقة الدين و إسلام الوجه لله والإخلاص له ـ بعد أن أقمت لهم البراهين والبينات ، وجئتهم بالحق ـ فقل لهم : أقبلت بعبادتى على ربى مخلصاً له ، معرضاً عما سواه ، أنا ومن اتبعنى من المؤمنين .

والخلاصة — أن لا فائدة من الجدل مع مثل هؤلاء، لأن الجدل لا يكون إلا فيما فيه خفاء ، أما وقد قامت الأدلة ، و بطلت شبهات الضالين ، فهو حينئذ مكابرة وعناد ، ولا يستحق منك إلا الإعراض ، وعدم إضاعة الوقت سدى .

(وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟) أى قل لليهود والنصارى ومشركى العرب ـ وخص هؤلاء بالذكر مع أن البعثة عامة ، لأنهم هم الذين خوطبوا أولا بالدعوة ـ أأسلمتم كما أسلمتُ بعد أن وضحت لكم الحجة ، وجاءكم من البينات ما يوجبه و يقتضيه ، أم أنتم مصرون على كفركم وعدم ترككم للعناد ؟

ومثل هذا مثل من يلخص مسألة لسائل ، ولا يدع طريقاً من طرق البيان إلا سلكه ، ثم يقول له : أفهمتها ؟

وفى ذلك تعيير لهم بالبلادة وجمود القريحة وتوبيخ لهم على العناد وقلة الإنصاف

(فإن أسلموا فقد اهتدوا) أى فإن أسلموا هذا الإسلام الذى هو روح الدين ، فقد فازوا بالحظ الأوفر ونجوا من مهاوى الضلال ، فإن إسلامهم على هـذا الوجه يستتبع اتباعك فيما جئت به ، لأن من هذه حاله فهو مستنير القلب ، متجه إلى طلب الحق ، فهو أقرب الناس إلى قبوله متى لاح له وظهر .

(وإن تولوا فإنما عليك البلاغ) أى وإن أعرضوا عن الاعتراف بما سألتهم عنه فلن يضيرك ذلك شيئا ، إذ ما عليك إلا البلاغ ، وقد أديته على أتم وجه وأكمله .

(والله بصير بالعباد) فهو أعلم بمن طُمِس على قلبه ، وجُعِل على بصره غشاوة ، فوقع اليأس من اهتدائه ، وبمن يرجى له الهداية والتوفيق بعد البلاغ .

إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ ، وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ ، فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٢١) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٢)

شرح المفردات

المراد بالذين يكفرون هم اليهود خاصة ، وقوله بغير حق أى بغير شبهة لديهم ، وحبط العمل بطل ، والبشارة والبشرى الخبر السار تنبسط له بشرة الوجه ، واستعمالها فى الشر جاء على طريق التهكم والسخرية .

المعنى الجملى

بعد أن بين فى الآيات السابقة حقيقة الدين الذى يقبله الله ، وأنه الإسلام لوجهه تعالى ، وذكر أن اختلاف أهل الكتاب فيه إنما نشأ من البغى بعد أن جاءهم

العلم ، ثم ذكر محاجة أهل الكتاب جميعا ومشركى العرب للنبى صلى الله عليه وسلم ثم أردفه ببيان أن إعراضهم عن الحق لايضيره شيئا ، فما عليه إلا البلاغ .

انتقل هنا إلى الكلام عن اليهود خاصة ، وعيّر الحاضرين منهم بما فعله السالفون من آبائهم ، لأن الأمة فى تكافلها ، وجرى لاحقها على أثر سابقها كأنها شخص واحد على ما سلف مثله فى سورة البقرة .

وقد يكون هذا كلاما مع اليهود الذين فى عصر التنزيل ، فإنهم هموا بقتل النبى صلى الله عليه وسلم زمن نزول الآية ، إذ السورة مدنية ، كما هم بذلك قومه الأميون بمكة من قبلُ ، وكان كل من الفريقين حربا له ، وعلى هـذا فالآية فيمن سبق ذكرهم من أهل الكتاب والأميين ، فكل منهما قاتله وقاتل الذين يأمرون بالقسط من المؤمنين .

الإيضاح

(إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق) أى إن الذين كفروا بآيات الله من اليهود كما تشهد بذلك كتبهم قبل القرآن ، وكان دأبهم قتل الأنبياء كزكريا ويحيى عليهما السلام بغير شبهة لديهم .

وفى ذكر هذا الوصف ما يزيد بشاعته وانقطاع العذر الذى ربما لجئوا إليه ، ويقرر أن العبرة فى مدح الشىء وذمه تدور مع الحق وجودا وعدما لا مع الأشخاص والأصناف .

أخرج ابن جرير عن أبى عبيدة بن الجراح قال : قلت يا رسول الله : أى الناس أشد عذابا يوم القيامة ؟ قال : رجل قتل نبيا أو رجل أمر بمنكر ونهى عن معروف ثم قرأ الآية ، ثم قال : يا أبا عبيدة قتلت بنو إسرائيل ثلاثة وأربعين نبيا أول النهار فى ساعة واحدة ، فقام مائة رجل وسبعون رجلا من عباد بنى إسرائيل فأمروا من قتلوهم بالمعروف ونهوهم عن المنكر فقتلوا جميعا من آخر النهار من ذلك اليوم .

(ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس) أى ويقتلون الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدل فى كل شىء ويجعلونه روح الفضائل وقوامها .

ومرتبة هؤلاء فى الإرشاد تلى مرتبة الأنبياء ، وأثرهم فى ذلك يلى أثرهم ، لأن جميع الناس ينتفعون بهدى الأنبياء بقدر استعدادهم ، والحكماء ينتفع بهم الخاصة المستعدون لفهم العلوم العالية ، والنظريات العويصة .

انظر إلى الفارق بين دعوة النبى صلى الله عليه وسلم وقد جبّت وثنية العرب فى الزمن القليل ، ودعوة فلاسفة اليونان إلى التوحيد وقد عجزت عن مثل ذلك أو ما يقاربه ، إذ لم يستجب لهم فيها فى الزمن الطويل إلا القليل من طلاب الفلسفة .

وسر هذا أن دعوة النبى يؤيدها الله بروح من عنده ، وتتعدد مظاهرها باعتبار المخاطبين فقد جاء فى الحديث « أمرت أن أخاطب الناس على قدر عقولهم » وأشارت إلى ذلك الآية الكريمة « ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ » فالحكمة يدعى بها العقلاء وأرباب الفكر والنظر ، والموعظة يدعى بها العامة وذوو الأحلام الضعيفة ، والجدل بالتى هى أحسن لمن هم فى المرتبة الوسطى ، لم يرتقوا إلى ذروة الحكماء ، ولم ينزلوا إلى الدرجة السفلى ، فلا ينقادون إلى الموعظة كسابقيهم ، فلا بد لهم من الحسنى فى الجدل ، ومخاطبتهم على قدر عقولهم .

والحكماء ليس لديهم إلا طريق واحد فى الدعوة إلى الحق والفضيلة ، والمحور الذى تدور عليه هو حب العدل والإنصاف فى الأفكار والأخلاق والآداب ، سواء أكان الحكيم الذى يدعو ينتسب إلى دين أم لا ، إذ هو إنما يبنى دعوته على الإقناع من طريق العقل على حسب ما وصل اليه علمه ، مع الإخلاص والصدق .

فالإقدام على قتل مثل هؤلاء جناية على العقل ، ومقت للعدل ، وكفى بذلك جرما ، وأَعْظِمْ به خسرا .

(فبشرهم بعذاب أليم) أى أنبئ هؤلاء بالعذاب الأليم فى الدنيا والآخرة ، ومن أحق بهذا العذاب من أولئك الطغاة الذين أسرفوا فى الشر وقتلوا النبيين أو كانت نفوسهم كنفوس من قتلوا ولم يمنعهم عن القتل إلا العجز ؟ كما قال تعالى : « وإذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ - يحبسوك - أَوْ يَقْتُلُوكَ » .

(أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة) أى إن هؤلاء الذين فعلوا تلك القبائح يبطل الله أعمالهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنهم لم ينالوا بها حمدا ولا ثناء من الناس ، إذ هم كانوا على ضلال وباطل ، ولعنهم الله وهتك أستارهم وأبدى ما كانوا يخفون من قبائح أعمالهم على ألسن أنبيائه ورسله ، وذلك هو حبوطها فى الدنيا ، وأما فى الآخرة فلا ثواب لها ، بل قد أعد لأهلها العذاب الأليم ، والخلود فى الجحيم .

(وما لهم من ناصرين) ينصرونهم من بأس الله وعذابه ، وقد نفى الله عنهم الناصر الذى يدفع العذاب عنهم لأنهم لما قتلوا النبيين والذين يأمرون بالقسط وهم ناصرو الحق ، ولم يوجد فيهم ناصر يحول بينهم وبين قتلهم - جوزوا بعذاب لا ناصر لهم منه ولا معين .

وقد جعل الله وعيدهم ثلاثة أصناف .

(١) اجتماع أسباب الآلام والمكاره وهو العذاب الأليم .

(٢) زوال أسباب المنافع بحبوط الأعمال فى الدنيا والآخرة ، فى الدنيا بإبدال المدح بالذم والثناء باللعن ، وفى الأخرة بما أشار اليه قوله : « وقَدِمْنَا إلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

(٣) دوام هذا العذاب وهو ما أشار إليه بقوله (وما لهم من ناصرين) .

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٣) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ

قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤) فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ (٢٥)

شرح المفردات

ألم تر استفهام لتعجيب النبي صلى الله عليه وسلم من حالهم ، والذين أوتوا هم اليهود والنصيب الحظ ، والكتاب التوراة ، ليحكم بينهم أى ليفصل بين اليهود والداعى لهم وهو النبي صلى الله عليه وسلم ، والتولى الإعراض بالبدن ، والإعراض يكون بالقلب ، والافتراء الكذب واليوم هو يوم الحساب والجزاء ، ما كسبت أى ما عملت من خير أو شر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر مقابح أعمال اليهود من توليهم عند الدعوة وقتلهم الأنبياء والآمرين بالقسط ، ليبين لرسوله أن إعراضهم عن دعوته ليس ببدع ولا غريب فيهم ، فذلك ديدنهم ودأبهم مع الأنبياء السالفين ، فلا تذهب نفسه عليهم حسرات ، ولا يحزنه إعراضهم — انتقل إلى خطاب رسوله ذاكرا أعجب شأن من شئونهم فى الدين لذلك العهد وهو أنهم لا يقبلون التحاكم إلى كتابهم ، وإذا دعوا إلى ذلك أعرضوا ، ثم أردفه بذكر سبب هذا وهو أنهم اغتروا باتصال نسبهم بالأنبياء ، وظنوا أن ذلك كاف فى نجاتهم ، فأصبحوا لا يبالون بارتكابهم للمعاصى ولا باجتراح الآثام ، ثم رد عليهم بأن الجزاء على الأعمال لا على مقدار الأنساب رفعة وضعة .

أخرج ابن إسحاق عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المدراس — مدرسة اليهود لدراسة التوراة — على جماعة من يهود ، فدعاهم إلى الله ، فقال له نعيم بن عمرو والحارث بن زيد : على أى دين أنت يا محمد ؟ قال على ملة

إبراهيم ودينه ، قالا فإن إبراهيم كان يهوديا ، فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم : فهلمّوا إلى التوراة ، فهى بيننا و بينكم ، فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) أى ألم تر إلى هؤلاء الذين تستحق أن تعجب لهم من اليهود ـ كيف يعرضون عن العمل بالكتاب الذى يؤمنون به إذا لم يوافق أهواءهم ؟ (وهذا دأب أرباب الديانات فى طور انحلالها واضمحلالها) .

وقد كانوا يتحاكمون إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهم ماضو العزيمة على قبول حكمه ، حتى إذا جاء على غير ما أحبوا خالفوه ونكصوا على أعقابهم ، فقد زنى بعض أشرافهم وحكموه فحكم بينهم بمثل حكم كتابهم فتولوا وأعرضوا عن قبول حكمه ، إذ هم إنما فزعوا إليه ليخفف عنهم .

وقوله نصيبا من الكتاب هو ما يحفظونه من الكتاب الذى أوحاه الله إليهم وقد فقدوا سائره ، وهم لا يحسنون فهمه ولا يلتزمون العمل به .

فهذه الكتب الخمسة التى تسمى بالتوراة وتنسب إلى موسى عليه السلام ، لا يوجد دليل على أنه هو الذى كتبها ، إذ ليست محفوظة حتى يمكن الحكم عليها ، بل قام الدليل لدى بعض الباحثين من الأوربيين على أنها كتبت بعده بخمسمائة سنة ، كما لا تعرف اللغة التى كتبت بها أول مرة ، ولا دليل على أن موسى كان يعرف اللغة العبرية ، وإنما كانت لغته المصرية ، فأين التوراة التى كتبها بتلك اللغة ، ومن ترجمها ؟ .

(ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون) أى إنهم إذا دعوا إلى حكم الكتاب تتولى طائفة منهم بعد تردد وجذب ودفع ، وقد كان من دواعى الإيمان به ألا يترددوا فى إجابة الدعوة إليه ، إذ هو أصل دينهم ، وعليه بنيت عقيدتهم .

وفى هذا إيماء إلى أن هذا التولى لم يكن عارضا يرجى زواله ، بل ذلك دأبهم فى عامة أحوالهم .

وإنما جيء بكلمة (فريق) للإشارة إلى أن هذا التولى لم يكن وصفهم جميعاً فقد كان منهم طائفة يهدون بالحق ، ومنهم من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم .

(ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات) أى إن ذلك الإعراض والتولى إنما حدث لهم بسبب هـذا القول الذى رسخ اعتقادهم له ، فلم يبالوا معه بارتكاب المعاصى والذنوب .

وخلاصة ذلك — أنهم استخفوا بالعقوبة واستسهلوها اتكالا على اتصال نسبهم بالأنبياء ، واعتمادا على مجرد الانتساب إلى هـذا الدين ، واعتقدوا أن هذا كاف فى نجاتهم .

ومن استخف بوعيد الله زعما منه أنه غير نازل حتما بمن يستحقه ـ تزول من نفسه حرمة الأوامر والنواهى ، فيقدم بلا مبالاة على انتهاك حرمات الدين ، ويتهاون فى أداء الطاعات ، وهكذا شأن الأمم حين تفسق عن دينها ولا تبالى باجتراح السيئات ، وقد ظهر ذلك فى اليهود ثم فى النصارى ثم فى المسلمين ، فإن كثيرا من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم المرتكب لكبائر الإثم والفواحش إما أن تدركه الشفاعات أو تنجيه الكفارات ، وإما أن يمنح العفو والمغفرة إحساناً من الله وفضلا فإن فاته ذلك عذب على قدر خطيئته ثم يخرج من النار ويدخل الجنة ، وأما المنتسبون إلى سائر الأديان فهم خالدون فى النار مهما كانت أعمالهم .

والقرآن قد ناط أمر الفوز والنجاة من النار بالإيمان الذى ذكر الله علاماته وصفات أهله ، وبالعمل الصالح والخلق الفاضل ، وترك الفواحش ما ظهر منها وما بطن كما جعل المغفرة لمن لم تحط به خطيئته .

أما الذين صار همهم إرضاء شهواتهم ، ولم يبق للدين سلطان على نفوسهم فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

والمراد بالأيام المعدودات هى أربعون يوما وهى مدة عبادتهم العجل ، وقال الأستاذ الإمام : إنه لم يثبت فى عدد هذه الأيام شىء .

(وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون) أى وقد أطمعهم وخدعهم ما كانوا يفترون على الله من نحو قولهم: نحن أبناء الله وأحباؤه ، وقولهم : إن آباءنا الأنبياء يشفعون لنا وإن الله وعد يعقوب ألا يعذب أبناءه إلا تحِلّة القسم (مدة قصيرة) .

والخلاصة — أن مثل هذا التحديد للعقوبة من الافتراء الذى كان منشأ غرورهم إذ هو مما لا يعرف بالرأى ولا بالفكر، بل بالوحى من الله ، والعهد منه كما قال فى سورة البقرة « وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيَّامًا مَعْدُودَةً ، قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ، أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ ؟ » .

(فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه) أى فكيف يصنعون إذا جمعناهم للجزاء فى يوم لا ريب فيه ؟ .

وفى هذا الاستفهام تهويل لما سيكون ، واستعظام لما أعدّ لهم ، وأنهم سيقعون فيما لا حيلة فى دفعه والخلاص منه ، وأن ماحدّثوا به أنفسهم وسهلوه عليها بتعللاتهم وأباطيلهم ـ تطمّع بما لا يكون .

(ووفيت كل نفس ما كسبت) أى ورأت كل نفس ما عملت من خير أو شر محضرا لا نقص فيه ، ثم جوزيت عليه ، وكان منشأ سعادتها أو شقائها ، ولا يفيدهم الانتماء إلى دين معين أو مذهب خاص ، إذ لا امتياز لشعب على شعب ، وإن تسمى بعضهم بشعب الله ، ولا بين الأشخاص وإن لقبوا أنفسهم بأبناء الله ، فإن الجزاء يومئذ إنما يكون بما فى داخل الصدور ، لا بما فى خارجها ، وبما أحدثته الأعمال فيها من صفات حسنة أو قبيحة .

(وهم لا يظلمون) فهناك العدل الكامل ، فلا ينقص أحد من جزاء ما كسب ولا يزاد فى عذابه شىء ، والعبرة حينئذ بتأثير العمل فى النفس ، فإذا كان أثره السيئ قد أحاط بها ، واستغرق وجدانها ، كانت خالدة فى النار ، لأن عملها لم يدع للإيمان

أثراً صالحاً يعدّها لدار الكرامة ، وإن لم يبلغ هذا القدر بأن غلب عليها العمل الصالح ، أو استوى الأمران ، جوزيت على كل ، على حسب درجته ومقداره .

قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ ، تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ ، وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ ، وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ ، وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ ، بِيَدِكَ الْخَيْرُ ، إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ، وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ ، وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٢٧)

شرح المفردات

الملك السلطة والتصرف فى الأمر ، بيدك الخير أى بقدرتك التى لايقدر قدرها الخير كله تتصرف به أنت وحدك ، الولوج الدخول ، والإيلاج الإدخال ، ويراد به زيادة زمان النهار فى الليل والعكس بالعكس على حسب المطالع والمغارب فى أكثر البلدان .

المعنى الجملى

كان الكلام فى حال النبى صلى الله عليه وسلم مع المخاطبين بالدعوة من المشركين وأهل الكتاب ، فالمشركون كانوا ينكرون النبوة لرجل يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، كما أنكر ذلك أمثالهم على الأنبياء من قبل ، وأهل الكتاب كانوا ينكرون أن يكون نبى من غير آل إسرائيل ، فجاءت هذه الآية تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم فى مقام عناد المنكرين ، ومكابرة الجاحدين ، وتذكيراً له بقدرته تعالى على نصره وإعلاء دينه ، وكأنه يقول له : إذا تولى هؤلاء الجاحدون عنك ولم يقنعهم

البرهان ، فظل المشركون على جهلهم ، وأهل الكتاب فى غرورهم ، فعليك أن تلجأ إلى الله تعالى وترجع إليه بالدعاء والثناء ، وتتذكر أنه بيده الأمر يفعل ما يشاء .

روى الواحدى عن ابن عباس وأنس بن مالك أنه لما افتتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وعد أمته ملك فارس والروم ، فقال المنافقون واليهود : هيهات هيهات من أين لمحمد ملك فارس والروم ، هم أعز وأمنع من ذلك ، ألم يكف محمدا مكة والمدينة حتى يطمع فى ملك فارس والروم ؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية .

الإيضاح

(قل اللهم مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء) أى أنت ربنا سبحانك لك السلطان الأعلى والتصرف التام فى تدبير الأمور ، وإقامة ميزان النظام العام فى الكائنات ، فأنت تؤتى الملك من تشاء من عبادك ، إما تبعاً للنبوة كما وقع لآل إبراهيم ، وإما بالاستقلال على حسب السنن الحكيمة الموصلة إلى ذلك واتباع الأسباب الاجتماعية بتكوين القبائل والشعوب ، وتنزع الملك ممن تشاء بانحراف الناس عن الطريق السوى الحافظ للملك من العدل وحسن السياسة وإعداد القوة بقدر المستطاع ، كما نزعه من بنى إسرائيل وغيرهم بظلمهم وفسادهم .

(وتعز من تشاء وتذل من تشاء) للعزة آثار وللذل مثلها ، فالعزيز يكون نافذ الكلمة كثير الأعوان مالكا للقلوب بجاهه أو علمه النافع للناس ، مع بسطة فى الرزق وإحسان إلى الخلق .

والذليل يرضى بالضيم والمهانة ، ويضعف عن حماية الحريم ، ومقاومة العدو المهاجم ، ولا عز أعظم من عز الاجتماع والتعاون على نشر دعوة الحق ومقاومة الباطل إذا سار المجتمعون على السنن التى سنها الله لعباده ، فأعدوا لكل أمر عدته ، ولا عبرة بكثرة عدد الأمة وقلته فى تكوين العزة واجتماع القوة ، فقد كان المشركون فى مكة واليهود ومنافقو العرب فى المدينة يغترون بكثرتهم على النبى صلى الله عليه وسلم

والمؤمنين ، ولكن ذلك لم يغن عنهم شيئاً كما قال تعالى : « يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ، وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ » .

والمشاهدة أكبر دليل على صدق هذا ، انظر إلى الشعوب الشرقية على كثرة عدد كل شعب منها ، كيف سادها وتحكم فيها ملوك الغرب على قلة عددهم ، وما ذاك إلا لفشو الجهل وتفرق الكلمة والتخاذل فى مقاومة الغاصب ، بل ممالأة بعضهم له إذا جاش بصدر بعضهم مقاومته ، والسعى فى إزالة طغيانه ، وتحكمه فى الرقاب والبلاد .

(بيدك الخير) أى بقدرتك الخير كله تتصرف به أنت وحدك على حسب مشيئتك ، ولا يملكه أحد سواك ، وخص الخير بالذكر مع أن كلا من الخير والشر بيده وقدرته كما يدل على ذلك قوله :

(إنك على كل شيء قدير) لأن المناسب للمقام ذكر الخير فقط ، فإنه ما أغرى أولئك الجاحدين وجعلهم يستهينون بالدعوة إلا فقر الداعى وضعف أتباعه وقلة عددهم ، فأمره الله أن يلجأ إلى مالك الملك الذى بيده الإعزاز ، وأن يذكره بأن الخير كله بيده ، فلا يعجزه أن يعطى نبيه والمؤمنين من السيادة و بسطة السلطان ما وعدهم ، وأن يؤتيهم من الخير ما لا يدور بخلد أولئك الذين استضعفوهم كما قال : « وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ » .

(تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) أى إنك تدخل طائفة من الليل فى النهار ، فيقصر الليل من حيث يطول النهار ، وتدخل طائفة من النهار فى الليل ، فيطول هذا من حيث يقصر ذاك .

والخلاصة — أنك بحكمتك فى خلق الأرض مكوّرة ، وجعل الشمس بنظام خاص تزيد فى أحد الملوَيْن (الليل والنهار) ما يكون سبباً فى نقص الآخر .

فليس بالمنكر بعد هذا أن تؤتى النبوة والملك من تشاء كمحمد وأمته من العرب وتنزعهما ممن تشاء كبنى إسرائيل ، فما مثل تصرفك فى شئون الناس إلا مثل تصرفك فى الليل والنهار .

(وتخرج الحى من الميت) كالعالم من الجاهل والمؤمن من الكافر (والحياة والموت معنويان) والنخلة من النواة والإنسان من النطفة ، والطائر من البيضة (والحياة والموت حسيان)

(وتخرج الميت من الحى) كالجاهل من العالم ، والكافر من المؤمن ، والنواة من النخلة ، والبيضة من الطائر .

وقد أثبت علماء الطب أن فى النطفة والبيضة والنواة حياة ، ولكن هذه حياة اصطلاحية لأهل هذا الفن ، لا فى العرف العام الذى جاء به التنزيل .

قال الدكتور المرحوم عبد العزيز باشا اسماعيل فى كتابه الإسلام والطب الحديث: قيل فى تفسير ذلك كإنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان ؛ ولكن النطفة هى حيوانات حية ، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حى من حى فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير والله أعلم ، فإذا قيل : إن معنى الآية خلق آدم من طين أى خلق حى من ميت فهذا صحيح ، ولكنه ليس المقصود من الآية والله أعلم ، لأنها تشير إلى أن الخلق شىء عادى يحصل يوميا بدليل ورودها بعد (تولج الليل فى النهار وتولج النهار فى الليل) بالتعاقب ، وهذا شىء اعتيادى فالله يضرب لنا مثلا نشاهده يوميا .

والتفسير الحقيق هو (إخراج الحى من الميت) كما يحصل يوميا من أن الحى ينمو بأكل أشياء ميتة ، فالصغير يكبر جسمه بتغذية اللبن أو غيره ، والغذاء شىء ميت ،ولا شك فى أن القدرة على تحويل الشىء الميت الذى يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه ، هو أهم علامة تفصل الجسم الحى من الجسم الميت وقد كتب علماء الحيوان فقالوا : إن النعجة مثلا تتغذى بالنبات وتحوله إلى

لحمها ، وهذه أهم علامة على أنها حية ، وكذا الطفل يتغذى باللبن الميت ويحوله إلى جسمه الحى .

وأما إخراج الميت من الحى ، فهو الإفرازات مثل اللبن (وإن شئت فلحوم الحيوانات أيضا والنبات) فإن اللبن سائل ليس فيه شىء حى ، بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات حية ، وهذه تخرج من الحيوان الحى ، وهكذا يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى والله أعلم بمراده اهـ .

وقد استعمل القرآن لفظ الحياة فيما يقابل الموت ، سواء أكانت الحياة حسية أم معنوية وسواء أكان لفظ الميت بما يعيش ويحيا مثله أم لا .

وهذه العبارة ـ يخرج الحى من الميت ـ إلى آخره مثال ظاهر لكونه تعالى مالك الملك يؤتى الملك من يشاء ، فقد أخرج من العرب الأميين سيد المرسلين ، إذ أعدهم بارتقاء الفكر واستقلاله ، وبقوة الإرادة لأن يكونوا أقوى الأمم استعدادا لقبول هذا الدين الجديد الذى هدم بناء الاستعباد ، وأقام على أنقاضه صرح الاستقلال حين كان بنو إسرائيل وغيرهم يرسفون فى قيود التقليد ، وأغلال الاستبداد من الملوك والحكام .

وما الإعطاء لمن أعطى ، ونزع ما نزع إلا بإقامة السنن التى عليها مدار النظام ، وبها الإبداع والإحكام .

(وترزق من تشاء بغير حساب) أى أن الأمر كله بيده وليس أحد فوقه يحاسبه ، فهو القادر على أن ينزع الملك من العجم ويذلهم ، ويؤتيه العرب ويعزهم وذلك أهون شىء عليه .

وقد ورد لفظ الحساب فى القرءان على ثلاثة أوجه .

(١) بمعنى التعب كما فى هذه الآية .

(٢) بمعنى العدد كما فى قوله « إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ »

(٣) بمعنى المطالبة كما فى قوله « فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ » .

لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (٢٨) قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٩) يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَرًا ، وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا ، وَيُحَذِّرُكُمُ اللهُ نَفْسَهُ ، وَاللهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ (٣٠)

شرح المفردات

الأولياء واحدهم ولىّ وهو النصير ، تقاة أى اتقاء وخوفا ، ويحذركم أى يخوفكم ، والأمد المدة لها حد محدود .

المعنى الجملى

بعد أن نبه الله نبيه والمؤمنين إلى الالتجاء إليه ، مع الاعتراف بأن بيده الملك والعز والسلطان المطلق فى تصريف الكون فيعطى من يشاء ويمنع من يشاء — أرشدهم فى هذه الآيات إلى أن من الغرور أن يعتز أحد بغير الله ، وأن يلتجىء إلى غير جنابه .

وقد روى أرباب السير أن بعض الذين كانوا يدخلون فى الإسلام يغترون بعزة الكافرين وقوتهم ، فيوالونهم ويركنون إليهم ، وليس هذا بالمستغرب بل هو أمر طبيعى فى البشر .

وروى عن ابن عباس أنه قال : كان الحجاج بن عمرو وابن أبى الحُقيق وقيس ابن زيد من اليهود يباطنون نفرا من الأنصار يفتنونهم عن دينهم ، فقال رفاعة

ابن المنذر وعبد الله بن جبير وسعد بن خيثمة لأولئك النفر ، اجتنبوا هؤلاء اليهود فأبى أولئك النفر إلا مباطنتهم (ملازمتهم) فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين) أى لايصطفِ المؤمنون الكافرين فيكاشفوهم بالأسرار الخاصة بالشئون الدينية ويقدموا مصلحتهم على مصلحة المؤمنين ، إذ فى هذا تفضيل لهم عليهم وإعانة للكفر على الإيمان .

وخلاصة هذا — نهى المؤمنين عن موالاة الكافرين لقرابة أو صداقة جاهلية أو جوار أو نحو ذلك من أسباب المصادقة والمعاشرة ، بل ينبغى أن يراعوا ما هم عليه مما يقتضيه الإسلام من الحب والبغض لمصلحة الدين فحسب ، ومن ثم تكون موالاة المؤمنين أجدى لهم فى دينهم من موالاة الكافرين .

فإن كانت الموالاة والمحالفة لمصلحة المسلمين فلا مانع منها ، فقد حالف النبى صلى الله عليه وسلم خزاعة وهم على شركهم ، كما لا مانع من ثقة المسلم بغيره وحسن معاملته فى أمور الدنيا .

(ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء) أى ومن يتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فيما يضر مصلحة الدين فليس من ولاية الله فى شىء ، أى فليس بمطيع له ولا ناصر لدينه ، وصلة الإيمان بينه وبين ربه تكون منقطعة ، ويكون من الكافرين كما جاء فى الآية الأخرى « وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ » .

(إلا أن تتقوا منهم تقاة) أى إن ترك موالاة المؤمنين للكافرين حتم لازم فى كل حال إلا فى حال الخوف من شىء تتقونه منهم ، فلكم حينئذ أن تتقوهم بقدر ما يتقى ذلك الشىء ، إذ القاعدة الشرعية « أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح » .

وإذا جازت موالاتهم لاتقاء الضرر فأولى أن تجوز لمنفعة المسلمين ، وإذا

فلا مانع من أن تحالف دولة إسلامية دولة غير مسلمة لفائدة تعود إلى الأولى إما بدفع ضرر أو جلب منفعة ، وليس لها أن توالبها فى شىء يضر بالمسلمين ، ولا تختص هذه الموالاة بحال الضعف ، بل هى جائزة فى كل وقت .

وقد استنبط العلماء من هذه الآية جواز التّقِيَّة بأن يقول الإنسان أو يفعل ما يخالف الحق لأجل توقى ضرر من الأعداء يعود إلى النفس أو العرض أو المال .

فمن نطق بكلمة الكفر مكرها وقاية لنفسه من الهلاك ، وقلبه مطمئن بالإيمان لا يكون كافرا بل يعذر كما فعل عمّار بن ياسر حين أكرهته قريش على الكفر فوافقها مكرها وقلبه ملىء بالإيمان وفيه نزلت الآية « مَنْ كَفَرَ بِاللهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ ، وَلَـكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ » .

وكما عذر الصحابى الذى قال له مسيلمة : أتشهد أنى رسولى الله ؟ قال نعم فتركه وقتل رفيقه الذى سأله هذا السؤال فقال إنى أصم (ثلاثا) فقدّمه وقتله ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أما هذا المقتول فمضى على يقينه وصدقه ، فهنيئاً له وأما الآخر فقبل رخصة الله ، فلا تبعة عليه .

وهى من الرخص لأجل الضرورات العارضة ، لا من أصول الدين المتبعة دائما ، ومن ثم وجب على المسلم الهجرة من المكان الذى يخاف فيه من إظهار دينه ويضطر فيه إلى التقية ، ومن كمال الإيمان ألا يخاف فى الله لومة لائم كما قال تعالى « فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ » وقال : « فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ » .

وكان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه يتحملون الأذى فى سبيل دعوة الدين ويصبرون عليه .

ويدخل فى التقية مداراة الكفرة والظلمة والفسقة وإلانة الكلام لهم والتبسم فى وجوههم وبذل المال لهم لكف أذاهم وصيانة العرض منهم ، ولا يعد هذا من الموالاة المنهى عنها ، بل هو مشروع ، فقد أخرج الطبرانى قوله صلى الله عليه وسلم

« ما وقى به المؤمن عرضه فهو صدقة » وعن عائشة قالت : استأذن رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا عنده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بئس ابن العشيرة أو أخو العشيرة » ثم أذن له فألان له القول ، فلما خرج قلت يارسول الله قلتَ ما قلت ثم ألنت له القول ، فقال يا عائشة : « إن من شر الناس من يتركه الناس اتقاء فحشه » رواه البخارى .

وروى قوله صلى الله عليه وسلم « إنا لنكشر (نبتسم) فى وجوه قوم و إن قلوبنا لتقليهم » (تبغضهم) .

(و يحذركم الله نفسه) أى عقاب نفسه ، وفائدة ذكر (نفسه) الإيماء إلى أن الوعيد صادر منه تعالى وهو القادر على إنفاذه ولا يعجزه شىء عنه .

وفى ذلك تهديد عظيم لمن تعرض لسخطه بموالاة أعدائه ، لأن شدة العقاب على حسب قوة المعاقب وقدرته .

(و إلى الله المصير) أى و إلى جزاء الله مرجع الخلق ، فيجزى كلا بعمله .

(قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله و يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) أى إنه سبحانه يعلم ما تنطوى عليه نفوسكم إذ توالون الكافرين أو توادونهم أو تتقون منهم ما تتقون ، فإن كان ذلك يميل بكم إلى الكفر جازاكم عليه ، و إن كانت قلوبكم مطمئنة بالإيمان غفر لكم ولم يؤاخذكم على عمل لا جريمة فيه على الدين ولا على أهله ، وهو إنما يجازيكم على حسب علمه المحيط بما فى السموات والأرض ، لأنه الخالق لها كما قال : « أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ » .

(والله على كل شىء قدير) فهو يقدر على عقوبتكم ، فلا تجسروا على عصيانه وموالاة أعدائه ، إذ ما من معصية خفيّةً كانت أو ظاهرة إلا وهو مطلع عليها قادر على العقاب عليها .

(يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها و بينه أمداً بعيداً) أى احذروا يوم تجد كل نفس عملها من الخير حاضراً لديها ،

فيكون ذلك غبطة وسروراً لها ، وتنعم بما أحسنت ، وتبتئس المسيئة وتغتم بما أساءت وتود أن ما عملت من السوء كان بعيدا عنها لم تره حتى لا تؤاخذ بجريرته .

ومعنى كونه محضرا أن فائدته ومنفعته تكون حاضرة لها .

(ويحذركم الله نفسه) أى احذروا من سخط الله بترجيح جانب الخير وعمله ، على ما يزينه لكم الشيطان من عمل السوء وتوبوا إلى الله جميعا أيها المؤمنون لعلكم تفلحون .

(والله رءوف بالعباد) قال الحسن البصرى : ومن رأفته أن حذرهم نفسه ، وعرفهم كمال علمه وقدرته ، لأنهم إذا عرفوه حق المعرفة دعاهم ذلك إلى طلب رضاه واجتناب سخطه اه .

ومن رأفته أيضا أن جعل الفطرة الإنسانية ميالة بطبعها إلى الخير، مبغضة لما يعرض لها من الشر، وأن جعل أثر الشر فى النفس قابلا للمحو بالتوبة والعمل الصالح.

قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣١) قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٣٢)

شرح المفردات

المحبة ميل النفس إلى الشيء لكمال أدركته فيه ، فيدعوها ذلك إلى التقرب إليه ، يغفر لكم أى يتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة والاعتقادات الباطلة ، فإن تولوا أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قبل هذا جلال سلطانه وعظيم كماله ، ثم نهى المؤمنين عن موالاة أعدائه وأكد ذلك بالوعيد الشديد ، ذكر هنا أن طريق محبته متابعة رسوله وامتثال

أوامره التى جاء بها ، واجتناب ما نهى عنه ، وبذا يكون المرء أهلا لمحبته ، ومستحقا لغفران ذنوبه .

روى أن هذه الآية نزلت حين دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم كعب ابن الأشرف ومن تابعه من اليهود إلى الإيمان ، فقالوا « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ » فأمر الله نبيه أن يقول لهم : إنى رسول الله إليكم أدعوكم إليه ، فإن كنتم تحبونه فاتبعونى وامتثلوا أمرى يحببكم الله ويرض عنكم .

الإيضاح

(قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم) أى قل لهم : إن كنتم تريدون طاعة الله وترغبون فى العمل بما يقرب إليه طلباً للثواب فيما عنده ، فاتبعونى بامتثال ما نزل به الوحى منه إلىَّ ، يرض الله عنكم ويتجاوز عما فرط منكم من الأعمال السيئة ، والاعتقادات الباطلة ، ويبوئكم فى جوار قدسه ، إذ فى هذا الاتباع اعتقاد الحق والعمل الصالح ، وهما يزيلان من النفس آثار المعاصى والرذائل ، ويمحوان منها ظلمة الباطل ، والمغفرة أثر ذلك .

وهذا حجة على من يدعى محبة الله فى كل زمان وأعماله تكذب ما يقول ، إذ كيف يجتمع حب مع جهل بالمحبوب وعدم العناية بأوامره ونواهيه ، فهو كما قال الورَّاق :

تعصى الإله وأنت تظهر حبه ‏ ‏ هذا لعمرى فى القياس بديع
لو كان حبك صادقا لأطعته ‏ ‏ إن المحب لمن يحب مطيع

(والله غفور رحيم) لمن تحبب إليه بطاعته ، وتقرب إليه باتباع نبيه ، إذ فى هذا تزكية للنفس بصالح العمل ، فيغفر لها ما فرط من زلاتها ، ويتجاوز عن سيئاتها .

روى أنه لما نزل قوله (قل إن كنتم تحبون الله ...) قال عبد الله بن أبىّ : إن محمدا يجعل طاعته كطاعة الله تعالى ، ويأمرنا أن نحبه كما أحبَّ النصارى عيسى فنزل قوله :

(قل أطيعوا الله والرسول) أى قل لهم : أطيعوا الله باتباع أوامره ، واجتناب نواهيه ، وأطيعوا رسوله باتباع سنته ، والاهتداء بهديه .

وفى هذا إرشاد إلى أن الله إنما أوجب عليكم متابعته لأنه رسوله ، لا كما يقول النصارى فى عيسى .

(فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين) أى فإن أعرضوا ولم يجيبوا دعوتك غرورا بدعواهم أنهم أبناء الله وأحباؤه ـ فإن الله لايحب الكافرين ، الذين تصرفهم أهواؤهم عن النظر الصحيح فى آياته ، وعما أنزله على رسوله ، فلا يرضى عنهم ، بل يبعدهم عن جوار قدسه وحظيرة عزته ، ويسخط عليهم يوم يرضى عن المؤمنين به المطيعين لنبيه ، المتبعين لما جاء به من عند ربه

إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَى وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ ، وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَى ، وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ ، وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ، كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا ، قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا ؟ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (٣٧)

شرح المفردات

الاصطفاء أخذ ما صفا من الشيء كالاستصفاء ، والذرية فى أصل اللغة الصغار من الأولاد ، ثم استعملت عرفا فى الصغار والكبار ، وللواحد والكثير ، والنذر ما يوجبه الإنسان على نفسه ، والمحرر المخصص للعبادة والخدمة لا يشتغل بشىء آخر ، والتقبل أخذ الشيء على وجه الرضا والقبول ، أعيذها بك أى أمنعها وأجيرها بحفظك وأصل العوذ الالتجاء إلى سواك والتعلق به ، يقال عاذ بفلان إذا استجار به ، والرجيم أى المرجوم المطرود من الخير ، ومريم بالعبرية خادم الرب ، وتقبل الشيء وقبله أى رضيه لنفسه ، وأنبتها أى رباها بما يصلح أحوالها ، وكفلها زكريا أى وجعل زكريا كافلا لها ، وزكريا من ولد سليمان بن داود عليهما السلام ، والمحراب هنا هو المسمى عند أهل الكتاب بالمذبح وهو مقصورة فى مقدم المعبد لها باب يصعد إليه بسلم ذى درج قليلة يكون من فيه محجوبا عمن فى المعبد ، أنى لك هذا أى من أين لك هذا والأيام أيام قحط وجدب ، بغير حساب أى بغير عد ولا إحصاء لكثرته .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن الدين الحق هو الإسلام والتوحيد ، وأن اختلاف أهل الكتاب فيه إنما هو للبغى والحسد ، وأن الفوز والفلاح منوط باتباع الرسول صلى الله عليه وسلم وطاعته ـ ذكر هنا من أحبهم واصطفاهم وجعل منهم الرسل الذين يبينون للناس طريق محبته ، وهى الإيمان به مع طاعته والعمل بما يرضيه .

الإيضاح

(إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين) أى إن الله اختار هؤلاء وجعلهم صفوة العالمين بجعل النبوة والرسالة فيهم .

فأولهم آدم وهو أبو البشر اصطفاه ربه واجتباه كما قال تعالى : « ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى » وكان من ذريته النبيون والمرسلون .

وثانيهم نوح وهو الأب الثانى للبشر ، وقد حدث على عهده ذلك الطوفان العظيم فانقرض من السلائل البشرية من انقرض ، ونجا هو وأهله فى الفلك العظيم ، وجاء من ذريته كثير من النبيين والمرسلين ، ثم تفرقت ذريته وانتشرت فى البلاد وفشت فيهم الوثنية .

فظهر إبراهيم صلوات الله عليه نبيا مرسلا ، ثم تتابع من بعده النبيون والمرسلون من ذريته وآله كاسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وكان من أرفع أولاده قدرا وأنبههم ذكرا آل عمران ، وهم عيسى وأمه مريم بنة عمران ، وينتهى نسبها إلى يعقوب صلوات الله عليه ، وختمت النبوة بولد اسماعيل محمد صلوات الله وسلامه عليه .

(ذرية بعضها من بعض) أى إن الألين ذرية واحدة متشعب بعضها من بعض ، فآل إبراهيم وهم إسماعيل وإسحق وأولادهما من نسل إبراهيم ، وإبراهيم من نسل نوح ، ونوح من آدم .

وآل عمران وهم موسى وهرون وعيسى وأمه من ذرية إبراهيم ونوح وآدم .

وقد يكون المراد بكون بعضها من بعض أنهم أشباه وأمثال فى الخير والفضيلة التى كانت سببا فى اصطفائهم ، على نحو قوله تعالى « الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ » .

وهؤلاء الذرية هم الذين ذكرهم الله فى سياق الكلام على إبراهيم بقوله : « وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا ، وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ ، وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَرُونَ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُحْسِنِينَ ، وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِنَ الصَّالِحِينَ ، وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ

وَلُوطًا، وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ، وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » .

(والله سميع عليم . إذ قالت امرأة عمران رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محررا فتقبل منى إنك أنت السميع العليم) أى إنه تعالى كان سميعا لقول ابنة عمران عالما بنيتها حين ناجت ربها وهى حامل بنذر ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس ، وبثنائها عليه حين المناجاة بأنه السميع لدعائها وضراعتها ، العليم بصحة نيتها وإخلاصها ، وهذا يستدعى تقبل الدعاء ، ورجاء الإجابة له تفضلا منه وإحسانا .

وقد جاء ذكر عمران فى هذه الآيات مرتين ، فعمران الأول أبو موسى عليه السلام ، والثانى أبو مريم وبينهما نحو ألف وثمانمائة سنة على وجه التقريب .

(فلما وضعتها قالت رب إنى وضعتها أنثى) أى فلما وضعت بنتا تحسرت وتفجعت على ما رأت من خيبة رجائها وانقطاع حبل أملها ، فإنها نذرت تحرير ما فى بطنها لخدمة بيت المقدس والانقطاع للعبادة ، والأنثى لا تصلح لذلك .

(والله أعلم بما وضعت) أى والله أعلم بمكانة الأنثى التى وضعتها ، وأنها خير من كثير من الذكور .

وفى هذا تعظيم لهذه المولودة وتفخيم شأنها ، ودفع ما يتوهم من قولها الدال على انحطاطها عن مرتبة الذكور .

(وليس الذكر كالأنثى) أى وليس الذكر الذى طلبت وتمنت كالأنثى التى وضعت ، بل هى خير مما كانت ترجوه من الذكران .

(وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) أى وإنى غير راجعة عما انتويته من خدمتها بيت المقدس وإن كانت أنثى فإن لم تكن جديرة بسدانته فلتكن من العابدات القانتات ، وإنى أجيرها بحفظك ورعايتك من الشيطان المطرود من الخير .

روى الشيخان عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كل بنى آدم

يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها » والمراد أن الشيطان يطمع فى إغواء كل مولود بحيث يتأثر منه إلا مريم وابنها ، فإن الله تعالى عصمهما ببركة هذه الاستعاذة ، ونحوه حديث شق الصدر وغسل القلب بعد استخراج حظ الشيطان منه إذ معناه أنه لم يبق للشيطان نصيب من قلبه صلى الله عليه وسلم ولو بالوسوسة .

(فتقبلها ربها بقبول حسن) أى فتقبل مريم من أمها ورضى أن تكون محررة للعبادة وخدمة بيته على صغرها وأنوثتها ، وكان التحرير لا يجوز إلا لغلام عاقل قادر على خدمة البيت .

(وأنبتها نباتا حسنا) أى رباها ونماها بما يصلح أحوالها ، كما يربى النبات فى الأرض الصالحة بعد تعهد الزارع إياه بالسقى وقلع ما يضعفه من النبات الطفيلى .

وهذه التربية تشمل التربية الروحية والجسدية ، فقد نمى جسدها فكانت خير لداتها جسما وقوة ، كما نماها صلاحا وعفة وسداد رأى .

(وكفلها زكريا) أى ضمها إليه وجعله كافلا لمصالحها .

(كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا) أى كلما دخل زكريا محرابها وجد ألوانا من الطعام لم تكن توجد فى مثل تلك الأحيان ، روى أنه كان يجد عندها فاكهة الصيف فى الشتاء وفاكهة الشتاء فى الصيف ، وليس لدينا مستند صحيح من كتاب أو سنة يؤيد هذه الروايات الإسرائيلية .

(قال يا مريم أنى لك هذا؟) أى قال من أين لك هذا والأيام أيام جدب وقحط .

(قالت هو من عند الله) الذى يرزق الناس جميعا بتسخير بعضهم لبعض ، وقد جرى العرف فى كل زمان بإضافة الرزق إلى الله ، وليس فى هذا دلالة على أنه من خوارق العادات .

وسيق هذا القصص لتقرير نبوة النبي صلى الله عليه وسلم ودحض شبه أهل الكتاب الذين احتكروا فضل الله وجعلوه خاصا بشعب إسرائيل ، ودحض شبهة المشركين الذين أنكروها لأنه بشر .

وبيان هذا أن الله اصطفى آدم وسخر له مافى الأرض من حيوان ونبات وجماد واصطفى نوحا وجعله أبا البشر الثانى ، واصطفى إبراهيم وآله على البشر ، والعرب أهل الكتاب يعرفون ذلك ، والأولون يفخرون بأنهم من ولد إسماعيل وعلى ملة إبراهيم ، والآخرون يفخرون باصطفاء آل عمران من بنى إسرائيل حفيد إبراهيم ، وهؤلاء وأولئك يعلمون أنه اصطفى هؤلاء بمحض مشيئته تفضلا منه وإحسانا ، وإذا فما الذى يمنع من أن يصطفى محمدا صلى الله عليه وسلم على العالمين كما اصطفى أولئك ، فالله يصطفى من خلقه من يشاء ، وقد اصطفاه وجعله هاديا للناس مخرجا لهم من ظلمات الشرك والجهل إلى نور الحق واليقين ، ولم يكن أثر غيره من آل إبراهيم وآل عمران فى الهداية أظهر من أثره .

هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِى مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٨) فَنَادَتْهُ الْمَلاَئِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّى فِى الْمِحْرَابِ أَنَّ اللهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللهِ وَسَيِّدًا وَحَصُوراً وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ (٣٩) قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِى غُلاَمٌ وَقَدْ بَلَغَنِىَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِى عَاقِرٌ ؟ قَالَ كَذَلِكَ اللهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (٤٠) قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِى آيَةً ، قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ، وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِىِّ وَالْإِبْكَارِ (٤١)

شرح المفردات

الذرية الولد ، وتقع على الواحد والكثير ، والطيب ما تستطاب أفعاله وأخلاقه ، سميع الدعاء أى مجيبه كما يقال : سمع الله لمن حمده ، إذ من لم يجب فكأنه لم يسمع ،

وكلمة الله عيسى عليه السلام ، والسيد الرئيس يسود قومه ، والحصور من الحصر وهو الحبس أى يحبس نفسه ويمنعها مما ينافى الفضل والكمال ، من الصالحين أى من أصلابهم ، والصلاح صفة تجمع الخير كله ، أنى يكون لى؟ أى كيف يحصل لى ، بلغنى الكبر ، أى أدركنى كبر السن وأثر فى ، عاقر أى عقيم لا تلد ، آية أى علامة أعرف بها ميقات الحمل إذا حدث لأتلقى النعمة بالشكر ، ألا تكلم الناس أى لا تستطيع الكلام ، والرمز الإشارة بيد أو رأس أو غيرهما ، وسمى الرمز كلاما لأنه يفيد مايفيده الكلام ويدل على مادل عليه ، والعشى الوقت من الزوال إلى الغروب ، والإبكار من طلوع الفجر إلى وقت الضحى .

الإيضاح

(هنالك دعا زكريا ربه قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة إنك سميع الدعاء) أى فى هذا المكان الذى خاطبته فيه مريم بما ذكر ، دعا ربه بهذا الدعاء ، فإنه حين رأى حسن حالها ومعرفتها بالله تمنى أن يكون له ولد صالح مثلها هبة وفضلا من عنده ، فرؤية الأولاد النجباء مما تشوق نفس الناظرين إليهم وتجعلهم يتمنون أن يكون لهم مثلهم .

(فنادته الملائكة) أى ناداه جبريل عليه السلام كما قال به جمهور من المفسرين ، كما يقال خرج فلان على بغال البريد ، وركب السفن ، وهو إنما ركب بغلا واحدا وسفينة واحدة ، ويقال ممن سمعت هذا الخبر؟ فتقول من الناس ، وأنت إنما سمعته من واحد .

ويرى ابن جرير فى جماعة آخرين أن المراد جماعة الملائكة إذ لا ضرورة تدعو إلى التأويل ، وبهذا قال قتادة وعكرمة ومجاهد .

(وهو قائم يصلى فى المحراب) أى نادته الملائكة على الفور وهو يدعو بذلك الدعاء الذى فصل فى سورة مريم .

(أن الله يبشرك بيحيى) أى نادته بهذه البشرى ، وقوله بيحيى أى بولد اسمه يحيى كما قال فى سورة مريم « إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى » وهو معرّب يوحنا ، ففى إنجيل متى : إنه يدعى يوحنا المعمدانى ، لأنه كان « يعمّد » الناس فى زمانه .

والاسم العربى من مادة الحياة وإليه يشير القائل فى الرثاء :

وسميته يحيى ليحيا فلم يكن لأمر قضاه الله فى الناس من بد

فهو يشعر بأنه يحيا حياة طيبة بأن يكون وارثا لوالده ولآل يعقوب ما كان فيهم من الفضل والنبوة .

(مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين) أى مصدقا بعيسى الذى ولد بكلمة الله (كن فيكون) لا بالسنة العامة فى توالد البشر ، وهى أن يكون الولد من أب وأم ، وهو سيد يفوق قومه والناس جميعا فى الشرف والصلاح وعمل الخير ، وهو حصور مانع نفسه من شهواتها ، وسيكون نبيا يوحى إليه إذا هو بلغ سن النبوة ، ناشئا من أصلاب قوم صالحين ، ولا غرو فهو من أصلاب الأنبياء صلوات الله عليهم .

روى أنه مر وهو طفل بصبيان يلعبون فدعوه إلى اللعب ، فقال : ما للعب خلقت

ثم سأل ربه سؤال استبعاد وتعجب أنّى يكون له ولد وهو وامرأته على تلك الحال

(قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟) قال الأستاذ الإمام : إن زكريا لما رأى ما رأى من نعم الله على مريم من كمال إيمانها ، وحسن حالها ، واعتقادها أن المسخر لها ، والرازق لما عندها هو من يرزق من يشاء بغير حساب ، أخذ عن نفسه وغاب عن حسه ، وانصرف عن العالم وما فيه ، واستغرق قلبه فى ملاحظة فضل الله ورحمته ، فنطق بهذا الدعاء فى حال غيبته ، وإنما يكون الدعاء مستجابا إذا جرى به اللسان بتلقين القلب ، حال استغراقه فى الشعور بكمال الرب .

ولما عاد من سفره فى عالم الوحدة إلى عالم الأسباب ومقام التفرقة ، وقد أوذن

بسماع ندائه واستجابة دعائه ـ سأل ربه عن كيفية تلك الاستجابة ، وهى على غير السنة الكونية ، فأجابه بقوله :

(قال كذلك الله يفعل ما يشاء) أى قال تعالى بتبليغ ملائكته : كذلك الله يفعل ما يشاء ، فمتى شاء أمرا أوجد له سببه أو خلقه بغير الأسباب المعروفة ، فلا يحول دون مشيئته شىء ، ففوِّض إليه الأمر ولا تسأل عن الكيفية ، فلا سبيل لك للوصول إلى معرفتها .

(قال رب اجعل لى آية) أى قال : رب اجعل لى علامة تدلنى على الحمل ، وقد سأل ذلك استعجالا للسرور قاله الحسن البصرى ، وقيل : ليتلقى تلك النعمة بالشكر حين حصولها ، ولا يؤخره حتى يظهر ظهورا معتادا .

(قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزاً) أى علامة ذلك ألا تقدر على تكليم الناس ، بل تعجز عن خطابهم بحصر يعترى لسانك إذا أردته ، ثلاثة أيام متوالية مع لياليها ، إلا بإشارة بيد أو رأس أو نحوهما ، ولا تعجز عن ذكر الله وتسبيحه ، لتكون المدة كلها مشغولة بالذكر قضاء لحق الشكر .

(واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والإبكار) أى واذكره ذكرا كثيرا فى أيام الحُبْسة شكرا له ، وسبحه فى الصباح والمساء .

وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ (٤٢) يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ (٤٣) ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ (٤٤)

شرح المفردات

الاصطفاء الأول قبولها محررة لخدمة بيت المقدس ، وكان ذلك خاصا بالرجال ، والتطهير يعم التطهير الحسى كعدم الحيض والنفاس وبذلك كانت أهلا لملازمة المحراب وهو أشرف مكان فى المعبد ، والتطهير المعنوى كالبعد عن سفساف الأخلاق وذميم الصفات ، والاصطفاء الثانى بما اختصت به من ولادة نبى من غير أن يمسها رجل ، وهو اصطفاء لم يكن قد تحقق بالفعل ، بل هى مهيأة ومعدة له ، وفيه شهادة ببراءتها مما قذفها به اليهود ، والقنوت الطاعة مع الخضوع ، والسجود التذلل ، والركوع الانحناء والمراد لازمه وهو التواضع والخشوع فى العبادة ، والوحى جاء فى القرآن :

(١) لكلام جبريل للأنبياء كما قال تعالى : « نُوحِى إِلَيْهِمْ » .

(٢) وللإلهام كما قال تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى » .

(٣) ولإلقاء المعنى المراد فى النفس كما قال تعالى : « بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا » .

(٤) وللإشارة كما قال تعالى : « فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا » .

فالوحى تعريف الموحى إليه بأمر خفى من إشارة أو كتابة أو غيرهما ، والأقلام القداح المبرية وتسمى السهام، والأزلام التى يضربون بها القرعة ويقامرون بها ، ويختصمون أى يتنازعون فى كفالتها .

المعنى الجملى

هذا عود على بدء فيما يتعلق باصطفاء آل عمران ، إثر ذكر طرف من فضائل بعض أقاربهم أعنى زكريا ويحيى اقتضى المقام ذكره كما علمت ذلك مما سلف .

الإيضاح

(وإذ قالت الملائكة) المراد بالملائكة جبريل عليه السلام بدليل قوله فى سورة مريم : « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا » وكلام جبريل معها لم يكن وحياً إليها فإن الله يقول : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلاَّ رِجَالاً نُوحِى

إِلَيْهِمْ » وإنما هو إلهام بما لها من المكانة عند الله ، وبما يجب عليها من الشكر له بدوام القنوت والطاعة له ، وذلك مما يزيدها محافظة على الكرامة ، وتعلقا بالكمال وتباعدا من النقص .

(يا مريم إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين) أى إن الله اختار خدمتك لبيت المقدس ، وبرأك من العيوب الحسية والمعنوية ، واختصك بولادة نبى دون أن يمسسك رجل ، وفضلك على جميع النساء فى كل الأعصار ، ويؤيده قوله صلى الله عليه وسلم « سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسية امرأة فرعون » ، أو المراد نساء زمانها ويؤيده ما أخرجه ابن عساكر عن ابن عباس أنه صلى الله عليه وسلم قال : « كمل من نساء العالمين أربع : مريم وآسية امرأة فرعون وخديجة وفاطمة » .

وبعد أن بين اختصاصها بهذه المزايا والفضائل أوجب عليها طاعته شكرا لهذه النعم فقال :

(يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين) أى أطيعى ربك وتذللى له وصلى مع المصلين فى المعبد وقد كانت ملازمة لمحرابها .

(ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك) أى هذا الذى قصصناه عليك من أخبار مريم وزكريا ، من الأخبار التى لم تشهدها أنت ولا أحد من قومك ، ولم تقرأها فى كتاب ، ولا علمكها معلم ، بل هى وحى نوحيه إليك على يد الروح الأمين ، لتكون دلالة على صحة نبوتك ، وإلزاما لمن يحاجك من الجاحدين المعاندين .

(وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم) أى وما كنت حاضرا لديهم حين يضربون بسهامهم القرعة ، وينظرون ليعلموا أيهم يكون كافلا لمريم بوساطة هذا الاقتراع ، وقد قرعهم زكريا فكان كافلها .

(وما كنت لديهم إذ يختصمون) أى وما كنت شاهدا تنازعهم وتخاصمهم فى كفالتها ، ولم يتفقوا عليها إلا بعد القرعة ، والمتنازعون كانوا من الخواص وأهل

الفضل والدين ، ولم يكن ذلك إلا لشدة رغبتهم فى القيام بشأنها وكفاية مهامها ، إما لأن عمران كان رئيسا لهم فأرادوا مكافأته قياما ببعض ما يجب له من الحقوق ، وإما لأنهم وجدوا فى بعض كتب الدين أنه سيكون لها ولابنها شأن عظيم ، وإما لأنهم رأوا فى ذلك القيام بواجب دينى إذ كانت محررة لخدمة بيت العبادة .

وقد جاءت هذه الآية عقب هذه القصة لبيان أنه صلى الله عليه وسلم لم يقرأ أخبار القوم لأنه أمى ، ولم يروها سماعا عن أحد كما يعترف بذلك منكرو نبوته ، لأنه نشأ بين قوم أميين ، فلم يبق له طريق للعلم إلا الوحى أو المشاهدة ، والوحى ينكرونه ، فلا سبيل بعدئذ إلا المشاهدة التى نفاها على سبيل التهكم لاستحالتها .

ونظير هـذه الآية قوله عقب قصة نوح عليه السلام « تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هذا » وقوله بعـد قصة موسى وشعيب « وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ » .

والجاحدون من أهل الكتاب يقولون فيما وافق فيه القرآن كتبهم : إنه مأخوذ منها ، وفيما خالفها إنه ليس بصحيح لأنه خالفها ، وفيما لم يوجد فيها إنه غير صحيح لأنه لم يذكر فيها ، وهـذا من المكابرة التى لا تغنى حجة لرد خصم على خصم ، والمسلمون يقولون إن ما جاء به القرآن هو الحق للأدلة القائمة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وحفظ كتابه ونقله بالتواتر الصحيح ، وما جاء فيه مخالفاً لما فى الكتب السابقة يعد مصححاً لأغلاطها لانقطاع أسانيدها ، حتى إن أعظمها وأشهرها وهى الأسفار التى تنسب إلى موسى عليه السلام لا يعرف كاتبها ، ولا الزمن الذى كتبت فيه ، ولا اللغة التى كتبت بها أولا .

إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥)

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قالتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ، قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٤٩) وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ، وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ (٥٠) إِنَّ اللهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ، هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ (٥١)

شرح المفردات

المسيح لفظ معرب من العبرانى وأصله مشيحا ، وعيسى معرب يسوع بالعبرانية ، والوجيه ذو الجاه والكرامة ، والمهد مقر الصبي حين رضاعه ، والكهل من تجاوز الثلاثين إلى الأربعين ، الكتاب الكتابة والخط ، والحكمة العلم الصحيح الذى يبعث الإرادة إلى نافع العمل ، ويقف بالعامل على نهج الصراط المستقيم لما له من بصر بفقه الأحكام وسر التشريع ، والتوراة كتاب موسى وقد كان المسيح عليما به يبين أسراره لقومه ويحتج عليهم بنصوصه ، والإنجيل هو الكتاب الذى أوحى إليه به ، والخلق التصوير والإبراز على مقدار معين لا الإنشاء والاختراع ،

والهيئة الصورة ، والأكمه الذى يولد أعمى ، والأبرص هو الذى به برص أى بياض فى الجلد يُتطير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قصة مريم أردفها بقصص عيسى عليه السلام ، وجاء بقصص زكريا بينهما اعتراضاً تقريرا لقصص مريم وتنبيها إلى أنه وحده كاف فى الدلالة على صدق من أنزل عليه .

الإيضاح

(إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم) أى إن الملائكة بشرت مريم بهذا الولد الصالح حين بشرتها باصطفاء الله إياها ، وتطهيره لها ، وأمرتها بعبادته ودوام شكره .

والمراد من الملائكة هنا جبريل لقوله فى سورة مريم « فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا » وذكر بلفظ الجمع لأنه رئيسهم ، وقوله بكلمة من الله أى بكلمة التكوين المعبر عنها بقوله سبحانه « إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وقد خص المسيح بإطلاق الكلمة عليه وإن كان كل شىء قد خلق بكلمة التكوين ، لأنه لما فقد فى تكوينه وعلوق أمه به ما جعله الله سبباً للعلوق فى العادة ، وهو تلقيح ماء الرجل لما فى الرحم من البويضات التى يتكون منها الجنين ــ أضيف إلى الله وأطلقت الكلمة على هذا المكوّن إيذاناً بذلك ، بخلاف الأشياء الأخرى فإنها تنسب فى العرف إلى الأسباب العادية .

وأطلق عليه المسيح وهو لقب الملك عندهم ، لما مضت به تقاليدهم من مسح الكاهن كل من يتولى الملك بالدهن المقدس ، ويعبرون عن تولية الملك بالمسح ، وعن الملك بالمسيح .

والمعروف لديهم أن أنبياءهم السالفين بشروهم بمسيح يظهر فيهم ، وأنه ملك يعيد إليهم ما فقدوا من السلطان فى الأرض ، فحين ظهر عيسى وسمى بالمسيح آمن به قوم وقالوا إنه هو الذى بشر به الأنبياء ، واليهود يعتقدون أن البشارة لما يأت تأويلها بعدُ .

وإنما قيل ابن مريم مع كون الخطاب لها ، إشارة إلى أنه ينسب إليها ، إذ ليس له أب .

(وجيها فى الدنيا والآخرة) فوجاهته فى الدنيا لما له من المكانة فى القلوب والاحترام فى النفوس ، فمنزلته فى نفوس المؤمنين به لا تعدلها منزلة أخرى ، وما جاء به من الإصلاح قد بقى أثره بعد ، وهذه الوجاهة أجل شأناً من وجاهة الأمراء والملوك الذين يحترمون لدفع أذاهم واتقاء شرهم ، أو لمداهنتهم والتزلف إليهم رجاء شىء مما فى أيديهم من متاع الحياة ، وهذه وجاهة صورية لا أثر لها فى النفوس إلا الكراهة والبغضاء .

ووجاهته فى الآخرة بكونه ذا مكانة علية ومنزلة رفيعة يراه الناس فيها ويعلمون قربه من ربه .

(ومن المقربين) عند الله يوم القيامة ، فالناظر إليه حينئذ يعتقد ما له من القرب والزلفى عنده .

(ويكلم الناس فى المهد وكهلا) أى أنه يكلم الناس حال الطفولة وحال الكهولة وفى هذا بشارة بأنه يعيش حتى يكون رجلا سويا ، قال ابن عباس : كان كلامه فى المهد لحظة بما قصه الله علينا ، ثم لم يتكلم حتى بلغ أوان الكلام .

والنصارى تزعم أنه عليه السلام لم يتكلم فى المهد ، ولم ينطق ببراءة أمه صغيرا ، وعاش ثلاثين سنة ، واليهود تقذف أمه بيوسف النجار .

والخلاصة — أنه يكلم الناس طفلا فى المهد دلالة على براءة أمه مما قذفها

به المفترون عليها ، وحجة على نبوته ، وبالغا كبيرا بعد أن يرسله الله وينزل عليه وحيه ، وأمره ونهيه .

(ومن الصالحين) أى ومعدودا من الصالحين الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين الذين تعرف مريم سيرتهم .

(قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر) أى قالت كيف يكون لى ولد وليس لى زوج ، وقد يكون مرادها ، أيحدث ذلك بزواج أم يحصل بقدرتك ، وقد يكون قصدها التعجب من قدرة الله واستعظام شأنه .

(قال كذلك الله يخلق ما يشاء) أى مثل هذا الخلق العجيب والإحداث البديع وهو خلق الولد بغير أب ـ يخلق الله ما يشاء .

ولاختلاف القصتين قصة مريم وزكريا فى الغرابة عبر فى الأولى بيفعل وفى الثانية بيخلق ، إذ العادة قد جرت بأن الفعل يستعمل كثيرا فى كل ما يحدث على النواميس المعروفة ، والأسباب الكونية المألوفة ، والخلق يقال فيما فيه إبداع واختراع ولو بغير ما يعرف من الأسباب ، فيقال خلق الله السموات والأرض ، ولا يقال فعل الله السموات والأرض .

وإيجاد يحيى بين زوجين كإيجاد سائر الناس فعبر عنه بالفعل ، وإن كان فيه آية لزكريا من جهة أن هذين الزوجين لا يولد لمثلهما فى العادة ـ أما إيجاد عيسى فهو على غير المعهود فى التوالد ، بل بمحض القدرة ، فالتعبير عنه بالخلق أليق .

(إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) أى إذا أراد شيئا فإنما يقول له كن فيكون من غير ريث ولا إبطاء .

وهذا تمثيل لكمال قدرته ، ونفوذ مشيئته ، وتصوير سرعة حصول ما يريد بلا إبطاء بصورة آمر مطاع لمأمور قادر على العمل مطيع بفعل ما يطلب منه على الفور .

وهذا الأمر يسمى أمر تكوين ، وهناك أمر آخر هو أمر تكليف يعرف بوحى الله لأنبيائه .

والجاحدون لآيات الله ينكرون الحمل بعيسى من غير أب ، وقوفا عند العادة ، وذهولا عن كيفية بدء العالم ، ولكن ليس لهم دليل عقلى ينبئ بالاستحالة ، و إنا لنشاهد كل يوم حدوث شيء فى الكون لم يكن معتادا من قبل ، بعضه له أسباب معروفة فيسمونه استكشافا أو اختراعا ، و بعضه ليس بمعروف له سبب ، و يسمونه فلتات الطبيعة .

والمؤمنون يقولون إن مثل هذا الذى جاء على غير الأسباب المعروفة يجب أن يهدى العاقل إلى أن الأسباب ليست واجبة وجوبا عقليا مطردا .

وأن أبناء الجيل الحاضر الذين رأوا من الغرائب ما لو رآه السابقون لعدوه سحرا أو خرافة أو أضافوه إلى الجن – ليس لهم عذر فى إنكار الأشياء التى لم يعرفوا لها أسبابا ، وقد قرر فلاسفة العصر إمكان توالد الحيوان من غير حيوان ، إذا فتوالد الحيوان من حيوان واحد أقرب إلى العقول وأدنى إلى الإمكان .

(و يعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) أى و يعلمه الكتابة والخط ، والعلم الصحيح الباعث للإرادة إلى الأعمال النافعة ، ويفقهه فى التوراة ، و يعلمه أسرار أحكامها ، وقد كان المسيح عليما بها يرشد قومه إلى أسرارها ومغازيها ، وكذلك يعلمه الإنجيل الذى أوحى به إليه .

(ورسولا إلى بنى إسرائيل) أى و يرسله رسولا إلى بنى إسرائيل ، روى أن الوحى أتاه وهو ابن ثلاثين سنة وكانت نبوته ثلاث سنين ثم رفع إلى السماء .

(أنى قد جئتكم بآية من ربكم) أى يرسله محتجا على صدق رسالته قائلا أنى قد جئتكم بآية من ربكم ثم فسرها بقوله :

(أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) أى أنى أصور لكم من الطين صورة على مقدار معين كصورة الطير فأنفخ فيها فتكون

طيرا حيا كسائر الطيور بأمره تعالى ، لأنه هو الذى يخلق الحياة فى ذلك الجسم بقدرته عند نفخ عيسى فيه معجزة له .

والخلاصة — أن من علامات نبوتى إن كنتم فيها تمترون ، أنى أقتطع من الطين جزءا مصورا بصورة طير من الطيور التى تريدون ، ثم أنفخ فيه فيصير طيرا حيا يحلق فى جو السماء كما تفعل بقية الطيور .

وقد روى أنه عليه السلام لما ادعى النبوة وأظهر المعجزات طالبوه بخلق خُفّاش فأخذ طينا وصوره ونفخ فيه ، فإذا هو يطير بين السماء والأرض ، قال وهب : كان يطير مادام الناس ينظرون إليـه ، فإذا غاب عن أعينهم سقط ميتا ليتميز من خلق الله .

وقد جرت سنة الله أن تجرى الآيات على أيدى الأنبياء عند طلب قومهم لهـا وجعل الإيمان موقوفا عليها ، فإن كانوا سألوه شيئا من ذلك فقد فعل ، ولا حاجة بنـا إلى تعيين نوع الطير ، إذ لم يرد عندنا نص من كتاب أو سنة يعينه فنقف حينئذ عند لفظ الآية .

(وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله) وإنما خصا بالذكر ، لأن مداواتهما أعيت نطس الأطباء، وقد كان الطب متقدما جدا لتقدم زمن عيسى فأراهم الله المعجزة من ذلك الجنس .

وقد جرت السنة الإلهية أن تكون معجزة كل نبى من جنس ما اشتهر فى زمنه فأعطى موسى العصا وابتلعت ما كانوا يأفكون ، لأن المصريين فى ذلك العصر كانوا مشهورين بالسحر ، وأعطى عيسى من المعجزات ما هو من جنس الطب الذى خذقه أطباء عصره ، وأعطى محمدا معجزة القرآن ، لأن التفاخر فى ذلك العصر كان بالفصاحة والبيان .

وقد روى عن إحياء عيسى للموتى روايات كثيرة ، فمن ذلك أنه أحيا بنتا قبل أن تدفن ، وأحيا اليعازر قبل أن يبلى ولم ينقل أنه أحيا ميتا رميما .

قال صاحب الإسلام والطب الحديث رحمه الله فى تفسير هذه الآية : «إن بعضهم قد اعترض على عمل الطين بشكل الطير ، لأنه لا لزوم لذلك ما دام الله قادرا على إحيائه إلى آخر ما قالوا .

والحقيقة أن فى ذلك حكمة عالية ، لأن الإنسان خلق محدود الإدراك والحواس، ولا يفهم ولا يرى ولا يسمع إلا ما كان فى متناول إدراكه ، فإن رأى شيئا فوق طاقته اجتهد فى أن يرده إلى شىء يعرفه ، فإن لم يمكنه بقى متحيرا ، وإن تكرر ذلك أدى إلى اضطراب فى الأعصاب قد يكون خطرا .

وهنا يلحظ لطف الله فى أنه لا يظهر قدرته للإنسان إلا بطريق التدرج ، وهذا يلاحظ فى كل المعجزات على الإطلاق ، لأن الله تعالى يخلق الطير من الطين ومن غير الطين ، سواء أكان فى شكل الطير أم لم يكن ، وكذلك لا داعى للنفخ لأن طريق الإرادة الإلهية هى (كن فيكون) .

ولكن الله يقرب فهم الإرادة بهذه الطريقة ، لأن الطين إذا كان بشكل الطير يشتبه فيه الإنسان بالطير الحقيقى، ولا يكون هنالك فرق بينهما إلا الحياة مع أن ذلك كل الفرق ، و بعدها ينفخ فيه .

وعملية النفخ تجعله ينتظر تغييرا كما يحدث فى أشياء كثيرة مثل الكرة إذا نفخ فيها وغير ذلك ، فعند وجود الروح فى هذا الهيكل الطينى تكون الصدمة قد انكسرت حدتها بانتظار حدوث شىء مهم ، مع أن كل هذه المقدمات لا دخل لها مطلقا فى وجود الحياة والروح .

وهذا هو بنفسه ما يحدث عند إبراء الأكمه الخ لأن ذلك قد يحدث من نفسه أو بواسطة طبيب فى حالات عصبية مخصوصة (غيرعضوية) ، ولهذا يشتبه فيها الناظر.

وللمعارضين أن يقولوا إنها ليست معجزة ، لأننا نراها على أيدى أشخاص كثيرين ، مع أن الفرق بين إبراء الأعمى الذى فقد بصره بفقد العين نهائيا ، و بين إبراء الأعمى المصاب بالهستريا الخ مثلا يشبه الفرق بين الطين الذى فى شكل الطير

والطير الحقيق ، ولـكن الله تعالى أراد أن يفهم الإنسـان بذلك قدرته تدريجا ، فالإنسان أولا يشك و يقول : ربما كان كل هذا من الأشياء العادية التى ليست فوق قدرة الإنسان ، وربما كانت شيئاً غير عادى ، ولـكن الله يقول بعد ذلك : وأحيي الموتى ، لـكى لايدع مجالا للشك مطلقا .

إننا نجد هذه الطريقة نفسها فى تاريخ سيدنا عيسى عليه السلام ، لأنه خلق من نطفة الأم فقط ، وفى العالم المادى لا يمكن أن يخلق الحيوان إلا من نطفتى الأب والأم ، ولـكن الطريقة التى ولد بها سيدنا عيسى كانت بحيث لا تكون صدمة لعقول المعاصرين ، فقد اتهم هؤلاء السيدة مريم مدة من الزمن ، لأنهم بطبيعتهم فسروا ولادته أو اعتبروها كولادة الناس عامة ، ولـكنهم أخذوا يفهمون الحقيقة تدريجيا عندما اقتنعوا بصحة المعجزات الأخرى التى أتى بها المسيح .

وقد وصلوا إلى هذا الفهم على الرغم من أن عيسى خلق من أم فقط ، ولـكن خلقه على هذه الصورة لايقل عن خلق آدم من طين ، لأن نظام الـكائنات يجرى على سنة واحدة لا تتخلف أبدا إلا حيث يريد الله ، ومتى أراد الله فلا معنى لطريقة خاصة ، ولا حاجة إلى واسطة إلا بقدر الإقلال من تأثير الصدمة على الإنسان كما بينا ... ثم قال :

المعجزات كلها من صنع الله مباشرة ، ومعناها سنة جديدة ، بخلاف كل ما نراه يوميا من عظة وعظمة كالولادة ونمو الحيوان والنبات ، فإنه مع إعجازه يأتى مطابقا لقواعد ونظم وضعها الله لا تتغير .

وأظهر مثل للنواميس الطبيعية حركة الشمس ، فإن ذلك مع عظمته لايحدث صدمة لعقولنا لتعودنا إياه ، ولـكن إن أتى الله بالشمس من المغرب بدل المشرق كان هذا معجزة بالنسبة للإنسان ، مع أن الحركتين من صنع الله ولا فرق بينهما .

ولا تحصل المعجزات إلا على أيدى الأنبياء ، وذلك لأن صدمتها إن كانت

شديدة على الحاضرين ، فهى أشد على من يكون واسطة فيها ، ولذلك اختار الله الأنبياء واصطفاهم .

ولمنع الصدمة الشديدة وقت حدوثها يهيئ الله الظروف لتحملها ، ويهيئ النبى نفسه لقبولها ، ويهيئ الحاضرين لمشاهدتها ، فأمر الله لسيدنا موسى بإدخال يده فى جيبه ، وإخراجها فتكون بيضاء ، ليس إلا لتهيئته للمعجزات الأخرى . . وهنا يلاحظ أن كل المعجزات لا يمكن أن يصل إلى صنعها الإنسان مهما ارتقى ، وأغلبها ينتهى إلى شىء واحد وهو خلق الحياة والروح مهما ظهرت صغيرة لأول نظرة ، فمثلا إبراء عيسى للأعمى يظهر لأول وهلة أنه أقل من إحياء الموتى ، والحقيقة أن المقصود بالأعمى هنا هو الأعمى الذى فقد شيئا عضويا حيا لا يمكن استعاضته ، ومن أمكنه استعاضة شىء مهما صغر حجمه أمكنه أن يستعيض الكل .

وأما إبراء الأعمى الذى يشاهد يوميا فهذا يحدث فى الأحوال المصبية غير العضوية ، وبواسطة أطباء العيون ، وهو يحدث بإزالة أشياء تكون سبب العمى ، ولكن لا يمكن الأطباء أن يحدثوا مثلا إبراء الأعمى بإعادة عصب للعين من جديد الخ وكذلك صنع أرجل جديدة ، فالجرّاح يصنع رجلا صناعية ، وبواسطة العضلات الباقية يستطيع الإنسان أن يمشى عليها ، ولكن هذا الجراح لا يمكنه أن يصنع رجلا من لحم ودم .

وصفوة القول — أنه لا يمكنه أن يصنع جزءا حيا مهما صغر حجمه ، لأن الجسم مجموع ملايين من الخلايا ، وصنع واحدة كصنع الكل ، وهذا معنى قوله تعالى : « لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ » ولذلك ستبقى المعجزات دائما فوق قدرة الإنسان ، ويظهر لنا عظمها أو عدم عظمها بالنسبة لعقولنا فقط ، ولكنها كلها من نوع واحد ، وما كان صنعه فوق إدراكنا لا يمكننا الحكم عليه .

وقد يقول البعض : إن العلوم تتقدم ، وإنه لو كان بعض الاختراعات الموجودة الآن موجودة فى مدة الأنبياء لعد معجزة ـ وهذا القول دليل على أن الروح الحقيقى

للمعجزات لم يفهم ، لأن كل الاختراعات العلمية تبنى على السنن الطبيعية ، وكلها مبنية على قواعد علمية لا تتغير ، فإذا ظهر لها استثناء فإن سببه هو قاعدة علمية أخرى يبحث العالم عنها حتى يجدها ، فإن وجدها لا تنطبق على كل الاستثناءات وجد الخوارج عن هذه الاستثناءات محكومة بسنة أخرى ، وهكذا إلى ما لا نهاية ، فالسنن الإلهية أو القواعد العلمية أو قواعد الطبيعة ـ كما يسميها الطبيعيون ـ لا حد لها ولا تتغير أبداً ، وما لا ينطبق على القاعدة الأصلية ينطبق حتما على قاعدة أخرى وعلى قواعد لا تتغير أبدا ، وكل ما يظهر مدهشا فى نتيجته من المخترعات مثل الكهرباء والتليفون والراديو وماسيظهر — هو من الاستعانة بهذه القواعد ، فالذى يتكلم فى أوربا ويسمعه آخر فى مصر بواسطة الراديو استطاع ذلك ، لأن الهواء بطبيعته يحمل الصوت بصفة أمواج إلى العالم كله ، فاستعان العلماء بهذه السنة الطبيعية وسخروها لأغراضهم ولذلك مهما عظمت النتائج فى المخترعات ، فإن طريق الوصول إليها سنة ثابتة ، ومثلها مثل من يحفر الأرض ويستعين بماء المطر ويحوله نهرا يجرى ، فإنه لم يخلق نهرا ولـكنه استعان بالقوى الطبيعية ، بعكس المعجزات فإنها من طراز آخر ، وهى مهما صغرت نتائجها ، خلق سنة جديدة ، وقد أوضحنا ذلك فيما تقدم .

ولزيادة الإيضاح أضرب مثلا قصة سيدنا إبراهيم وعدم احتراقه بالنار ، فإن العلم بتقدمه يستطيع أن يغطى الإنسان بشىء غير قابل للاحتراق ويضعه فى النار فلا يحترق ، وهذا يشبه المعجزة ، ولـكنه اختراع استعان صاحبه فيه بالنواميس الطبيعية.

أما المعجزة فهى أن تضع الإنسان كما هو جسما ولحماً فى النار فلا يحترق، فيكون عدم احتراقه حينئذ هو المعجزة ، وهى خرق للسنة الطبيعية التى تقضى باحتراق الجسم متى وضع فى النار .

وأما تغطية الجسم لمنع اتصال النار به ، فإنه يظهر أن المخترع أمكنه منع النار من إحراقه ولـكنه فى الحقيقة منع النار من إحراق الجسم الخارجى الذى لا يقبل الاحتراق بطبيعته لأن جسم الإنسان المغطى بمادة لا تحترق لم يتعرض للنار ، والفرق

بين الإثنين ظاهر ، والفرق بين المخترع وصانع المعجزة مثل الفرق بين الحاوى والمخترع.

والطبيب الذى يعيد للقلب ضرباته ليس كمن يحيى الموتى ، لأنه استعان بالسنن الطبيعية ، وأما إحياء الموتى فهو خرق لهذه السنن .

و يتسائل كثير من الناس هل المعجزات ضرورية ؟ والجواب أنها ضرورية لإيمان الإنسان بقدرة الله ، ولولاها لساد مذهب الطبيعيين ، لأن سنن الله لا تتغير أبدا ، وهـذا ما يسمى (بالطبيعة) وثبات هذه القوانين ما ظهر منها وما خفى للآن شيء مدهش ، حتى إن الإنسان قد ينسى واضع هذه القوانين ، و يقول ما الحاجة بى لأن أقول إن هناك صانعا أزليا ما دامت هـذه القواعد ثابتة على وتيرة واحدة ملايين السنين ؟

وهنا كانت حكمة الله فى أن يخرق هـــذه السنن ليظهر للناس أن الصانع الأول موجود .

ومثل ذلك مثل آلة الميزان تزن الإنسان إذا وقف عليها ووضع قطعة معدنية فى ثقب فيها ، فتخرج ورقة عليها رقم وزنه ، فإذا فرضنا أنها محكمة الصنع لا تتغير أبدا آلاف السنين ، فإن الإنسـان يشك فى صانعها الأول ، ولـكنه إن رأى أنها قد تخرج ورقة الوزن بدون أن يقف عليها أحد ، و بدون وضع القطعة المعدنية فيها يقول من يفعل ذلك ربما أمكنه صنعها ، و إذا رأى يوما أن قطعة معدن صغيرة أصبحت أمام عينيه آلة صغيرة تزن الأشخاص ، أيقن أن للأولى صانعا ، وهذا هو معنى صنع الطير من الطين لأن هذا تمثيل لخلق سيدنا آدم الذى منه خلق العالم الإنسانى كله بالسنن (الطبيعية) الإلهية التى لا تبديل فيها .

وصفوة القول — أن أساس المعجزة وعظمتها ليس فى نتائجها وغرابتها ، فالدهشة من سماع الأبكم يتكلم ربما كانت أقل من سماع الراديو لأول وهلة ، ولـكن أهمية المعجزة فى طريق صنعها بدون السنن العادية ، وهى لذلك لا تتكرر أبدا إلا بإذن الله لأن الإنسان لا يعرف قاعدتها ، ولا يدرك طريقة صنعها .

أما الاختراع فإنه اكتشاف لناموس إلهى (طبيعى) ولذلك هو يتكرر دائماً فى الظروف نفسها على يد كل إنسان ، انتهى كلامه بتصرف .

(وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم) أى وأخبركم بما تأكلونه من أنواع المآكل ، وما تخبئونه للغد فى بيوتكم ، وقد كان يخبر الرجل بما أكل ، وبما سيأكل .

والفرق بين إخباره بالغيوب ، وإخبار المتنجمة والمتكهنة التى كثيرا ما تخبر بالشىء وتصيب ، أن المتنجم والمتكهن إنما ينبئ عن استخراج له ببعض الأسباب المؤدية إلى علمه ، ولم يكن ذلك كذلك من عيسى صلوات الله عليه ، ومن سائر أنبيائه ورسله ، بل كان عيسى يخبر به عن غير استخراج ولا طلب لمعرفته باحتيال ، ولكن بإعلام الله ابتداء من غير أصل تقدم ذلك احتذاه أو بنى عليه ، أو فزع إليه كما يفزع المتنجم إلى حسابه ، والمتكهن إلى رِئيّه ، فذلك هو الفصل بين علم الأنبياء بالغيوب وإخبارهم عنها ، وبين علم سائر المتكذبة على الله ، أو المدعية علم ذلك .

(إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين) أى إن فى ذلك لحجة على صدق رسالتى ، وموضعا للعبرة تتفكرون فيه فتعتبرون به أنى محق فى قولى لكم أنى رسول من ربكم إليكم ، وتعلمون به أنى فيما أدعوكم إليه من أمر الله ونهيه صادق ، إن كنتم مصدقين حجج الله وآياته ، مقرين بتوحيده ، وبنبيه موسى وبالتوراة التى جاءكم بها .

(ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) أى وجئتكم مصدقا لما بين يدى من التوراة لا ناسخاً لها ولا مخالفاً شيئاً من أحكامها إلا ما خفف الله عن أهلها فى الإنجيل مما كان مشددا عليهم فيها ، وهو الذى ذكره بقوله : (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم) أى بعض الطيبات التى كانت حرمت على بنى إسرائيل بظلمهم وكثرة سؤالهم ، فأحلها عيسى كما قال تعالى : « فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ » قالوا ومن ذلك السمك ولحوم الإبل والشحوم والعمل يوم السبت .

(وجئتكم بآية من ربكم) أى وقد جئتكم بآية بعد آية من ربكم شاهدة على صدق وصحة رسالتى بما ذكرت لكم من خلق الطير وإبراء الأكمه والأبرص والإحياء والإنباء بالخفيات إلى نحو أولئك .

وأعاد هذا ليترتب عليه الأمر الذى ذكره وهو :

(فاتقوا الله وأطيعون) أى لما جئتكم به من المعجزات الباهرة والآيات الظاهرة اتقوا الله فى المخالفة ، وأطيعونى فيما أدعوكم إليه .

ثم ختم مقاله بالإقرار بالتوحيد والاعتراف بالعبودية فقال :

(إن الله ربى وربكم فاعبدوه) وهذا أمر لهم بالاعتقاد الحق وهو التوحيد ، ثم بملازمة الطاعة بالقيام بأداء ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، ونظيره ما جاء فى الحديث « قل آمنت بالله ثم استقم » .

(هذا صراط مستقيم) أى هذا الذى أمرتكم به هو الطريق السوىّ الذى أجمع عليه الرسل قاطبة ، وهو الموصل إلى خيرى الدنيا والآخرة .

فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ؟ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ، آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٥٢) رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ (٥٣) وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٥٤) إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٥٥) فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَأُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٥٦) وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ، وَاللهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٥٧) ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ (٥٨)

شرح المفردات

فى الأساس : أحسست منه مكرا وأحسست منه بمكر، وما أحسسنا منه خيرا ، وهل تحس من فلان بخير ، وفى الكشاف أحس ، علم علما لاشبهة فيه كعلم ما يدرك بالحواس ، والأنصار واحدهم نصير كالأشراف واحدهم شريف ، والحواريون واحدهم حوارى ، وحوارى الرجل صفيُّه وناصره ، ومسلمون أى منقادون ، لما تريده منا ، والمكر تدبير خفىّ يفضى بالممكور به إلى ما لم يكن يحتسب ، وغلب استعماله فى التدبير السيء وإن كان يستعمل فى الحسن والسيء معا كما قال تعالى : « وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلاَّ بِأَهْلِهِ » .

والداعى إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له أفسد على الفاعل تدبيره لجهله ، فكانت حاجة المربى أو القوّام على غيره ماسة إلى الاحتيال عليه والمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول إليه ، والتوفى : أخذ الشىء وافياً تاما ثم استعمل بمعنى الإماتة كما قال تعالى : «اللهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا» وتطهيره من الذين كفروا : براءته مما كانوا يرمونه به بتهمة أمه بالزنا .

المعنى الجملى

كان الكلام قبل هذا فى بشارة الملائكة لمريم بعيسى عليه السلام ، وكلامه الناس فى المهد ، وإيتائه الكتاب والحكمة والنبوة وإرساله رسولا إلى بنى إسرائيل وذكر براءة أمه التى تقدم ذكرها .

وهنا ذكر خبره مع قومه وما لاقاه منهم من الصدّ والإعراض ومقاساة الأهوال وهمهم بقتله وإنجاء الله إياه ، ووعيد الكافرين به وعذابهم فى الدنيا والآخرة ، وطوى

ذكر ما بينهما من خبر ولادته وبعثه مؤيدا بتلك الآيات التى تقدمت اكتفاء بحكاية الملائكة ، وثقة بما فصل فى المواضع الأخرى .

الإيضاح

(فلما أحسّ عيسى منهم الكفر) أى فلما شعر من قومه بنى إسرائيل بالإصرار على الكفر والعناد وقصد الإيذاء ، فقد صح أنه لقى من اليهود شدائد كثيرة ، فقد كانوا يجتمعون عليه ويستهزئون به ، ويقولون له يا عيسى : ما أكل فلان البارحة ، وما ادخر فى بيته لغد ، فيخبرهم فيسخرون منه ، حتى طال ذلك به وبهم وهموا بقتله فخافهم واختفى عنهم ، وخرج هو وأمه يسيحان فى الأرض .

وفى هذا عبرة وتسلية للنبى صلى الله عليه وسلم ، وبيان لأن الآيات الكونية مهما كثرت لا تفضى إلى الإيمان إلا إذا كان للمدعو استعداد للقبول ، ومن الداعى حسن بيان .

وحين رأى منهم ذلك :

(قال من أنصارى إلى الله ؟) أى قال للحواريين كما تدل عليه آية الصف «كَمَا قَالَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللهِ ؟» أى من الذين يضيفون أنفسهم إلى الله فى نصرى ، ويكونون من أهل الاستعداد لمتابعتى ، وينخلعون عما كانوا فيه ، وينصرفون إلى تأييد رسوله !

(قال الحواريون نحن أنصار الله) أى قال خاصة أصحابه وناصروه : نحن أنصار دين الله ، والباذلون كل ما فى الوسع فى تأييد دعوتك ، والآخذون بتعاليمك ، والمنصرفون عن التقاليد السالفة .

وهذا النصر لا يستلزم القتال ، بل يكفى فيه العمل بالدين والدعوة إليه .

(آمنا بالله) هذا جار مجرى السبب فى نصره ، فإن الإيمان بالله موجب لنصرة دينه ، والذبّ عن أوليائه ، ومحاربة أعدائه .

(واشهد بأنا مسلمون) أى مخلصون منقادون لأوامره ، وفى هذا دليل على أن الإســلام دين الله على لسان كل نبى ، وإن اختلف الأنبياء فى بعض صوره وأشكاله ، وأحكامه وأعماله .

وإنما طلبوا شهادته ، لأن الرسل يشهدون لأممهم يوم القيامة .

(ربنا آمنا بما أنزلت) هذا تضرع إلى الله ، وعرض لحالهم عليه ، بعد عرضها على الرسول ، مبالغة فى إظهار أمرهم .

(واتبعنا الرسول) أى وامتثلنا ما أتى به منك .

وفى ذكرهم الاتباع بعد الإيمان دليل على أن إيمانهم كان بمنزلة اليقين الحاكم على النفس المصرّف لهـا فى العمل ، إذ العلم الصحيح هو الذى يستلزم العمل ، ما العلم الذى لاأثر له فيه فهو مجمل ناقص لايقين فيه ولا اطمئنان . وكثيرا ما يظن الإنسان أنه عالم بالشىء ، فإذا حاول العمل به لم يحسنه ، ويتبين له أنه كان مخطئا فى دعوى العلم به .

(فاكتبنا مع الشاهدين) أى الشاهدين على حال الرسول مع قومه .

(ومكروا ومكر الله) أى مكر أولئك القوم الذين علم عيسى كفرهم من اليهود ، بأن وكلوا به من يقتله غيلة ، ومكر الله فأبطل مكرهم ، فلم ينجحوا فيه ، ورفع عليه السلام إلى السماء ، وألقى شبهه على من قصد اغتياله حتى قتل

(والله خير المـاكرين) أى أقواهم مكرا ، وأنفذهم كيدا ، وأقدرهم على إيصال الضر إليهم من حيث لايحتسبون ، فتدبيره الذى يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه ، وإتمام حكمته ، وكلها خير فى نفسها ، وإن قصر كثير من الناس فى الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم .

(إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ) أى مكر الله بهم حين قال لنبيه إنى متوفيك إلىّ .

وفى هذا بشارة بنجاته من مكرهم واستيفاء أجله ، وأنهم لاينالون منه ما كانوا يريدون بمكرهم وخبثهم .

وللعلماء فى تأويل هذه الآية رأيان :

(١) أن فيها تقديما وتأخيرا ، والأصل : إنى رافعك إلىّ ومتوفيك ، أى إنى رافعك الآن ومميتك بعد النزول من السماء فى الحين الذى قدر لك ــ وعلى هذا فهو قد رفع حيا بجسمه وروحه وأنه سينزل آخر الزمان ، فيحكم بين الناس بشريعتنا ثم يتوفاه الله .

(٢) أن الآية على ظاهرها ، وأن التوفى هو الإماتة العادية ، وأن الرفع بعده للروح ، ولا غرابة فى خطاب الشخص وإرادة روحه ، فالروح هى حقيقة الإنسان ، والجسد كالثوب المستعار ، يزيد وينقص ويتغير ، والإنسان إنسان ، لأن روحه هى هى .

والمعنى ــ إنى مميتك وجاعلك بعد الموت فى مكان رفيع عندى ، كما قال فى إدريس عليه السلام « وَرَفَعْنَاهُ مَكَاناً عَلِيًّا » .

وحديث الرفع والنزول آخر الزمان حديث آحاد يتعلق بأمر اعتقادى ، والأمور الاعتقادية لا يؤخذ فيها إلا بالدليل القاطع من قرآن أو حديث متواتر ، ولا يوجد هنا واحد منهما ، أو أن المراد بنزوله وحكمه فى الأرض غلبة روحه ، وسر رسالته على الناس ، بالأخذ بمقاصد الشريعة دون الوقوف عند ظواهرها ، والتمسك بقشورها دون لبابها .

ذاك أن المسيح عليه السلام لم يأت لليهود بشريعة جديدة ، ولكن جاء بما يزحزحهم عن الجمود على ظواهر شريعة موسى عليه السلام ، ويقفهم على فقهها والمراد منها ، فإن أصحاب هذه الشريعة قد جمدوا على ظواهر ألفاظها ، فكان لا بد لهم من إصلاح عيسوى يبين لهم أسرار الشريعة ، وروح الدين ، وكل ذلك فى القرآن الكريم الذى حجبوا عنه بالتقليد .

فزمان عيسى هو الزمان الذى يأخذ الناس فيه بروح الدين والشريعة الإسلامية، لإصلاح السرائر من غير تقيد بالرسوم والظواهر .

وأما الدجال فهو رمز الخرافات والدجْل والقبائح التى تزول بتقرير الشريعة على وجهها ، والأخذ بأسرارها وحكمها ، والقرآن أعظم هاد إلى الحكم والأسرار ، وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم مبينة لذلك .

(ومطهرك من الذين كفروا) أى ومنجوك مما كانوا يرمونه بك من الشر ، أو مما كانوا يرمونه من القبائح ونسبة السوء إليه .

(وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا) أى وجاعل الذين آمنوا بأنك عبد الله ورسوله ، وصدقوك فى قولك « وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ » ثم آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم بعدك فوق الذين مكروا بك من اليهود ، وكذبوك ، ومن سار بسيرتهم ممن لم يهتد بهديك.

وهذه الفوقية إما فوقية دينية روحانية وهى فضلهم عليهم فى حسن الأخلاق ، وكمال الآداب ، والقرب من الحق ، والبعد من الباطل ، وإما فوقية دنيوية وهى كونهم أصحاب السيادة عليهم .

وفى هذا إخبار عن ذل اليهود ومسكنتهم إلى يوم القيامة ، وقد تحقق ذلك ، فلا يرى ملك يهودى ، ولا بلد مستقل لهم بخلاف النصارى ، ولكن هذا لم يتحقق زمن المسيح لأتباعه ، بل كان اليهود يغلبونهم على أمرهم ، فالوجه الأول أولى بالاعتبار .

(إلى يوم القيامة) أى إن هذا السمو فى الآداب والأخلاق والكمال فى الفضائل سيستمر لهم ما دامت السموات والأرض ، وبعدئذ يفعل الله بهم ما يشاء .

(ثم إلىّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون) أى ثم مصيركم إلىّ يوم البعث ، فأحكم بينكم حينئذ فيما اختلفتم فيه من أمور الدين ، وهذا شامل للمسيح والمختلفين معه ، وشامل للاختلاف بين أتباعه والكافرين به .

وحينئذ يتبين لهم الحق فى كل ما اختلفوا فيه بما يمحو شبه الجاحدين وعناد المخالفين .

ثم بين جزاء المحقّ والمبطل وكيفيته فقال :

(فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين) أى فأما الذين كذبوك وهم اليهود فأعذبهم فى الدنيا بإذلالهم بالقتل والأسر وتسليط الأمم عليهم ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى ، وهم لا يجدون حينئذ نصيرا كما لم يجدوا ذلك فى الدنيا .

(وأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم) أى وأما الذين صدّقوك وأقروا بنبوّتك ، وبما جئتهم به من الحق ، ودانوا بالإسلام الذى بعثك الله به ، وعملوا بالأوامر وتركوا النواهى ـ فيؤتيهم الله أجرهم كاملا غير منقوص .

ثم بين علة جزاء الفريقين بما جازى فقال :

(والله لا يحب الظالمين) أى لا يحب من ظلم غيره حقا له ، أو وضع شيئا فى غير موضعه ، فكيف بظلم عباده له ، فهو يجازيه بما يستحق .

وفى هذا وعيد منه للكافرين به وبرسله ، ووعد منه للمؤمنين به وبرسله .

(ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم) أى هذه الأنباء التى أنبأتك بها عن عيسى وأمه مريم وأمها ، وزكريا وابنه يحيى ، وما قصّ من أمر الحواريين واليهود من بنى إسرائيل نقرؤها لك على لسان جبريل .

وهى من القرآن الحكيم الذى يبين وجوه العبر فى الأخبار والحكم فى الأحكام فيهدى المؤمنين إلى لب الدين وفقه الشريعة ، وأسرار الاجتماع البشرى .

وفيها حجة على من حاجك من وفد نجران ، ويهود بنى إسرائيل الذين كذبوك وكذبوا ما جئتهم به من الحق .

إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ (٥٩) الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (٦٠) فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءنَا وَنِسَاءكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ (٦١) إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللهُ، وَإِنَّ اللهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٦٢) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ (٦٣)

شرح المفردات

المثل: الحال الغريبة والشأن: البديع، والامتراء: الشك، والبهلة (بالضم والفتح) اللعنة والدعاء، يقال ماله بهله الله، أي لعنه، ثم شاع استعماله فى مطلق الدعاء يقال فلان يبتهل إلى الله فى حاجته أى يدعوه، والقصص: تتبع الأثر، ومنه قوله تعالى « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى تتبعى أثره ثم استعمل فى الكلام والحديث، لأن القاصّ يتتبع المعانى ليوردها، والعزيز: أى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد، والحكيم: ذو الحكمة التى لايساميه فيها أحد.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف قصص عيسى وأمه، وما جاء به، وكفر بعض قومه به، ورميهم أمه بالزنا، وإيمان بعض آخر به.

أردف ذلك بذكر حال فريق ثالث لم يكفر به، ولم يؤمن به إيمانا صحيحا، بل افتتن به افتتانا، لكونه ولد من غير أب، فزعم أن معنى كونه (كلمة الله وروح الله) أن الله حل فى أمه، وأن كلمة الله تجسدت فيه، فصار إنسانا وإلها، فضرب ليردّ به على الفريقين الكافرين به من اليهود، والمفتونين به من النصارى.

فبين أن خلق آدم أعجب من خلق عيسى فهـذا خلق من حيوان من نوعه ، وذاك قد خلق من التراب ، فهو أولى بالمزية إن كانت ، والإنكار إن صح الإنكار.

وأمر الخلقة غريب بالنسبة إلينا ، لـكنه ليس بالغريب بالنسبة إلى الصانع المبدع .

والقوانين المعروفة فى الخلق قد استخرجت مما نعهد ونشاهد ، وليست بالقوانين العقلية التى قامت البراهين على استحالة ما عداها .

وإنا لنشاهد كل يوم ما يخالفها كالحيوان التى توجد من غير جنسها ، أو الحيوان ذوات الأعضاء الزائدة ، ويعبرون عن ذلك بفلتات الطبيعة ، ولعل لهذه الشواذ وتلك الفلتات سننا أخرى مطردة لم تظهر لنا .

وهكذا شأن خلق عيسى ، فكونه على غير السنن المعروفة ، لايقتضى تفضيله على غيره من الأنبياء ، بَلْهَ أن يكون إلها .

وقد روى فى سبب نزول الآية أن وفد نجران من النصارى قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : مالك تشتم صاحبنا ؟ قال وما أقول ، قالوا تقول إنه عبد الله قال أَجَلْ هو عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول ، فغضبوا وقالوا هل رأيت إنسانا من غير أب ، فإن كنت صادقا فأرنا مثله فأنزل الله الآية .

الإيضاح

(إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم) أى إن شأن عيسى وصفته فى خلق الله إياه على غير مثال سابق كشأن آدم فى ذلك ثم فسر هذا المثل وفصل ما أجمله فقال : (خلقه من تراب) أى قدر أوضاعه وكوّن جسمه من تراب ميت ، أصابه الماء فكان طينا لازبا لزجا .

وفى هذا توضيح للتمثيل ببيان وجه الشبه بينهما ، وقطع لشبه الخصوم ، فإن إنكار خلق عيسى عليه السلام بلا أب مع الاعتراف بخلق آدم من غير أب ولا أم — مما لا ينبغى أن يكون ولا يسلمه العقل .

(ثم قال له كن فيكون) أى ثم أنشأه بشرا بنفخ الروح فيه كما جاء فى قوله « ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ » .

(الحق من ربك) أى هـذا الذى أنبأتك به من شأن عيسى هو الحق ، لا ما اعتقده فيه النصارى من أنه إله ، ولا ما زعمه اليهود من رميها بيوسف النجار.

(فلا تكوننّ من الممترين) أى فلا تشكنّ فى أمره بعد أن جاءك العلم اليقينى به .

وتوجيه هذا النهى للنبى صلى الله عليه وسلم مع استحالة وقوع الامتراء منه ـ ذو فائدة من وجهين :

ذاك أنه إذا سمع صلى الله عليه وسلم مثل هذا الخطاب ازداد رغبة فى الثبات على اليقين واطمئنان النفس، و إذا سمعه غيره ازدجر ونزع عما يورث الامتراء ، إذ أنه صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره خوطب بمثل هذا فما بالك بغيره ؟ .

وخلاصة ذلك ـ دم على يقينك ، وعلى ما أنت عليه من الاطمئنان إلى الحق ، والتنزه عن الشك فيه .

(فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم) أى فمن جادلك فى شأن عيسى عليه السلام من بعد أن قصصت عليك من خبره وجَلِيَّة أمره ما قصصت .

(فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ، ونساءنا ونساءكم ، وأنفسنا وأنفسكم ، ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) ، أى فقل لهم : أقبلوا وليدع كل منا ومنكم أبناءه ونساءه للمباهلة والدعاء .

وفى تقديم هؤلاء على النفس فى المباهلة ، مع أن الرجل يخاطر بنفسه لهم ـ إيذان بكمال أمنه صلى الله عليه وسلم ، وتمام ثقته بأمره ، وقوة يقينه ، بأنه لن يصيبهم فى ذلك مكروه ، وهذه الآية تسمى آية المباهلة .

وقد ورد من طرق عدة أن النبى صلى الله عليه وسلم دعا نصارى نجران للمباهلة فأبوا ، أخرج البخارى ومسلم : أن العاقب والسيد أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،

فأراد أن يلاعنهما ، فقال أحدهما لصاحبه : لا تلاعنه ، فوالله لئن كان نبيا فلاعننا لانفلح أبدا ، ولا عقبْنا من بعدنا أبدا ، فقالا له نعطيك ما سألت ، فابعث معنا رجلا أمينا ، فقال قم يا أبا عبيدة ، فلما قام قال : هذا أمين هذه الأمة .

وأخرج أبو نعيم فى الدلائل عن ابن عباس أن ثمانية من نصارى نجران قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم العاقب والسيد فأنزل الله (قل تعالوا) الآية فقالوا أخرنا ثلاثة أيام، فذهبوا إلى قُرَيْظة والنضير و بنى قَيْنُقاع من اليهود ، فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوه ، وقالوا هو النبى الذى نجده فى التوراة ، فصالحوه على ألف حُلة فى صفر وألف فى رجب ، ودراهم .

وروى أن النبى صلى الله عليه وسلم اختار للمباهلة عليا وفاطمة وولديهما عليهم الرضوان وخرج بهم وقال : إن أنا دعوت فأمنوا أنتم، وأخرج ابن عساكر عن جعفر عن أبيه أنه لما نزلت هذه الآية جاء بأبى بكر وولده ، و بعمر وولده ، و بعثمان وولده.
ولاشك أن الذى يفهم من الآية : أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر أن يدعو المحاجين والمجادلين فى شأن عيسى من أهل الكتاب الى الاجتماع رجالا ونساء وأطفالا ، ويجمع هو المؤمنين رجالا ونساء وأطفالا ، و يبتهلوا إلى الله تعالى بأن يلعن الكاذب فيما يقول عن عيسى .

وهذا الطلب يدل على قوة يقين صاحبه وثقته بما يقول ، كما يدل امتناع من دعوا إلى ذلك من أهل الكتاب من نصارى نجران وسواهم على امترائهم فى حجاجهم ، وكونهم على غير بينة فيما يعتقدون .

وفى الآية عبرة لمن ادَّكر ، لأنه طلب فيها مشاركة النساء للرجال فى الاجتماع للمفاضلة الدينية ، وفى هـذا دليل على أن المرأة كالرجل حتى فى الأمور العامة إلا فى بعض مسائل ككونها لاتباشر الحرب بنفسها ، بل تشتغل بخدمة المحاربين ومداواة الجرحى ، ولا تتولى القضاء فى الجنايات ونحوها .

وأين هذا من حال نساء المسلمين اليوم ، فى جهلهنّ بأمور الدين ، وعدم

مشاركتهنّ للرجال فى عمل من الأعمال الدينية أو الشئون الاجتماعية ، ولا همّ لنساء الأغنياء فى المدن إلا الزينة والتنوق فى المطاعم والمشارب والملابس ؛ كما لا عمل لنساء الفقراء فى القرى والدساكر إلا الخدمة فى الحقول والمنازل ، فهن كالأُتُن الحاملة ، والبقر العاملة ، وكان من جرّاء هذا أن صغرت نفوسهن ، وضعفت آدابهن ، وصرن كالدواجن فى البيوت ، أو السوائم فى الصحراء ، وساءت تربية البنين والبنات ، وسري الفساد من الأفراد إلى الجماعات ، وعمّ الأسر والعشائر ، والشعوب والقبائل .

وقد قام فى العهد الأخير جماعات من العقلاء فى كثير من البلاد الإسلامية يطالبون بتحرير المرأة ومشاركتها الرجل فى العلم والأدب وشئون الحياة ، وصادفت هذه الدعوة آذانا صاغية ، فبدأ المسلمون يعلمون بناتهم ، ولكن يحسن أن يصحب هذا التعليم شىء كثير من التربية الدينية ، والإصلاح فى الأخلاق والعادات .

وقد كان هذا عاملا من عوامل الانقلاب الاجتماعى الذى لاندرى ما تكون عاقبته فى إصلاح الأسر الإسلامية ولا ماسيتمخض عنه من نفع للاسلام والمسلمين .

(إن هذا لهو القصص الحق) أى إن هذا الذى قصصته عليك فى شأن عيسى هو الحق ، لا ما يدعيه النصارى من كونه إلها أو ابن الله ، ولا ما يدعيه اليهود من كونه ابن زنا .

(وما من إله إلا الله) الذى خلق كل شىء ، وليس كمثله شىء ، وفى هذا رد على النصارى الذين يقولون إن الله ثالث ثلاثة .

(وإن الله لهو العزيز الحكيم) أى إنه تعالى ذو العزة الذى لا يغالبه أحد ، وذو الحكمة التى لا يساويه فيها أحد ، حتى يكون شريكا له فى ألوهيته ، أو ندا له فى ربوبيته ، وما الولد إلا نسخة من الوالد ، فهو يساويه فى جنسه ونوعه ، وهو سبحانه فوق الأجناس والأنواع .

(فإن تولوا فإن الله عليم بالمفسدين) أى فإن أعرضوا عن اتباعك وتصديقك ، ولم يقبلوا عقيدة التوحيد التى جئت بها ، ولم يجيبوك إلى المباهلة ، فإن الله عليم بحال

المفسدين فى الدين وبنياتهم ، وأغراضهم الفاسدة ، فيجازيهم بخبيث سرائرهم ، وسيء أعمالهم .

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ ، وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنْزِلَتِ التَّوْرَاةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلاَّ مِنْ بَعْدِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ؟ (٦٥) هَا أَنْتُمْ هَؤُلاَءِ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ، فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ ؟ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ (٦٦) مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلاَ نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ (٦٨)

شرح المفردات

أهل الكتاب هم اليهود والنصارى ، تعالوا أى أقبلوا ووجهوا النظر إلى مادعيتم إليه ، وسواء أى عدل و إنصاف من بعضنا لبعض ، والإله هو المعبود الذى يدعى حين الشدائد ، و يقصد عند الحاجة اعتقادا بأنه وحده ذو السلطة الغيبية ، والربّ : هو السيد المربى الذى يطاع فيما يأمر وينهى ، ويراد به هنا ماله حق التشريع من تحريم وتحليل ، مسلمون : أى منقادون لله مخلصون له ، تحاجون : أى تجادلون ، والحنيف المائل عن العقائد الزائفة ، والمسلم هو الموحد المخلص المطيع له .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف أحوال عيسى عليه السلام وما يعتوره من الأطوار المنافية للألوهية ، ثم ذكر دعوته صلى الله عليه وسلم الناس الى التوحيد والإسلام ، وظهور عناد أهل الكتاب حتى اضطر الى دعوتهم الى المباهلة فأعرضوا ، وبذلك انقطعت حججهم ، ودل ذلك على أنهم ليسوا على يقين من اعتقاد ألوهية المسيح ، ومن يفقد اليقين يتزلزل حينما يدعى إلى شيء مما يخاف عاقبته .

دعاهم هنا إلى أمر آخر هو أصل الدين وروحه الذى اتفقت عليه دعوة الأنبياء جميعا وهو سواء وعدل بين الفريقين لا يرجح فيه طرف على طرف ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فلما أعرضوا أمر بأن يقول لهم : اشهدوا بأنا مسلمون .

الإيضاح

(قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم) أى قل : يا أهل الكتاب هلموا وانظروا فى مقالة عادلة اتفقت عليها الرسل والكتب الذى أنزلت إليهم ، فقد أمرت بها التوراة والإنجيل والقرآن .

ثم بين هذه الكلمة فقال :

(ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ، ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) أى ألا نخضع إلا لإله له السلطة المطلقة فى التشريع وله التحليل والتحريم ، ولا نشرك به شيئا سواه (ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله) وقد حوت هذه الآية وحدانية الألوهية فى قوله ـ ألا نعبد إلا الله ـ ووحدانية الربوبية فى قوله ـ ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ـ .

وهذا القدر متفق عليه فى جميع الأديان ، فقد جاء إبراهيم بالتوحيد ، وجاء به موسى فقد ورد فى التوراة قول الله له (إن الرب إلهك ، لا يكن لك آلهة أخرى أمامى ، لا تصنع لك تمثالا منحوتا ، ولا صورة ما مما فى السماء من فوق ، ومما

فى الأرض من تحت ، وما فى الماء من تحت الأرض ، لا تسجد لهنّ ولا تعبدهنّ)
وكذلك جاء عيسى بمثل هذا ، ففى إنجيل يوحنا (وهـذه هى الحياة الأبدية أن
يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ، ويسوع المسيح الذى أرسلته ، وجاء خاتم
النبيين محمد صلى الله عليه وسلم بمثل هذا « اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ
سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ » .

وخلاصة المعنى — أنا وأنتم نعتقد أن العالم من صنع إله واحد هو خالقه
والمدبر له ، وهو الذى يرسل إلينا أنبياءه ليبلغونا عنه ما يرضيه من العمل وما لا يرضيه
فهلم بنا نتفق على إقامة هذه الأصول ، ونرفض الشبهات التى تعرض لها ، فإذا جاءكم
عن المسيح شىء فيه (ابن الله) أوّلناه على وجه لا يخالف الأصل الذى اتفق عليه
الأنبياء ، لأننا لا نجد المسيح قد فسر هذا القول بأنه إله يعبد ، ولا دعا إلى عبادته
وعبادة أمه ، بل كان يدعو إلى عبادة الله وحده والإخلاص له .

وقد كان اليهود موحدين ، ولكن كان منبع شقوتهم اتباعهم لرؤساء الدين
فيما يقررون من الأحكام ، وجَعْله بمنزلة الأحكام المنزلة من عند الله ، وسار النصارى
على هذا المنوال ، وزادوا مسألة غفران الخطايا ، وهى مسألة كان لها أثر خطير
فى المجتمع المسيحى حتى بلغ من أمرها أن ابتلعت الكنائس أكثر أموال الناس ،
فقامت طائفة جديدة تطالب الإصلاح وهى فرقة (البروتستانت) وقالت دعونا من
هؤلاء الأرباب ، وخذوا الدين من الكتاب ، ولا تشركوا معه شيئا سواه من قول
فلان وفلان .

روى عدى بن حاتم قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى عنقى صليب
من ذهب ، فقال يا عدى اطرح عنك هذا الوثن ، وسمعته يقرأ فى سورة براءة
« اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللهِ» فقلت له يا رسول الله : لم يكونوا
يعبدونهم ، فقال أما كانوا يحللون لكم ويحرّمون ، فتأخذون بأقوالهم ؟ قال نعم ،
فقال عليه السلام : هو ذاك .

(فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون) أى فإن أعرضوا عن هذه الدعوة ، وأبوا إلا أن يعبدوا غير الله ، واتخذوا الشركاء والوسطاء والأرباب الذين يحللون ويحرّمون ، فقولوا لهم إنا منقادون لله مخلصون له لا نعبد أحدا سواه ، ولا نتوجه إلى غيره نطلب منه النفع أو دفع الضرّ ، ولا نحل إلا ما أحله الله ، ولا نحرم إلا ما حرمه الله .

وفى هذا حجة على أن مسائل الدين كالعبادات والتحريم والتحليل لا يؤخذ فيها إلا بقول النبى المعصوم ، لا بقول إمام مجتهد ولا فقيه قدير ، وإلا كان ذلك إشراكا فى الربوبية ، ، وخروجا من هداية القرآن التى دل عليها مثل قوله « أَمْ لَهُمْ شُرَكاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ » وقوله : « وَلاَ تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ ، هَذَا حَلاَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ » .

أما المسائل الدنيوية كالقضاء والسياسة فقد فوض الله أمرها إلى أولى الحل والعقد وهم رجال الشورى ، فما أمروا به وجب على حكام المسلمين تنفيذه والعمل به ، وعلى الرعية قبوله .

وهذه الآية هى الأساس والأصل الذى دعا النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب إلى العمل به حين دعاهم إلى الإسلام كما ثبت ذلك فى كتبه إلى هِرَقْلَ والمقَوْقِس وغيرهما .

أخرج ابن إسحاق وابن جرير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهوديا ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانيا ، فأنزل الله (يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم) الآية .

(يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم) أى أيها اليهود والنصارى : لم تتنازعون وتتجادلون فى إبراهيم ، ويدعى كل منكم أنه على دينه ؟ .

(وقد كان إبراهيم موضع إجلال الفريقين ، لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق والعهد الجديد ، كما كانت قريش تجله وتدعى أنها على دينه) .

وهو لم يكن على شىء من تقاليدكم ، بل كان على الإسلام الذى يدعو إليه محمد صلى الله عليه وسلم ، وإلى هذا أشار بقوله .

(وما أنزلت التوراة والإنجيل الا من بعده ، أفلا تعقلون ؟) أى وما أنزلت التوراة على موسى ، ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال ، وقد قالوا إن بين ابراهيم وموسى سبعمائة سنة ، و بين موسى وعيسى حوالى ألف سنة. أفلا تعقلون أن المتقدم على الشىء لا يمكن أن يكون تابعا له ؟ .

وخلاصة ذلك — أنه اذا كان الدين الحق لا يعدو التوراة كما يقول اليهود ، ولا يتجاوز الإنجيل كما يقول النصارى ، فكيف كان إبراهيم على الحق ، واستوجب ثناءكم وثناء من قبلكم ، والتوراة والإنجيل خلو من الإخبار بيهوديته ونصرانيته اللتين زعمتموهما ، أليس عندكم عقل يردكم عن مثل هذه الدعوى ، ويربأ بكم أن تقولوا مالا سند له من كتاب ولا دليل عليه .

وفى هذا إيماء إلى جهلهم وحماقتهم فى دعواهم هذه .

(هأنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم) من أمر عيسى عليه السلام ، وقد قامت عليكم الحجة ، وتبين أن منكم من غلا وأفرط وادعى ألوهيته ، ومنكم من فرّط وقال إنه دعىّ كذاب ، ولم يكن علمكم بمانع لكم من الخطأ .

(فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم؟) من أمر إبراهيم إذ لا ذكر لدينه فى كتبكم فمن أين أتاكم أنه كان يهوديا أو نصرانيا ، أليس من المعقول أن تتبعوا فيه ما أوحاه الله إلى رسوله محمد صلى الله عليه وسلم ؟ .

(والله يعلم وأنتم لا تعلمون) أى والله يعلم ما غاب عنكم ، ولم تشاهدوه ، ولم تأتكم به الرسل من أمر إبراهيم وغيره مما تجادلون فيه ، وأنتم لا تعلمون من ذلك إلا ما عاينتم وشاهدتم ، أو أدركتم علمه بالسماع .

ثم صرّح بما فهم من قبل تلويحا فقال :

(ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما) أى إن اليهود

والنصارى الذين جادلوا فى إبراهيم وملته وأنه كان على دينهم - كاذبون فى دعواهم وأن الصادق فيها هم أهل الإسلام ، فإنهم وحدهم أهل دينه وعلى منهاجه وشريعته دون سائر الملل الأخرى ، إذ هو مطيع لله ، مقيم على محجة الهدى التى أمر بلزومها ، خاشع له بقلب متذلل ، مذعن لما فرضه عليه ، وألزمه به .

(وما كان من المشركين) الذين يسمون أنفسهم الحنفاء ويدعون أنهم على ملة إبراهيم ، وهم قريش ومن سار على نهجهم من العرب .

وصفوة القول - أن إبراهيم الذى اتفق اليهود والنصارى والمشركون على إجلاله وتعظيمه - لم يكن على ملة أحد منهم ، بل كان مائلا عما هم عليه من الوثنية ، مسلما لله ، مخلصا له .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبىّ والذين آمنوا معه) : أى إن أحق الناس بإبراهيم ونصرته وولايته - هم الذين سلكوا طريقه ومنهاجه فى عصره فوحدوا الله مخلصين له الدين ، وكانوا حنفاء مسلمين غير مشركين ، وهذا النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، والذين آمنوا معه ، فإنهم أهل التوحيد الذى لا يشوبه اتخاذ الأولياء ولا التوسل بالشفعاء ، المخلصون لله فى أعمالهم دون شرك ولا رياء .

وهذا هو روح الإسلام ، والمقصود من الإيمان ، ومن فاته ذلك فقد فاته الدين كله .

ثم ذكر أنهم مع نصرتهم لإبراهيم فالله ناصرهم فقال .

(والله ولى المؤمنين) بالنصرة والتأييد ، والتوفيق والتسديد ، فهو يتولى أمورهم ويصلح شئونهم ، ويثيبهم على حسب تأثير الإسلام فى قلوبهم ، ويجازيهم بالحسنى .

وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّونَكُمْ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٦٩) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ ؟ (٧٠) يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ ، وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ (٧١) وَقَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمِنُوا بِالَّذِي أُنْزِلَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجْهَ النَّهَارِ وَاكْفُرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٧٢) وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْهُدَى هُدَى اللهِ ، أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ مِثْلَ مَا أُوتِيتُمْ ، أَوْ يُحَاجُّوكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ ، قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٧٣) يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٧٤)

شرح المفردات

ود الشيء: أحبه ، طائفة: أى جماعة وهم الأحبار والرؤساء ، والآيات هنا ما يدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وتلبسون: أى تخلطون ، وجه النهار: أى أوله تقول أتيته بوجه نهار وصدر نهار وشباب نهار ، آمن له صدقه وسلم له ما يقول كما قال تعالى حكاية عن إخوة يوسف « وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا » والفضل : الزيادة ، والمراد به هنا النبوة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن من دأب أهل الكتاب أن يعرضوا عن الحق بعد أن يتبين لهم ، ولا يجدى معهم الدليل والبرهان ، فدعوتهم إلى دين الإسلام الذى كان عليه إبراهيم والأنبياء بعده لا تجد منهم آذانا صاغية ، ولا قلوبا واعية .

ذكر هنا شأنا آخر لهم ، وهو أنهم كانوا أشد الناس حرصا على إضلال المؤمنين فلا يدعون فرصة إلا انتهزوها بالتفنن فى إلقاء الشبه فى نفوس المؤمنين ، وقد كان النزاع بالغا أشده بين الفريقين ، ولا غرابة فى ذلك ، فإن الدعوة إلى هذا الدين الجديد وجدت مقاومة من أهل الكتاب ومن المشركين .
أما أهل الكتاب فلأن فيه هدما لدينهم كما يزعمون ، وأما المشركون فلأن للإلف والعادة سلطانا على النفوس ، وهذه الدعوة دكت حصون المعتقدات التى توارثوها عن أسلافهم الغابرين ، ووجدوا عليها آباءهم من قبل كما حكى الله عنهم « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى اليهود حين دعوا حذيفة وعمارا ومعاذا إلى اليهودية .

الإيضاح

(ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم) أى أحبت طائفة من الأحبار والرؤساء أن يوقعوكم فى الضلال ، بإلقاء الشبهات التى تشككم فى دينكم ، وتردكم إلى ما كنتم عليه من الكفر .

(وما يضلون إلا أنفسهم) إذ أنهم بعنايتهم بالإضلال ، واشتغالهم به ينصرفون عن النظر فى طرق الهداية ، ويغضون أبصارهم عما أوتيه النبى صلى الله عليه وسلم من الآيات البينات الدالة على نبوته ، فهم يعبثون بعقولهم ، ويفسدون فطرتهم باختيارهم .

(وما يشعرون) أى وما يفطنون إلى سوء حالهم ، وأنهم ألغوا عقولهم ، فلم تفكر فى الحجج التى آتاها الله لنبيه ، ولم تنظر إلى نور الحق الساطع الذى يهدى صاحبه إلى الصراط المستقيم .

وفى نفى الشعور عنهم نهاية الذم والاحتقار لهم .

(يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون ؟) أى لم تكفرون بما ترونه من البراهين الواضحة الدالة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وأنتم تشهدون بصحتها ، بما جاء فى كتبكم من نعته والبشارة به .

(يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل) أى لم تخلطون الحق الذى جاء به النبيون ، ونزلت به كتبهم من عبادة الله وحده ، والبشارة بنبى من بنى إسماعيل يعلم الناس الكتاب والحكمة — بالباطل الذى لفقه أحباركم ورؤساؤكم بتأويلاتهم الفاسدة ، وتجعلون ذلك دينا يجب اتباعه كما جاء فى آية أخرى « يَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ » .

(وتكتمون الحق وأنتم تعلمون) أى وتكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهو مكتوب عندكم فى التوراة والإنجيل ، وأنتم تعلمون أنكم إنما تفعلون ذلك عناداً وحسداً .

(وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون) .

روى ابن إسحاق عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن الصيف وعدىّ بن زيد والحرث بن عوف ، بعضهم لبعض ، تعالَوْا نؤمن بما أنزل على محمد وأصحابه غُدْوَةً ونكفر به عشيَّة ، حتى نُلْبِس عليهم دينهم ، لعلهم يصنعون كما نصنع فيرجعوا عن دينهم فأنزل الله فيهم — يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل — إلى قوله واسع عليم

ومقصد هذه الطائفة أن تفسد الناس فيقولوا لولا أن ظهر لهؤلاء بطلان الإسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، إذ ليس من المعقول أن يترك الإنسان الحق بعد معرفته ، ويرجع عنه بلا سبب ، وليتهم وقف الأمر بهم إلى حد القول ، لكنهم قد فعلوا ذلك .

أخرج ابن جرير عن مجاهد قال : صلت يهود مع محمد صلاة الصبح ، وكفروا آخر النهار مكرا منهم ، ليُرُوا الناس أن قد بدت لهم منه الضلالة بعد أن كانوا اتبعوه

وليس بالغريب منهم أن يلجئوا إلى مثل هـذه الحيلة ، إذ هم يعلمون أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه ، يرشد إلى هذا قول هِرَقْلَ صاحب الروم لأبى سفيان حين سأله عن شئون محمد صلى الله عليه وسلم عند ما دعاه إلى الإسلام: هل يرجع عنه من دخل فى دينه ؟ فقال أبو سفيان (لا) .

وقد حذر الله نبيه مكر هؤلاء ، وأطلعه على سرهم ، كيلا تؤثر الحيلة فى قلوب ضعفاء المؤمنين ، ولأنهم إذا افتضحوا فى هذه الحيلة لا يقدمون على أمثالها ، ويكون ذلك وازعا لهم .

وفى هذا إنباء بالغيب فيكون معجزة لمحمد صلى الله عليه وسلم .

(ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم) هـذا من كلام اليهود الذين حصروا الثقة بأنفسهم ، زعما منهم أن النبوة لا تكون إلا فيهم ، بل لقد تغالوا وحقروا جميع الطوائف ، وجعلوا أن كل ما يصدر منهم حسن ، وما يصدر من سواهم قبيح .

وخلاصة المعنى — ولا تومنوا هـذا الإيمان الظاهر الذى أتيتم به وجه النهار إلا لمن كان تابعاً لدينكم أولا ، وهم الذين أسلموا منهم ، ومقصدهم من ذلك رجوعهم عن إسلامهم ، لأنهم كانوا راغبين فيه جد الرغبة ، طامعين فيه ، فلهم من إسلامهم حنق وغيظ عظيم .

(قل إن الهدى هدى الله) أى ليس الهدى مقصوراً على شعب معين أو واحد بذاته ، بل الله سبحانه يهدى من يشاء من عباده على لسان من يريد من أنبيائه ، ومن يهد الله فلا مضل له ، فكيدهم لا يضير من أراد الله به الخير ، بل يحبط تدبيرهم له .

(أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عنـد ربكم) هذا من كلام اليهود وجملة (قل إن الهدى هدى الله) اعتراضية بينه وبين ما سبقه .

والمعنى — لا تظهروا إيمانكم بأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم حتى يحاجوكم عند ربكم فيدحضوا حجتكم .

وتلخيص المراد — لا تعترفوا أمام العرب أو غيرهم بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبى من غير بنى إسرائيل ، ولا تؤمنوا لغير أتباعكم أن المسلمين يحاجونكم يوم القيامة بالحق ، ويغالبونكم عند الله تعالى بالحجة .

وهذا مبنى على أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبى من العرب بألسنتهم مكابرة وعنادا للنبى صلى الله عليه وسلم لا اعتقادا ، وأنهم كانوا لا يصرحون بهذا الاعتقاد إلا لمن آمنوا به من قومهم ، لما هم عليه من المكر والمخادعة .

وصفوة القول — ولا تظهروا إيمانكم بأن أحدا يؤتى مثل ما أوتيتم إلا لأهل دينكم دون غيرهم ، بل أسروا تصديقكم بأن المسلمين قد أوتوا من كتب الله مثل ما أوتيتم ، ولا تفشوه إلا إلى أشياعكم وحدهم دون المسلمين ، لئلا يزيدهم ذلك ثباتا ودون المشركين لئلا يدعوهم ذلك إلى الإسلام .

(قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم) أى قل لهم : إن الرسالة فضل الله ومنه ، والله واسع العطاء ، وهو العليم بالمستحق ، فيعطيه من هو له أهل .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود قد ضيقوا هذا الفضل الواسع ، بزعمهم حصر النبوة فيهم ، وجهلوا الحكم والمصالح التى لأجلها يعطى النبوة من يشاء .

(يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم) أى إن فضله الواسع ورحمته العامة يعطيهما على حسب مشيئته ، لا كما يزعم أهل الكتاب من قصرها على الشعب المختار من بنى إسرائيل ، فهو يبعث من يشاء نبيا ، ويبعثه رسولا ، ومن اختصه بهذا فإنما يختصه بمزيد فضله ، وعظيم إحسانه ، لا بعمل قدمه ، ولا لنسب شرفه ، فالله لا يحابى أحدا لا فردا ولا شعبا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ، ذَلِكَ

بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٥) بَلَى مَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ وَاتَّقَى، فَإِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧٦) إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٧)

شرح المفردات

تأمنه من أمنته بمعنى ائتمنته ، ويقال أمنته بكذا وعلى كذا، والمراد بالقنطار العدد الكثير ، وبالدينار العدد القليل ، والأميون هم العرب ، والسبيل المؤاخذة والذنب ، وبلى كلمة تقع جوابا عن نفى سابق لتثبته ، والعهد ما تلتزم الوفاء به لغيرك ، وإذا كان لالتزام من طرفين يقال عاهد فلان فلانا عهدا ، ويشترون أى يستبدلون ، والمراد بالعهد عهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة أن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه ويتعاقدون ، والمراد بالأيمان الأيمان الكاذبة ، والثمن القليل هو العوض الذى يأخذونه أو الرّشا ، وجعل قليلا لأن كل ما يفوت الثواب ويوجب العقاب فهو قليل ولا خلاق لهم أى لا نصيب لهم ، ولا يكلمهم الله : أى يغضب عليهم ، ولا ينظر اليهم : أى يسخط عليهم ويستهين بهم ، ولا يزكيهم أى لا يثنى عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه خيانة أهل الكتاب فى الدين ، وكيدهم للمسلمين ، ليرجعوا عن دينهم ، وصدهم عن الدعوة لذلك الدين الجديد بكل وسيلة يستطيعونها ، زعما منهم أنهم شعب الله المختار ، وأن الدين الحق خاص بهم لا يعدوهم إلى شعب آخر ، ولا إلى أمة أخرى .

أردف ذلك بذكر حال طائفة أخرى منهم تخون الأمانات وتستحل أكل أموال الناس بالباطل ، تأويلا للكتاب ، وغرورا فى الدين .

الإيضاح

(ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ، ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا ما دمت عليه قائماً) أى ومن أهل الكتاب طائفة تشاكس المسلمين وتكيد لهم ليرجعوا عن دينهم ، ومنهم طائفة أخرى تستحل أكل أموالهم وأموال غيرهم زعما منهم أن الكتاب لم ينههم إلا عن خيانة إخوتهم من بنى إسرائيل.

والخلاصة — أن أهل الكتاب طائفتان :

(١) طائفة تؤمَن على الكثير والقليل كعبد الله بن سلام استودعه قرشى ألفاً ومائتى أوقية من ذهب فأداها إليه .

(٢) طائفة أخرى تخون الأمانة ، فلو استودعتها القليل جحدته ولا تؤديه إليك إلا إذا أدمت الوقوف على رأسها ملحّا فى المطالبة ، أو لاجئا إلى التقاضى والمحاكمة .

ومن هؤلاء كعب بن الأشرف استودعه قرشى دينارا فجحده .

ثم بين السبب فى فعلهم هذا فقال :

(ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأمين سبيل) أى إن ذلك الترك لأداء الأمانة من قِبَل أنهم زعموا أنه لا تبعة ولا ذم فى أكل أموال العرب .

وخلاصة هذا — أن كل من ليس من شعب الله المختار وليس من أهل دينهم فلا يأبه الله له ، بل هو مبغض عنده محتقر لديه ، فلا حقوق له ، ولا حرمة لماله ، فكل ما يستطاع أخذه منه فلا ضير فيه ، ولاشك أن هذا من الصلف والغرور والغلو فى الدين واحتقار المخالف الذى يستتبع اهتضام حقوقه .

روى ابن جرير أن جماعة من المسلمين باعوا لليهود بعض سلع لهم فى الجاهلية ، فلما أسلموا تقاضوهم الثمن فقالوا : ليس علينا أمانة ولا قضاء لكم عندنا ، لأنكم تركتم دينكم الذى كنتم عليه ، وادعوا أنهم وجدوا ذلك فى كتابهم .

فرد الله عليهم بقوله :

(ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أى وهم يعلمون كذبهم فى ذلك ، لأن ما جاء من عند الله فهو فى كتابه ، والتوراة التى بين أيديهم ليس فيها خيانة الأميين ، ولا أكل أموالهم بالباطل ، وهم يعلمون ذلك حق العلم ، لكنهم لما لم يكتفوا بالكتاب ، ولجئوا إلى التقليد ، وعدوا كلام أحبارهم دينا ، وهؤلاء قالوا فى الدين بالرأى والهوى ، وحرفوا الكلم عن مواضعه ليؤيدوا آراءهم ، وجدوا من هذه الأقوال ما يساعدهم على ما يدَّعون .

روى ابن المنذر عن سعيد بن جبير قال : لما نزلت (ومن أهل الكتاب — إلى قوله ليس علينا فى الأميين سبيل) قال النبى صلى الله عليه وسلم « كذب أعداء الله ، ما من شىء فى الجاهلية إلا وهو تحت قدمىّ هاتين إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البر والفاجر » .

(بلى من أوفى بعهده واتقى فإن الله يحب المتقين) أى بلى عليكم فى الأميين سبيل ، وعليكم الوفاء بعقودكم المؤجلة والأمانات ، فمن أقرضك مالا إلى أجل ، أو باعك بثمن مؤجل أو ائتمنك على شىء وجب عليك الوفاء به ، وأداء الحق له فى حينه دون حاجة إلى الإلحاف فى الطلب ، أو إلى التقاضى ، وبذلك قضت الفطرة وحتمت الشريعة .

وفى هذا إيماء إلى أن اليهود لم يجعلوا الوفاء بالعهد حقا واجبا لذاته ، بل العبرة عندهم بالمعاهَد ، فإن كان إسرائيليا وجب الوفاء له ، ولا يجب الوفاء لغيره .

والعهد ضربان :

(١) عهد المرء لأخيه فى العقود والأمانات كما تقدم .

(٢) عهد الله تعالى ، وهو ما يلتزم به المؤمن لربه من اتباع دينه والعمل بما شرعه على لسان رسوله .

واليهود لم يفوا بشى منهما ، إذ لو وفوا بعهد الله لآمنوا بالنبى صلى الله عليه وسلم ،

واتبعوا النور الذى أنزل معه ، كما وصاهم بذلك كتابهم على لسان رسولهم موسى صلوات الله عليه .

وقد جعل الله جزاء الموفين بالعهد المتقين الإخلاف والغدر ـ محبته تعالى ورحمته لهم فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا إيماء إلى أن الوفاء بالعهود ، و إتقاء الإخلاف فيها وفى سائر المعاصى والخطايا ، هو الذى يقرب العبد من ربه ، و يجعله أهلا لمحبته .

أما الانتساب إلى شعب بعينه فلا قيمة له عند الله ، وفى هذا تعريض بأن أصحاب هذا الرأى من اليهود ليسوا على حظ من التقوى ، وهى الدعامة الأساسية فى كل دين قويم .

(إن الذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمنا قليلا أولئك لا خلاق لهم فى الآخرة ولا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) أى إن الذين يستبدلون بعهد الله إلى الناس فى كتبه المنزلة بأن يلتزموا الصدق والوفاء بما يتعاهدون عليه و يتعاقدون ، وأن يؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وأن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، و يتقوه فى جميع الأمور ، و بما حلفوا عليه من قولهم لنؤمنن به ولننصرنّه ـ ثمنا قليلا هو العوض أو الرُّشا أولئك لا نصيب لهم فى منافع الآخرة ونعيمها ، و يغضب عليهم ربهم ولا ينظر إليهم ولا يثنى عليهم يوم القيامة ، ولهم عذاب هو الغاية فى الألم .

قال القفال : هذه الكلمات يراد بها بيان شدة سخط الله عليهم ، لأن من منع غيره كلامه فى الدنيا ، فإنما ذلك لسخطه عليه ، وقد يأمره بحجبه عنه ، و يقول لا أ كلمك ولا أرى وجهك ، و إذا جرى ذكره لم يذكره بالجميل اه .

وصفوة القول ـ أن الله توعد الناكثين للعهد ، المخلفين للوعد بالحرمان من النعيم وبالعذاب الأليم ، و بأنهم يكونون فى غضب الله ، بحيث لا ترجى لهم رحمة ، ولا يسمعون منه تعالى كلمة عفو ولا مغفرة .

ولم يتوعد الله مرتكبي الـكبائر من الزناة وشاربي الخمر ولاعبي الميسر وعاقّ الوالدين بما توعد به ناكثي العهود وخائني الأمانات ، لأن مفاسدهما أعظم من جميع المفاسد التي لأجلها حرمت تلك الجرائم .

فالوفاء بها آية الدين البينة ، والمحور الذي تدور عليه مصالح العمران ، فمتى نكث الناس في عهودهم زالت ثقة بعضهم ببعض ، والثقة روح المعاملات وأساس النظام .

والإيمـان بالله لايجتمع مع الخيانة والنكث بالعهد ، ألا ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم جعله علامة النفاق فقال: «آية المنافق ثلاث ، إذا حدث كذب ، و إذا وعد أخلف ، و إذا أوتمن خان » .

وروى الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : ما خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال: « لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولادين لمن لاعهد له » .

فما بال كثير من المسلمين حتى المتدينين منهم ، استهانوا بالعهود ، وأصبحوا لايحفظون الإيمان ، ويرون ذلك شيئا صغيرا ، مع كل ما رأوا من شديد التهديد والوعيد ويكبرون أمر المعاصي التي لم يتعودوها ، لعدم الإلف والعادة فقط ، مع أنها دون ذلك عند الله كما تدل عليه هذه الآية :

أخرج ابن جرير عن عكرمة قال : نزلت هـذه الآية في أبي رافع ولُبابة بن أبي الْحُقَيق وكعب بن الأشرف وحُيَيّ بن أخطب ، حرفوا التوراة و بدلوا نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وحكم الأمانات وغيرها ، وأخذوا على ذلك الرشا .

وروى البخاري وغيره أن الأشعث بن قيس قال: كان بيني و بين رجل من اليهود أرض فجحدنيها ، فقدته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أَلك بينة ؟ قلت لا ، فقال لليهودي احلف ، فقلت يا رسول الله إذن يحلف فيذهب مالي ، فأنزل الله (إن الذين يشترون بعهد الله) الآية .

قال الحافظ ابن حجر والآية محتملة لأن يكون هذا سبب النزول ، أو ذاك ، والعمدة في ذلك ما ثبت في الصحيح .

وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقاً يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ، وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (٧٨)

شرح المفردات

ليّ اللسان بالكتاب : فتله للكلام وتحريفه بصرفه عن معناه إلى معنى آخر كما فى الألفاظ التى جاءت على لسان عيسى من نحو ابن الله وتسمية الله أبا له، وأبا للناس، فهذا مما لا يراد به المعنى الحقيقى ، لكنهم لوّوه ونقلوه إلى المعنى الحقيقى بالنسبة إلى المسيح وحده، وأوهموا الناس أن الكتاب جاء بهذا .

المعنى الجملى

بين الله تعالى فى هذه الآية حال طائفة ثالثة من أهل الكتاب ، وهم بعض علماء اليهود الذين كانوا حول المدينة ، ومن لفّ لِفَّهم وسار على طريقهم، افتعلوا نوعا آخر من الخيانة فى الدين بالافتراء على الله مالم يقله .

روى عن ابن عباس أن هذا الفريق هم اليهود الذين قدموا على كعب ابن الأشرف وكان شديد العداوة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كثير الإيذاء له والإغراء به ، غيروا التوراة وكتبوا كتابا بدلوا فيه صفة النبى صلى الله عليه وسلم ، فأخذت قُريظة ما كتبوه فخلطوه بالكتاب الذى عندهم وجعلوا يلوون ألسنتهم بقراءته يوهمون الناس أنه من التوراة .

الإيضاح

(وإن منهم لفريقا يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب) أى وإن طائفة من اليهود ككعب بن الأشرف ومالك بن الصيف وأضرابهما ، يفتلون ألسنتهم

بقراءته ، فيميلونها عن المنزل إلى المحرف ، لتظنوا أيها المسلمون أن ذلك المحرف من كلام الله وتنزيله ، وما هو من عند الله ، ولكنه من عند أنفسهم .

وقد جاء فى كتب السيرة والحديث ـ أن اليهود كانوا إذا سلموا على النبى صلى الله عليه وسلم يمضغون كلمة (السلام) فيخفون اللام ، ويقولون (السام عليكم) غير مفصحين بالكلمة ، لأنهم يريدون معنى السام وهو الموت .

وجاء فى سورة النساء قوله تعالى : « مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ ، وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاسْمَعْ وَانْظُرْنَا لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَقْوَمَ » فهؤلاء وضعوا (غير مسمع) مكان (لا أسمعت مكروها) التى تقال عادة عند الدعاء (وراعنا) مكان (انظرنا) التى يقولها الناس لمن ينتظرون معونته ومساعدته .

وإنما قالوا (غير مسمع) لأنها قد تستعمل فى الدعاء على المخاطب بمعنى لا سمعت وقالوا (راعنا) لأن هذه الكلمة عبرانية أو سريانية كانوا يتسابون بها .

ثم أكد ما سبق بقوله .

(ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله) أى إنهم كاذبون فيما يقولون ، وفى هذا تشنيع عليهم بأن الجرأة قد بلغت بهم حدا عظيما ، فهم لم يكتفوا بالتعريض والتورية بل يصرحون بنسبته الى الله كذبا لعدم خوفهم منه ، واعتقادهم أنه يغفر لهم جميع ما يجترحون من الذنوب ، لأنهم من أهل ذلك الدين .

وليس ذلك بالغريب عليهم ، فإنا نرى كثيرا من المسلمين اليوم يعتقدون أن المسلم من أهل الجنة حتما مهما أصاب من الذنوب لأنه إن لم تدركه الشفاعة أدركته المغفرة ، ويجلّى اعتقادهم ذلك قولهم (أمة محمد بخير) .

فالمسلم فى نظرهم من اتخذ الإسلام دينا ، وإن لم يعمل بما جاء فى كتاب الله وسنة رسوله من صفات المسلمين الصادقين ، بل فعل فعل الكافرين والمنافقين .

(ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) أنهم كاذبون ، وهذا تسجيل عليهم بأن ما افتروه على الله كان عن عمد لا عن خطأ .

مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللهِ، وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ (٧٩) وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا ، أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ (٨٠)

شرح المفردات

البشر: الإنسان ذكرا كان أو أنثى ، واحدا كان أو جمعاً، والحكم: الحكمة وهى فقه الكتاب ومعرفة أسراره ، وذلك يستلزم العمل به ، والعباد واحدهم عبد بمعنى عابد ، والعبيد جمع لعبد بمعنى مملوك ، وهو لا يمتنع أن يكون لغير الله ، والربانيين واحدهم ربانى وهو كما قال سيبويه المنسوب إلى الرب ، لأنه عالم به مواظب على طاعته ، كما يقال رجل إلهى إذا كان مقبلا على معرفة الإله وطاعته ، روى أن محمد ابن الحنفية قال يوم مات ابن عباس : اليوم مات ربّانى هذه الأمة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه فيما سلف افتراء اليهود على الله الكذب ، ونسبتهم إليه ما لم يقله ـ أردف ذلك بذكر افترائهم على الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين .

أخرج ابن إسحق وغيره عن ابن عباس قال : قال أبو رافع القُرَظى حين اجتمعت الأحبار من اليهود والنصارى من أهل نجران عند رسول الله صلى الله عليه

وسلم وقد دعاهم إلى الإسلام : أتريد يا محمد أن نعبدك كما تعبد النصارى عيسى ابن مريم؟ وقال رجل نصرانى من أهل نَجْرَانَ : أو ذاك تريد؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : معاذ الله أن نعبد غير الله ، أو نأمر بعبادة غيره ، ما بذلك بعثنى الله ، ولا بذلك أمرنى فأنزل الله الآية .

وأخرج عبد الرزاق عن الحسن قال : بلغنى أن رجلا قال يا رسول الله نسلم عليك كما يسلم بعضنا على بعض ، أفلا نسجد لك ؟ قال لا ، ولكن أكرموا نبيكم واعرفوا الحق لأهله ، فإنه لا ينبغى أن يسجد لأحد من دون الله تعالى فأنزل الله (ما كان لبشر) الآيتين .

الإيضاح

(ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عبادا لى من دون الله) أى لا ينبغى لأحد من البشر أن ينزل الله عليه كتابه ، ويعلمه فقه دينه ومعرفة أسراره ، ويعطيه النبوة ، ثم يدعو الناس إلى عبادة نفسه دون الله ، لأن من آتاه الله ذلك فإنما يدعوهم إلى العلم به ، ويحثهم على معرفة شرائع دينه ، وأن يكونوا القدوة فى طاعته وعبادته ، ومعلِّمى الناس الكتاب .

ومعنى قوله من دون الله أى متجاوزين ما يجب من إفراده تعالى بالعبادة ، فإن العبادة الصحيحة لا تتحقق إلا إذا أخلصت له وحده ، ولم تشبها شائبة من التوجه إلى غيره كما قال تعالى : « قُلِ اللهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي » .

ومن دعا إلى عبادة نفسه فقد دعا الناس إلى أن يكونوا عابدين له من دون الله وإن لم ينههم عن عبادة الله ، بل وإن امرهم بعبادة الله .

ومن جعل بينه وبين الله واسطة فى العبادة كالدعاء ، فقد عبد هذه الواسطة من دون الله ، لأن هذه الواسطة تنافى الإخلاص له وحده ، وحين ينتفى الإخلاص تنتفى العبادة ، ومن ثم قال تعالى : « فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ أَلاَ لِلّٰهِ الدِّينُ

الْخَالِصُ ، وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ » الآية .

فتوسلهم بالأولياء جعله تعالى يقول إنهم اتخذوا من دونه أربابا ، ويقول صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى : أنا أغنى الشركاء عن الشرك ، من عمل عملا أشرك فيه معى غيرى تركته وشركه ، وفى رواية : فأنا منه برىء ، هو للذى عمله ، رواه مسلم وغيره .

وقال صلى الله عليه وسلم : إذا جمع الله الناس يوم القيامة نادى مناد : من أشرك فى عمل عمله لله أحدا فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك رواه أحمد .

(ولكن كونوا ربّانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون) أى ولكن يأمرهم النبى الذى أوتى الكتاب والحكم بأن يكونوا منسوبين إلى الرب مباشرة من غير توسطه هو ، ولا التوسل بشخصه ، وإنما يهديهم إلى الوسيلة الحقيقية الموصلة إلى ذلك ، وهى تعليم الكتاب ودراسته ، فبعلم الكتاب وتعليمه والعمل به يكون الإنسان ربّانيا مرضيا عند الله ، إذ العلم الذى لا يبعث على العمل لا يعد علما صحيحاً ، ومن ثم استغنى بذكره عن ذكر التصريح بالعمل .

(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا) أى ما كان لبشر أن يستنبئه الله ، ثم يأمر الناس بعبادة نفسه ، ويأمر باتخاذ الملائكة والنبيين أربابا ، ومثال ذلك أن تقول : ما كان لمحمد أن أكرمه ، ثم يهيننى ويستخف بى ، وقد نقل عن مشركى العرب عبادة الملائكة ، وقالت اليهود عزير بن الله ، وقالت النصارى المسيح ابن الله فجاء الإسلام فبين أن هذا مخالف لما جاء به الأنبياء من الأمر بعبادة الله وحده ، وإخلاص الدين له والنهى عن عبادة غيره ، ومن ثم قال :

(أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون ؟) أى أيأمركم بعبادة الملائكة والسجود

للأنبياء ، بعد توحيدهم لله والإخلاص له ، إذ لو فعل ذلك لكفر ، ونزعت منه النبوة والإيمان ، ومن آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة يكون أعلم الناس بالله ، فإن الله لا يؤتى وحيه إلا نفوسا طاهرة ، وأرواحا طيبة ، فلا تجتمع نبوة ودعاء إلى عبادة غير الله .

وأثر عن على كرم الله وجهه أنه قال : قصم ظهرى رجلان ، عالم متهتك ، وجاهل متنسّك ، لأن العالم ينفرّ الناس عن العلم بتهتكه ، والجاهل يرغّب الناس فى الجهل بتنسكه .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «نعوذ بالله من علم لا ينفع ، وقلب لا يخشع» .

وَإِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِى ؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٨١) فَمَنْ تَوَلَّى بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٨٢) أَفَغَيْرَ دِينِ اللهِ يَبْغُونَ ؟ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٨٣)

شرح المفردات

الميثاق العهد المؤكد الموثّق ، وهو أن يلتزم المعاهد (بكسر الهاء) للمعاهد (بفتحها) أن يفعل شيئاً ويؤكد ذلك بيمين أو بصيغة مؤكدة من ألفاظ المعاهدة أو المواثقة ، أقررتم من قرّ الشيء إذا ثبت ولزم قرارة مكانه ، وأخذتم أى قبلتم كما جاء نحوه فى قوله تعالى : « إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ » والإصر العهد المؤكد الذى يمنع صاحبه من التهاون فيما التزمه وعاهد عليه .

المعنى الجملى

سبقت هذه الآيات كسابقتها لإثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم بتعداد أشياء معروفة عند أهل الكتاب ، قطعا لعذرهم ، وإظهارا لعنادهم ، ودحضاً لمزاعمهم ، وإزالة لشبهات من أنكر منهم بعثة نبى من العرب .

وهذه الحجة التى تقررها هذه الآيات من الحجج التى تفند تلك الترّهات والأباطيل التى يدعونها ، وهى أن الله تعالى أخذ الميثاق على جميع النبيين وعلى أتباعهم بالتبع لهم ، بأنهم مهما عظمت المنة عليهم بما آتاهم من كتاب وحكمة ، فالواجب عليهم أن يؤمنوا بمن يرسل بعدهم مصدقا لما معهم ، وأن ينصروه نصرا مؤزّرا ، وأن من تولى بعد ذلك كان من الفاسقين .

الإيضاح

(وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه) أى واذكر لهم وقت أخذ الله الميثاق من النبيين ، أنهم كلما جاءهم رسول من بعدهم مصدق لما معهم آمنوا به ونصروه ، مهما كانوا قد أوتوا من كتاب وحكمة ، لأن القصد من إرسال الأنبياء واحد ، فيجب أن يكونوا متكافلين متناصرين ، فإذا جاء واحد منهم فى زمن نبى آخر آمن به السابق ونصره بما استطاع ، ولا يستلزم ذلك نسخ شريعة الأول ، إذ المقصود تصديق دعوته ، ونصره على من يؤذيه ويناوئه .

فإن تضمنت شريعة الثانى نسخ شىء من شريعة الأول وجب التسليم له ، وإلا صدّقه فى الأصول التى هى واحدة فى كل دين ، ويؤدى كل منهما مع أمته العبادات والمناسك التفصيلية ، ولا يعد هذا اختلافا وتفرقا فى الدين ، فمثل هذا قد يأتى فى الشريعة الواحدة ، ففى كفارة اليمين أو غيرها يكفر شخص بالصيام ،

وآخر بإطعام الطعام ، وما سبب هـذا إلا حال الشخصين ، فكل منهما أدى ما سهل عليه .

ألا ترى أن الملك إذا أرسل أميرين فى عصر واحد إلى ولايتين متجاورتين ، وجب على كل منها نصر الآخر حين الحاجة مع اتفاقهما فى السياسة العامة للدولة .

وقد يكون بين الولايتين اختلاف فى طباع الأهالى واستعدادهم ، وفى حال البلاد فى اليسر والرخاء ، فيقتضى ذلك اختلاف تفاصيل الالتزامات ، فتكون الضرائب كثيرة فى إحداهما قليلة فى الأخرى ، والقوانين صارمة فى واحدة ، وسهلة هينة فى الثانية ، وكل من العاملَين يعمل للمصلحة العامة للدولة .

وهكذا حال النبيين يؤمن كل منهما بما جاء به الآخر مع الموافقة فى الأصول دون الفروع ، كما آمن لوط بما جاء به إبراهيم وأيده فى دعوته وقد كان فى عصره .

أما إذا بعث الله النبيَّين فى أمة واحـدة فإنهما يكونان متفقين فى كل شىء كما حدث لموسى وهرون عليهما السلام ، وبهذا تفهم معنى تصديق النبى صلى الله عليه وسلم بالـكتب السابقة ، وبمن جاء بها من الرسل ، وليس المعنى أن تفاصيل شريعته توافق تفاصيل شرائعهم .

وفى الآية إيماء إلى أنه لاينبغى أن يكون الدين مصدر العداوة والبغضـاء ، كما فعل أهل الـكتاب حين عادَوُا النبى صلى الله عليه وسلم ، وكادوا له بعد أن دعاهم إلى كلمة سواء ، ولم يكن منهم إلا الصد والإعراض والـكيد والجحود .

وصفوة القول — أنكم يا أهل الـكتاب ملزمون باتباع محمد صلى الله عليه وسلم والتصديق بشريعته بمقتضى الميثاق الذى أخذ على كل من موسى وعيسى ـ أنه إذا جاء نبى بعده ، وصدق بما معه يؤمن به وينصره .

وإيمانكم بموسى أو عيسى يقتضى التصديق بكل ما يؤمن به كل منهما .

(قال أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟) أى قال الله تعالى للنبيين : أأقررتم بالإيمان والنصر له ، وقبلتم العهد على ذلك .

(قالوا أقررنا ، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين) أى قالوا أقررنا بذلك ، قال الله تعالى : ليشهد بعضكم على بعض وأنا معكم شاهد عليكم ، لايعزب عن علمى شىء .

وهذا الحوار لتثبيت المعنى وتوكيده على طريق التمثيل ، وليست الآية نصا فى أن هذه المحاورة وقعت ، وهذه الأقوال قيلت وله نظائر كثيرة فى الأساليب العربية

(فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون) أى فمن أعرض بعد أخذ الميثاق على هذه الوحدة ، واتخذ الدين آلة للتفريق والعدوان ، ولم يؤمن بالنبي المتأخر المصدق لمن تقدمه ، ولم ينصره ، فأولئك الجاحدون هم الفاسقون ، فأهل الكتاب الذين جحدوا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، خارجون عن ميثاق الله ناقضون لعهده ، وليسوا من الدين الحق فى شىء .

وبعد أن بين أن دين الله واحد ، وأن رسله متفقون فيه ــ ذكر حال منكرى نبوة محمد صلى الله عليه وسلم فقال :

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها) أى أيتولون عن الحق بعد ما تبين ويبغون غير دين الله وهو الإسلام والإخلاص له فى العبادة فى السر والعلن ، وقد خضع لله تعالى وانقاد لحكمه أهل السموات والأرض ، ورضوا طائعين مختارين لما يحل بهم من تصاريف أقداره .

وصفوة القول — أن الدين الحق هو إسلام الوجه لله تعالى ، والإخلاص له ، وأن الأنبياء جميعا كانوا على ذلك ، وقد أخذوا بذلك ميثاقهم على أممهم ، ولكنهم نقضوه ، إذ جاءهم النبي الموعود به يدعوهم إليه فكذبوه .

(وإليه ترجعون) أى وإليه يرجع من اتخذ غير الإسلام دينا من اليهود والنصارى وسائر الخلق ، وحينئذ يجازون بإساءتهم وترك الدين الحق .

وفى هذا وعيد وتهديد لهم .

قُلْ آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (٨٤) وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ(٨٦)

شرح المفردات

الأسباط : الأحفاد واحدهم سبط وهم أبناء يعقوب الاثنا عشر وذراريهم وخصهم بالذكر لأن أهل الكتاب يعترفون بنبوتهم وكتبهم ، مسلمون أي مستسلمون منقادون بالطاعة له فيما به أمر وعنه نهى ، والخسران : ذهاب رأس المال ، ويراد به هنا تضييع ما جبلت عليه الفطر السليمة ومن الانقياد لله وطاعته ، والإيمان لغة التصديق إما بالقلب كأن يقول إنسان شيئا ، فتعتقد صدقه ، و إما باللسان كأن تقول له صدقت والإسلام : الانقياد والخضوع ، وقد جعل لهما القرآن معنى خاصا ، فأطلق الإيمان على الإيمان بالله واليوم الآخر وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، بحيث يكون لهذا التصديق سلطان على الإرادة والوجدان ، ويكون من ثمراته العمل الصالح الذى يصل بصاحبه إلى الفوز بالسعادة فى الدنيا والآخرة ، وأطلق الإسلام على توحيد الله والإخلاص له فى العبادة ، والانقياد لما أرشد إليه على ألسنة رسله .

والإيمان والإسلام بهذين المعنيين يتواردان على حقيقة واحدة يتناولها كل منهما بالاعتبار ، ومن ثم عدّا شيئاً واحداً فى هـذه الآيات ، وبهما يكون الفوز بالنجاة فى الآخرة .

وأما ماجاء فى قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » فقد أريد بالإيمان المعنى اللغوى وهو الثقة واطمئنان القلب وهذا لم يحصل لهم بعدُ ، بدليل أنهم امتنّوا على الرسول

صلى الله عليه وسلم بالإسلام وترك القتال ، ولكن دخلوا فى السلم وترك الحرب والنطق بالشهادتين .

كذلك إطلاق الإسلام على هذا الدين المعروف الذى عليه المسلمون اليوم إطلاق حادث لا يعرفه القرآن ولم ينطق به ، وإنما نطق بالإسلام وأراد به الاستسلام والانقياد كما علمت مما سبق ، فمن اتبعه كان مرضيا عند الله ، ومن خالفه كان باغياً لغير دين الله .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أخذ الميثاق من النبيين أن يؤمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وينصروه — ذكر هنا أمر محمد صلى الله عليه وسلم أن يؤمن بالأنبياء المؤمنين به ، وبكتبهم ، وأمته تابعة له فى ذلك .

وخلاصة ذلك — أن الله أخذ الميثاق من النبيين المتقدمين منهم والمتأخرين على الإيمان بالله والكتب المنزلة على أنبيائه .

الإيضاح

(قل آمنا بالله) أى قل آمنت أنا ومن معى بوجود الله ووحدانيته وتصرفه فى الأكوان .

(وما أنزل علينا) وهو القرآن المنزل عليه صلوات الله عليه أولا ، وعلى أمته بتبليغه إليهم .

(وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط) أى وصدقنا بأن الله أنزل على هؤلاء وحياً لهداية أقوامهم ، وأنه موافق فى جوهره والمقصود منه لما أنزل علينا كما قال تعالى : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » .

(وما أوتى موسى وعيسى) من التوراة والإنجيل وسائر المعجزات .

وخص هذين النبيين بالذكر ، لأن الكلام مع اليهود والنصارى .

(والنبيون من ربهم) أى وما أوتى النبيون من ربهم كداود وسليمان وأيوب وغيرهم ممن لم يقص الله سبحانه علينا قصصهم .

وقدم الإيمان بما أنزل علينا على الإيمان بما أنزل على من قبلنا ، مع كونه أنزل قبله ـ لأن ما أنزل علينا هو الأصل فى معرفة ما أنزل عليهم ، والمثبت له ، ولا طريق لإثباته سواه .

فما أثبته القرآن الكريم من نبوة كثير من الأنبياء نؤمن به إجمالا فيما أجمل، وتفصيلا فيما فصل ، وكذلك كتبهم ، مع العلم بأن جوهر الدين واحد لدى الجميع ، وهو الإيمان بالله و إسلام القلب له مع العمل الصالح ، والإيمان باليوم الآخر .

(لا نفرّق بين أحد من رسله) فنصدق ببعض ونكفر ببعض كما فعل اليهود والنصارى ، فما مثل الأنبياء إلا مثل الأمراء الأمناء الصادقين يرسلهم السلطان على التعاقب للقيام بشئون ولاية من ولاياته ، و إصلاح أحوال أهلها ، وعمل القوانين النافعة لحكمها ، فقد يغير التالى بعض قوانين السابق على حسب ما يرى من تبدل طباع أهلها وعاداتهم ، من شراسة إلى لين ، ومن جهل إلى علم ، ومن بداوة إلى مدنية وحضارة ، وما المقصد من كل هذا إلا عمرانها و بذل الوسع فى سعادة أهلها ، و إيصال الخير إليهم .

(ونحن له مسلمون) أى ونحن منقادون له بالطاعة ، لا نبتغى بذلك إلا التقرب إليه بإصلاح نفوسنا ، وتزكية أرواحنا ، وتطهيرها من أدران الذنوب والخطايا .

وقد افتتحت الآية بالإيمان ، واختتمت بالإسلام والخضوع وهو الثمرة والغاية من كل دين أرسل به نبى ، فقال تعالى :

(ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه) لأن الدين إذا لم يصل بصاحبه إلى هذا الخضوع والانقياد لله تعالى كان رسوما وتقاليد لا تجدى شيئا ، بل تزيد النفوس فسادا ، والقلوب ظلاما ، ويكون حينئذ مصدر الشحناء والعداوة بين الناس

فى الدنيا ، ومصدر الخسران فى الآخرة ، بالحرمان من النعيم المقيم ، والعذاب الأليم .

(وهو فى الآخرة من الخاسرين) لأنه أضاع ما جبلت عليه الفطر السليمة من توحيد الله والانقياد له كما جاء فى الحديث « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجّسانه » وخسر نفسه إذ لم يزكها بالإسلام لله ، وإخلاص السريرة له كما قال تعالى : « قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، أَلاَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ » .

كَيْفَ يَهْدِى اللهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ ، وَجَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (٨٦) أُولَئِكَ جَزَاؤُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللهِ وَالْمَلاَئِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لاَ يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلاَ هُمْ يُنْظَرُونَ (٨٨) إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)

شرح المفردات

الظلم : هو العدول عن الطريق الذى يجب سلوكه للوصول إلى الحق ، واللعن الطرد : والإبعاد على سبيل السخط ، والإنظار : الإمهال والتأخير .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حقيقة الإسلام وأنه الدين الذى بعث الله به جميع الأنبياء ، ولا يقبل من أحد غيره ، أردف ذلك بذكر حال الكافرين به ، وجزاءهم عند ربهم .

أخرج عبد بن حميد وغيره عن الحسن : أن أهل الكتاب من اليهود والنصارى رأوا نعت محمد صلى الله عليه وسلم فى كتابهم ، وأقروا وشهدوا أنه حق ، فلما بعث

من غيرهم حسدوا العرب على ذلك فأنكروه وكفروا بعد إقرارهم حسدا للعرب حين بعث من غيرهم .

وقال عِكْرِمة : هم أبو عامر الراهب والحرث بن سويد فى اثنى عشر رجلا رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش ، ثم كتبوا إلى أهلهم : هل لنا من توبة ؟ فنزلت الآية فيهم ، وأكثر الروايات على هذا .

الإيضاح

(كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات ؟) أى كيف يسلك الله بمثل هؤلاء سبيل المهتدين ، بأثابتهم والثناء عليهم ، وقد كفروا بعد إيمانهم ، وبعد أن شهدوا أن الرسول حق وجاءتهم الشواهد من القرآن وسائر المعجزات التى بمثلها تثبت النبوة ؟

وشهادتهم أن الرسول حق كانت بمعرفتهم بشارات الأنبياء بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وكانوا عازمين على اتباعه ، إذا جاء فى زمنهم ، وانطبقت عليه العلامات وظهرت فيه البشارات ، لكنهم بعد أن جاءهم بالبينات ، وظهرت الآيات على يديه كفروا به وعاندوه .

وفى الآية استبعاد لهدايتهم على حسب سنن الله تعالى فى البشر ، وإيئاس للنبى صلى الله عليه وسلم من إيمانهم ، فمن سنن الله تعالى فى هداية البشر إلى الحق أن يقيم لهم الدلائل والبينات مع إزالة الموانع من النظر فيها على الوجه الذى يؤدى إلى المطلوب ، وقد مكن لهم الله من كل هذا من قبل ، ومن ثم آمنوا به .

(والله لايهدى القوم الظالمين) أى إن الله لايهدى أمثال هؤلاء الظالمين لأنفسهم الجانين عليها ، لأنهم تنكبوا عن الطريق القويم ، وتركوا هداية العقل ، بعد أن ظهر نور النبوة ، وعرفوه بالبينات .

(أولئك جزاؤهم أن عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) أى هؤلاء

يستحقون سخط الله وغضبه ، وسخط الملائكة والناس ، إذ هم متى عرفوا حقيقة حالهم لعنوهم ، لأنها مجلبة للعن بطبعها لكل من عرفها ، كما قال تعالى : « وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا » .

(خالدين فيها) أى خالدين فى اللعنة مسخوطاً عليهم إلى الأبد .

(لا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينظرون) أى لاينقصون من العذاب شيئاً ، ولا هم يمهلون لمعذرة يعتذرون بها ، لأن سببه ما ران على قلوبهم من ظلمات الجحود والعناد ، وسخط الله وغضبه ، وهو معهم لايفارقهم أينما كانوا .

(إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا فإن الله غفور رحيم) أى إلا الذين تابوا من ذنوبهم ، وثابوا إلى ربهم ، وتركوا ذلك الكفر الذى دنسوا به أنفسهم نادمين على ما أصابوا منه ، وأصلحوا نفوسهم بصالح الأعمال التى تغذى الإيمان وتمحو من صفحة القلب ما كان قد ران عليها من ذميم الأخلاق والصفات .

وفى هذا إيماء إلى أن التوبة التى لا أثر لها فى العمل لايعتد بها فى نظر الدين ، إذ كثير من الناس يظهرون التوبة بالندم والاستغفار والرجوع عن الذنب ، ثم لايلبثون أن يعودوا إلى مثل ما كانوا قد اجترحوا من السيئات ، لأن التوبة لم يكن لها أثر فى نفوسهم ينبههم إذا غفلوا ، ويهديهم إلى اتخاذ الطرق الموصلة لإصلاح شئونهم ، وتقويم المعوج من أمورهم ، فإذا هم فعلوا ذلك نالهم من مغفرة ربهم ما يؤهلهم لدخول جنته ، والفوز برحمته .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ

يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ، أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٩١)

المعنى الجملى

الكافرون أصناف ثلاثة :

(١) الذين يتوبون توبة صحيحة مقبولة ، وهم الذين ذكرهم الله فى الآية السالفة التى ختمها بقوله : « إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا » .

(٢) الذين يتوبون توبة غير مقبولة وهم المذكورون فى قوله: « لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ » .

(٣) الذين يموتون على الكفر من غير توبة وهم من ذكروا فى الآية الأخيرة .

الإيضاح

(إن الذين كفروا بعد إيمانهم ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم) المراد بالذين كفروا هم أهل الكتاب الذين آمنوا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهدوا أنه حق قبل مبعثه ، ثم كفروا به بعد البعث ، ثم ازدادوا كفرا بالإصرار والعناد والصد عن سبيل الله وبالحرب والكفاح ، فالكفر يزداد قوة واستقرارا وتمكنا بالعمل بما ينميه ويقويه من الأعمال التى يقاوم بها الإيمان ، والإيمان كذلك .

هؤلاء لن تقبل لهم توبة ، لأن الشر قد تغلغل فى نفوسهم وتمكن فيها الكفر فإذا أرادت التوبة وجدت من الموانع ما يحول بينها وبين قبول الحق والخير .

وظاهر الآية يخالف ما صرح به القرآن فى غير موضع ، كقوله فى الآية السابقة إلا الذين تابوا ، وقوله : « وَهُوَ الَّذِى يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » .

ولكن بالتفسير الآتى يتضح المعنى ـ ذاك أنه تعالى بعد أن بين حكم من كفر ، وأنه أهل للعن والطرد إلا إن تاب ، ذكر هنا أنه لو كفر مرة أخرى بعد تلك التوبة فإن التوبة الأولى تصير غير مقبولة حتى كأنها لم تكن ، ويكون المعنى فى هذه الآية

وما قبلها إلا الذين تابوا وأصلحوا فإن الله غفور رحيم ، فإن كانوا كذلك ثم ازدادوا كفرا لن تقبل توبتهم ، لأن نفوسهم قد توغل فيها الشرك ، وتمكن فيها الكفر وأحاطت بها خطيئتها وضلت على علم ، فإذا أرادت التوبة وجدت ما يحول بينها وبين قبول الحق والخير ، إلا إذا أحست النفس بألم الذنب ، فيحملها ذلك على تركه ومحو أثره المدنس لها بعمل صالح يحدث فيها أثرا مضاداً للأثر الأول .

وبهذا تؤهل صاحبها للمغفرة وترك العقوبة على الذنب ، إذ تكون النفس قد زكت وطهرت من الأدناس كما قال تعالى : « قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خابَ مَنْ دَسَّاهَا » .

وما مثل ذلك إلا مثل الثوب الأبيض تصيبه بعض الأوساخ ، فيبادر صاحبه إلى غسله ، فينظُفُ ويزول أثر ذلك الدنس .

ولكن إذا تراكمت عليه الأقذار مدة طويلة حتى تخللت جميع خيوطه ، وتمكنت منها تعذر تنظيفه وإعادته إلى حاله الأولى .

وبين هذه الحال وما قبلها مراتب متفاوتة .

وقد أشير إلى ذلك بقوله تعالى : « إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمُوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ ، وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً » .

(وأولئك هم الضالون) أى إن هؤلاء المتقلبين فى الكفر هم المتمكنون من الضلال المخطئون سبيل الحق والنجاة ، لا ترجى لهم هداية ، ولا تقبل منهم توبة .

(إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهباً) ملء الشيء (بالكسر) مقدار ما يملؤه ، أى إن هؤلاء الذين يقيمون على الكفر ويعملون أعمال الكفار حتى يدركهم الموت على هذه الحال ـ فلن يقبل من أحدهم

ملء الأرض ذهباً إذا كان قد تصدق به فى دنياه ، ولا يفيد ذلك فى نجاته من عذاب النار ، لأن الكفر يحبط أعماله ، ويمحو كل حسناته ، فمن لم تزكُ نفسه فى الدنيا ، وتسمُ عما يكدرها من ظلمات الكفر وأوضار الشرك ـ فلن ينفعها يوم مناقشة الحساب عمل وإن جلّ ، ولا فضيلة وإن عظمت ، إذ المعول عليه فى ذلك اليوم هو الإيمان الصحيح بالله واليوم الآخر ، والعمل الصالح الذى يرقى بصاحبه إلى حظيرة القدس فى جوار الرب الرحيم .

(ولو افتدى به) أى ولو افتدى به فى الآخرة لايقبل منه أيضا على تقدير أنه يملكه ، ويريد أن يجعله وسيلة النجاة والمنقذ من العذاب ، كما يعطى الناس الرشا للحكام الظالمين ليزيلوا عنهم ما قد يحل بهم من العذاب .

ونحو الآية قوله تعالى: « فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » ذلك أن النجاة فى هذا اليوم لا تكون بمال يبذل ، ولا بجاه ينفع ، بل جعل أمرها موقوفا على صفاء النفس واستعدادها ، فمن زكاها بالإيمان مع العمل الصالح فقد أفلح ، ومن دسّاها بالكفر وسيء الأعمال فقد خاب وخسر .

وصفوة القول — أنه لا طريق للافتداء على أىّ حال لو أريد .

ويرى بعض المفسرين أن الكلام من قبيل التمثيل ، إذ لا حاجة إلى الذهب ولا إلى إنفاقه ، إذ الأشقياء لا نصير لهم ينفق عليهم ، والأولياء فى غنى بفضل الله ورحمته عمن ينفق عليهم .

(أولئك لهم عذاب أليم وما لهم من ناصرين) يدفعون العذاب عنهم أو يخففونه كما كانوا ينصرونهم فى الدنيا إذا حاول أحد أذاهم أو إيقاع المكروه بهم .

لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (٩٢)

شرح المفردات

نال الشيء نيلا : إذا أصابه ووجده ، يقال نال العلم إذا وصل إليه واتصف به ، والبرّ : ما يكون به الإنسان باراً ، وماتحبون هو نفائس الأموال وكرائمها ، لأن شأنها عند النفوس عظيم ، فكثيراً ما يخاطر الإنسان بنفسه ، ويستسهل بذل روحه للدفاع عن ماله .

المعنى الجملى

بعد أن حاج الله تعالى أهل الكتاب فيما ادّعوه من الإيمان ، وأنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة محصورة فيهم لا تعدوهم إلى غيرهم ، وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات .

خاطبهم هنا بأن آية الإيمان وميزانه الصحيح هو الإنفاق فى سبيل الله من المحبوبات ، مع الاخلاص وحسن النية ، ولكنكم أيها المدّعون لتلك الدعاوى آثرتم شهوة المال على مرضاة الله ، ولو أنفق أحدكم شيئاً من ماله فإنما ينفق من أردأ ما يملك وأبغضه إليه ، لأن محبة المال فى قلبه تفوق محبة الله تعالى ، والرغبة فى ادّخاره تعلو الرغبة فيما عند ربه من الرضا والثواب .

فكيف ترجون أن تكونوا من المؤمنين الصادقين وأنتم لا تنفقون ما تحبون ؟

الإيضاح

(لن تنالو البر حتى تنفقوا مما تحبون) أى لن تصلوا إلى بر الله تعالى بأهل طاعته برضاه عنهم ، وتفضله برحمتهم ، ونيلهم مثوبته ، ودخولهم جنته ، وصرف عذابه عنهم حتى تنفقوا ما تهواه نفوسكم من كرائم أموالكم .

وقد أثر عن السلف الصالح أنهم كانوا إذا أحبوا شيئا جعلوه لله تعالى .

روى البخارى ومسلم عن أنس رضى الله عنه قال : كان أبو طلحة أكثر الأنصار نخلا بالمدينة ، وكان أحب أمواله إليه بيرْحاء (موضع) وكانت مستقبلة المسجد ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يدخلها ويشرب من ماء طيب فيها ، فلما نزلت (لن تنالو البر حتى تنفقوا مما تحبون) قال أبو طلحة يا رسول الله : إن أحب أموالى الىّ بير حاء ، وإنها صدقة لله تعالى أرجو برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعْها يا رسول الله حيث أراك الله تعالى ، فقال عليه السلام بَخٍ بَخٍ (كلمة تقال عند الرضا والإعجاب بالشيء) ذاك مال رابح ، وقد سمعتُ ماقلتَ ، وإنى أرى أن تجعلها فى الأقربين فقال أفعل يا رسول الله ، فقسمها أبو طلحة فى أقاربه وبنى عمه . وفى رواية لمسلم ، فجعلها بين حسان بن ثابت وأبىّ بن كعب .

وأخرج ابن أبى حاتم عن محمد بن المنكدر قال : لما نزلت هذه الآية جاء زيد ابن حارثة بفرس يقال لها سَبَل لم يكن له مال أحب إليه منها ، فقال هى صدقة ، فقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم وحمل عليها ابنه أسامة ، فكأن زيدا وجد فى نفسه (حزن) فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك منه قال : أمَا إنّ الله قد قبلها .

فهذا الأثر وما قبله دلائل واضحات على حسن السياسة الدينية لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعرفة مايختلج فى القلوب ، فقد رأى أن أبا طلحة وزيدا قد خرجا عن أحب أموالهما إليهما بعاطفة الدين ، فجعل ذلك فى الأقربين ليثبّت قلوبهما ، ويكمل إيمانهما ، ولا يجعل للشيطان سبيلا ينفذ به إلى ما بين الجوانح ، فيندمان إذا هما رأيا أموالهما فى أيدى الغرباء ، إذ كثيرا ما يفارق المرء شيئا محبوبا لديه باختياره لعاطفة الدين ، أو للجود به على غيره ، ثم لا يلبث إلا قليلا حتى يعاوده الحنين إليه ، ومن ثَمَّ كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر عمّال الصدقة باتقاء كرائم الأموال ، والبعد عنها حين جباية الصدقات .

وهناك من الشواهد مايدل على هذا أيضا فقد أخرج عبد بن حُميد عن ابن عمر

قال : حضرتنى هذه الآية (لن تنالوا البر) الآية ، فذكرت ما أعطانى الله تعالى ، فلم أجد أحب إلىّ من مَرْجَانَةَ (جارية رومية) فقلت هى حرة لوجه الله ، فلو أنى أعود فى شىء جعلته لله تعالى لنكحتها ، فأنكحتها نافعا (مولى له كان يحبه كأحد أولاده) .

فتأمل وانظر تر أن نفسه قد راودته بعد عتقها على أن يستبقيها له ولا يفارقها ، لولا أن كان مما عوّد نفسه عليه ألا يرجع فى شىء جعله لله ، ومع ذلك جعلها لأحب الناس إليه وهو مولاه .

وعلى الجملة فآثار السلف فى الإيثار وبذل المال ابتغاء مرضات الله كثيرة .

فقد روى أن ابن عمر اشتهى سمكة بمكة وكان قد نقه من مرض ، فبحث عنها فى المدينة فلم توجد ، و بعد مدة وُجدت ، فاشتريتْ بدرهم ونصف الدرهم ، فشُويت وجىء بها على رغيف ، فجاء سائل بالباب فقال ابن عمر للغلام : لفها برغيفها وادفعها إليه ، فأبى الغلام فرده وأمره أن يدفعها إليه ، ثم جاء بها فوضعها بين يديه ، وقال كل هنيئا يا أبا عبد الرحمن ، فقد أعطيته درهما وأخذتها ، فقال لفها وادفعها إليه ولا تأخذ منه الدرهم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أيّما امرئ اشتهى شهوة فرد شهوته وآثر على نفسه إلا غفر الله له » .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه أهدى إلى رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رأس شاة ، فقال إن أخى فلانا كان أحوج منى إليه ، فبعث به إليه فلما وصل إليه قال : إن فلانا كان أحوج منى إليه ، فلم يزل يبعث به كل واحد منهم إلى آخر حتى تناوله سبعة أبيات ورجع إلى الأول .

وفى هذه الآثار وأمثالها ما ينبغى أن يكون عظة لمن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فيقتدى بأولئك الأبرار الطاهرين ، ويجعلهم المُثُل العليا للبذل فى سبيل الله .

(وما تنفقوا من شىء فإن الله به عليم) أى أىّ شىء تنفقونه فى سبيل الله طيبا أو خبيثا فالله مجازيكم به على حسب ما يعلم من نيتكم ، ومن مواقع ذلك فى قلوبكم ،

فربّ منفق مما يحب لايسلم من الرياء ، وربّ فقير معدم لا يجد مايحب فينفق منه ، ولـكن قلبه يفيض بالبرّ ، ولو وجد ما أحبه لأنفقه أو أكثره .

وفى هذه الآية ترغيب وترهيب وحث على إخفاء الصدقة ، كى لا يكون للشيطان منفذ إلى قلوب الأبرار الصالحين .

جعلنا الله من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، وصلوات الله على أنبيائه المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وكان الفراغ من مسَوَّدة هذا الجزء بحلوان من أرباض القاهرة فى رجب المعظم من سنة إحدى وستين وثلثمائة هجرية .

فهرس

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء